كتاب الهلال

أسطورة حب

وقصص أخرى

بقلم فتحي رضوان

سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٣٨ - ربيع الثانى ١٣٨٢ - سبتمبر ١٩٦٢

No. 138 — SEPTEMBRE 1962

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ١٠٠ قرش صاغ - فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا - فى بلاد اتحاد البريد العربى بالبريد البحرى ١٣٠ قرشا صاغا و (بالطائرة) ١٧٨ قرشا صاغا - فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف - فى سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا أو ٣٥ شلنا

ں

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

أسطورة حبّ

وقصص أخرى

بقلم

فتحي رضوان

مقدمة

بقلم المؤلف

ما هو هذا الانسان ؟ ..

هل عرفناه ؟ .. أو هل عرف نفسه ؟

انه لايزال ــ عند نفسه ــ اللغز الاكبر .. فقدخرج من صفوف البشرية ، الانبياء .. فخاضوا وخاض معهم الناس معارك هائلة ، وقفوا فيها صفا ، ووقفت قوى أخرى ، فى الناحية المقابلة، تقاتلهم، فى اصرار، وشدة بأس وضراوة. وخرج من صفوف البشرية ، مفكرون ، وفنانون ، وعلماء. وارتفع على معارج من الاستشهاد والطموح ، قديسون وأبرار . والناس ، جيلا بعد جيل ، وعهدا بعد عهد ، يتحدثون عن الحب والسلام ، ويعلون من شأن الفن ، ويحرقون البخور للعلم ، ويعلنون الولاء للعقل .. ولكن هذا الانسان نفسه ، لا يكف أبدا عن هدم ما بناه ، ونقض ما ابرمه ، وتلويث ما قدسه ، وانكار ما دعا اليه .. فهو فى معركة دائمة ، مع نفسه ،ومع غيره : مع الذين سبقوه، والذين عاصروه ، وأحيانا مع الذين سيأتون بعده ..

وهو على فرط حيويته ، وشدةاحتماله، وتوثبه لمنازلة الصعاب ، وتطلعه للمجهول ، واستهدافه للمخاطر ، واستعذابه للآلام ، لا يشتد نشاطه ، ولا يلتهب خياله ،

ولا تتسع طاقته ، ولا يبلغ صبره أقصى مـــداه ، الا اذا تحركت فيه أسوأ عناصر نفسه .. فهو عند القتــال وفى الحروب وعند احتدام الغضب ، والرغبة فى الثأر ، تبلغ قوته اقصى الغاية ففى هذه الســـــاعات الحالكة يقبل بطيب نفس ، وسماحة ، أن يهدم داره ، وييتم أطفاله ، ويخرب اعز ما يملك . يحرق التحف الغالية ، وينســف كل ما بناه فى عشرات السنين ومئاتها بل وآلافها ، ويلقى فى اتون النار المشـــتعلة بذخائره ونفائســـه .. وهى عنده ــ فى وقت السلام ــ اعز عليه ، وأغلى عنده ،من نور عينيه ، والروح التى بين جنبيه ..

ولو راجعنا سجل البشرية ، لوجدنا انها كشـــفت واخترعت وابتدعت وأتقنت ماكان بدائيا ، وأحكمت ماكان مختلا ، فى وقت الحروب .. فالدبابة والسيارة والطائرة، والصواريخ العابرة للمسافات، وأجهزة الرادار، واللاسلكى، وأكبر عمليات الجراحة ، وأعظم بحوث الطبيعة والكيمياء ، وأعقد الدراسات فى الادارة البشرية ، وقيــــادة الافراد والجماعات ، وأمراض نفوسهم وأعصابهم وعقولهم .. كل هذا حققه الانسان ، وهو يحارب ، ليقضى على اخـــوانه وزملائه الذين لا يعرف أسماءهم ، ولم ير وجوههم ، ولم يختلفوا معه على شىء ، ولم يسببوا له تعبا ولا ألما ..

وهو حينما يعب من الدماء ما اسـتطاع ، ويخرب الى أقصى الحدود ، ويقتل ويذبح ، يهدأ هدوءا عجيبـــا ، ويشمله حزن عميق ، ويملأ نفسه تقزز واشمئزاز، ويقسم أنه لن يعود الى هذه الحماقة .. ويروح يواسى ، ويعين ويلاطف الذين دمر بيوتهم، وخرب ديارهم، وألقى بهم فى جحيم البؤس والتعاسة ..

ثم لايلبث حتى يتخذ من كل وسيلة من وسائل السعادة ، والاتصال ، والتقارب ، إداة للانتقام ، والانفصال والتباعد،

فقد أصبح الانسان غنيا بوســـائل الانتقـــال التى ألفت المسافات ، وأوشكت أن تلغي الزمن نفسه .. الطائرات التى تقطع فى الساعة الواحدة ألفى كيلو ، اللاسلكى الذى تســـتطيع ، وأنت في حجرتك ، بل وانت مستلق على فراشك ، تقضم فى دعة ، وخلو بال ،فطيرةوتحتسى كوبامن قهوة او شاى القيام معه برحلة طويلة من طوكيو ، الى موسكو ، الى القاهرة ، الى لندن ، الى واشنطون ، الى كراتشي .. فتسمع اليابانية والروســـية ، والعربيـــة والانجليزية والاردية ، وتسمع مع كل ذلك موســـيقى الشعوب ، وتقف على الآراء المتناقضـــة ، والمبادىء المتعارضة ، غير ان هـــذه الادوات الســـحرية لم تزد الناس الا فرقة ، ولم تدخر وســـعا فى اقامة الحواجز والحدود لا بين الامم بعضها البعض ، بل بين افراد الامة الواحدة ، واحيانا بين ابناء المدينة الواحدة .. فالحواجز والحدود وحملات الاذاعة والصحافة ، جعلت ابناء هذا الكوكب ، اشد عنفا ، واكثر استجابة لدواعى القتال والكراهية ، والشك ، والخوف ، وأميل الى دعوة الانتقام والتدمير ، من وحوش الغابة ..

ومع ذلك لا تكاد تصفو النفوس قليلا ، ويتلاقى ابناء شعبين متنافرين متقاتلين ، فى ميدان رياضة او على خشبة مسرح ، او فى قاعة محاضرة ، أو فى ندوة بحث ، حتى تراهم سعداء ، فرحين يكاد يذوب كل فريق منهم فى صاحب اليوم ، وعدو الامس ، شوقا ..

ما هذا ؟ ..

أيكون ما نظنه شرا ، هو خير ونحن لا نعلم ..

أفرض على الانســـان ــ وقد تكون من عقل وقلب ، ثم امعاء وجهاز هضم ، وجهاز للتناســـل ــ ان يـــكون أبدا شخصية مزدوجة .. وأن يكون كل ما يقول،ومايفعل،

ذا وجهين .. أتكون هذه الآلام والفواجع والمآسى ، هى سبيل الانسان الوحيد الى التقدم والابتداع والتطوير ..

أم ان هذه الحياة ، وقد دبت فينا ، بغير دعوة منا ولا استئذان ،اكبر منا، واعلى من مستوى عقولنا ،فبات من العبث ان نحاول فهم مراميها ، وادراك بواعثها .. كما ان من العبث ايضا ان نكف عن محاولة الفهم ، لان هذه المحاولة جزء من تلك الحياة نفسها ،ولان التساؤل الابدى ، هو الحافز وراء كل عمل فنى .. ان البحث عن الانسان ، وكشفت غوامضه ، وتفسير بواعثه .. ان النظر فى قلب الانسان وعقله .. والتأمل فيما يقول وفيما يفعل .. والاعجاب به طموحا مضحيا متعاليا عن العنف .. والرثاء له ، وهو ينحنى تحت ثقل شقوات بدنه واحقاده ومخاوفه واوهامه ..

ان السير مع الانسان فى سراديب حياته المظلمة المعتمة.. سراديب التآمر والاعتداء ، والحقد على الغير ، والخوف منهم ، والتحليق معه فى أجواء تحرره وسبحات تطلعه ،الى ما هو أعلى ، وأنبل ، وأنقى ، وألطف ..

ان هذا كله ، هو عالم الفنان سواء أكان كاتب قصة أم ناظم شعر ، أم مؤلف مسرحية ..

وسواء أكان مصورا يرسم بالقلم أو الريشة ، أو نحاتا أو حفارا ..

ولقد شغل الانسان بنفسه منذ الثورة الصناعية اكثر مما شغل بها فى أى عهد مضى .. فقد كثرت بين يديه الادوات التى فتنته بنفسه .. انه يحلق فى السماء ، ويقترب من النجوم ، انه يغوص فى اعماق البحر ، انه يغير الحار الى بارد ، والبارد الى حار ، بل انه يوقف قلب الانسان ، ويرد الميت الى الحياة .. انه يخلق انسانا يفكر

ويحسب ، ويتنبأ ويكاد يفلسف الامور ·· انه عظيم ، انه اله !

ولكنه رأى نفسه مع عظمته ، وتفوقه ، وتسخيره للكون، ضعيفا ، بل انه ازداد ضعفا فهو يعيش فى خوف حتى من الجوع ·· انه يخاف جيرانه ، انه لايدرى ماذا يقرأ ، وماذا يدع .. ماذا يقول ، ومتى يقول ، وكيف يقول ، ومع من يقول ·· متى يفنى ؟ ·· كيف يفنى ؟ ثم ماذا يكون بعد ذلك ؟ .. ان العالم يتحول ، ان العالم مهدد بالفناء ·· فهل سيفنى ؟ ·· فالانسان يواجه اعجب مصير يواجهه منذ خلق فى هذه الدنيا ، ودب على هذه الارض ..

انه بلغ القمة ـ او على الاقل ـ انه يتصور ذلك ·· ولكنه حين بلغها ، وأطل منها ، على السفوح ، لم يلهمه وقوفه على هذه القمة الا بشعور واحد .. هو رغبته فى أن يقفز منها الى .. القاع ..

الى العدم

هل سيفعل .. ؟

ام ذلك وهم كله فلا هو وصل الى القمة ، ولا هو قادر على الانتحار .. وليس تحته فناء ، حتى ولو قامت حرب ذرية .. انما هو الانسان الحريص على الحياة ، الممتلىء كبرياء وثقة بنفسه ، يتصور انه لو ذهب انتهت الدنيا ..

ولذلك لم يكن اهتمام الانسان بالنظر فى نفسه ،وادامة التحديق فيها ، والتأمل فى نواحيها ، الا استجابة طبيعية ·· وكان من اثار تلك الاستجابة ان رأينا طوفانا من كتب الاعترافات ، والمذكرات الشخصية ، وتراجم حياة العظماء ·· ولم نكتف بنشر حياة من عاشوا معنا

وعاصرونا ، بل ذهبنا ننقب ، حتى رجعنا الى الذين رحلوا عن هذه الدنيا بمئات وآلاف السنين ، فنبشنا قبورهم وعريناهم من اثواب العظمة ، وسلطنا عليهم اضواء افكارنا ، واتخذنا من أقلامنا مشارط .. ودخلنا ورائهم الى مخادع النوم ، وفتشنا ما عساه يكون بين طيات الفراش ، واستخرجنا من خطاباتهم وخطبهم ، ما قاله الصغار والكبار فى حقهم ، ما اجترأنا معه على اتهامهم بالضعف او الجنون او النقائص الجنسية .. ولما لم نشبع بهذا كله ادعينا اكثر من مرة ان هؤلاء لم يكونوا ابدا .. لم يولدوا ولم يروا الحياة ، وانما خلقهم عقل الانسان وخياله الفنى المديد

ولما كان العلم لا يكف عن الجرى وراء الادب فقد نشأ بفضل هذه الرغبة النهمة فى تأمل الانسان ودراسته علم بل علوم لم يعرفها الناس من قبل .. فعلم لنفس الانسان ، وعلم لعاداته القديمة ، وعلم لفنونه المندثرة ، وعلم لاجناسه وهجراته .. وهكذا .. وهكذا

وليس أكثر استجابة للحركة والحياة ، والتطلع والطموح ، والاضطراب والقلق .. من الفن !

انه صدى الانسان وصورته .. انه صوته ومؤنس وحشته ، وسميره فى الانتصار ، وعزاؤه فى الانكسار .. انه ملهمه ومجدد نشاطه .. انه المحرض الاكبر للانسانية ..

فهو يسبق العلم ، ويمهد للدين ، ثم يجرى معهما ، ثم يبقى بعدهما معلقا ، وناقدا ، ومفسرا ...

فكيف لا توجد فى هذا العالم المحتدم بالحركة والمشتعل بالحرارة ألوان من القصة لم تكن من قبل ..

فبعد الملاحم الكبرى .. وجدت القصة الطويلة ..

والمسرحية ، ثم أخيرا هـذا النبت الجديد : القصة القصيرة .. ولكنها لم تكد تولد ، حتى ثبت قدمها ، ونافست غيرها من أساليب وصف الانسان ، وشرحه ، ونقده ..

فالقصة القصيرة ، هى عنوان العصر ، وصدى تفكيره ، وثمرة قلقه ، وطموحه ، ولهفته ، وافتتانه بنفسه ، واشمئزازه منها ، وشدة حرصه على الحياة ، وعظم شكواه منها .. وتأرجحه بين التفاؤل والتشاؤم . واضطرابه بين روحه وجسده .. واحترامه للقديم واجترائه على الحياة .. واعتقاده بالله ، وثورته عليه .. واعتبار نفسه الها ، واعتبار الدنيا جنونا غير مفهوم.. وخلطا بغير قاعدة ولا منطق ..

فالقصة القصيرة هى أدب الذين يعيشون ، وعيونهم مرفوعة الى السماء ، فى انتظار الوصول الى القمر والمريخ .. والذين يعيشون وهم يحسبون الدقائق والثوانى فى انتظار انفجار قنبلة ذرية أو قنابل.. لاتبقى ولا تذر .. والذين يعتقدون أنه لا حرب ، ولا فناء ، وانما بقاء واستقرار ، وتقدم ..

فتحى رضوان



حاسب يا عمّ



كان « عبد الظاهر الويشاوى » سعيدا غاية السعادة بالمقهى الذى عثر عليه فى حارة متفرعة من شـــارع ، متفرع بدوره من عماد الدين .. أغنى طرق العاصـــمة بالحركة ، وأحفلها بالملاهى ودور السينما ، وأكثرها ميلا الى السهر ، والتماس المتعة ، والبعد عن جو الحيـــــاة وسخافاتها التى لا تنتهى ..

كانت الحارة هادئة هدوءا متصلا .. فالمترددون عليها قليلون ، والسيارات ، والباعة الجائلون ، وحلقـــــات الصبية وهواة المشاجرة ، وحمـــــلة « البيانولا » مع ما يتبعهم من المتفرجين المتسكعين .. كل هؤلاء لا يعرفون طريقهم الى هـــــذه الحارة العجيبة ، فكأنها كوكب من الكواكب التى لم تكتشف بعد ، فلم توضع على خريطة السماء ، أو واحة لم يهتد اليها الرحالة المغامرون ، فلم ترسم على خريطة الارض ..

وكان المقهى ، صورة من هذه الحارة فهى لا تحمل فوق بابها لوحة تعلن للزبائن اسمها ، ولا يوجـــد بداخلهـــا « راديو » يطارد الناس صوته .. وتأدب صاحب المقهى ومساعده العامل الوحيد بها بأدب الحارة ، فعدلوا عن الطريقة المـــألوفة ، فى الاعلان عن طلبـــات رواد المقهى بأصوات عالية ممطوطة . فالعامل على الرغم من كونـــه شابا قويا طويلا نشيطا ، الا انه لم يســـمع وهو يصرخ كغيره من زملائه وأشباهه فى المقاهى الاخرى ، وصاحب المقهى الذى لم يشاهد أبدا خاليا من عمل يباشره ، لم يشتبك مع أحد فى حديث ، حتى ليحق لك أن تحسبه

جهازا يعمل وراء « النصبة » التى تعد عليها القهوة والشاى وغيرهما من المشروبات ، وتهيأ الجوزة والنارجيلات ، ونارها وماؤها

وقد أرضى هذا كله « عبد الظاهر الويشاوى » ، فاتخذ من هذا المقهى ملاذا يلتمس فيه كل غروب ، راحة ساعة أو ساعتين ، فيسعى اليه فى خطوة وئيدة حيث يجلس على الافريز الذى تصف عليه المقاعد المصنوعة من الخيزران ، والى جانبه منضدة مستديرة من النحاس الاصفر ، ترفع على حوامل ثلاثة من الحديد الزهر الذى ذهب عنه لون اخضر طليت به الحوامل يوما ، ثم نصل اللون مع الزمن ولم يفكر احد فى اعادة الطلاء ، فلم تقض بذلك ضرورة ..

لم يغير عبد الظاهر مكانه أبدا ، اذ لم يفكر أحد فى أن ينافسه على هذا المقعد ، فغيره من المقاعد يشبهه .. ومع مرور الايام اصبح مجلس عبد الظاهر على الافريز خارج المقهى ، بجلبابه الغالى المصنوع من الصوف أو الجبردين او السكروتة او الكتان ، حسب فصول السنة وتغير الطقس ، جزء من المقهى ، بل جزء من الحارة . فانك لا تكاد تصل الى أولها حتى يقع نظرك عليه ، جالسا فى مكانه ، حوله هالة من وقار تكاد تلمسها باليد .. فقد كان عبد الظاهر انسانا ضخما ، كل ما فيه كبير .. فهو طويل يلفت النظر ، عريض ذو مناكب امتد ما بين طرفيها يطالعك بوجه تعلوه جبهة عالية ، يزينها طربوش طويل نظيف .. وتتألق تحت الجبهة العريضة ، عينان واسعتان سوداوان يزيد سوادهما ، سواد حاجبين كثيفين ، يتفرع عند التقائهما أنف يتناسب فى ضخامته مع شوارب غليظة تغطى شفتيه الغليظتين . ومع هذه الضخامة والكثافة والفلظة فى قسمات هذا الوجه ، فأنت تشعر

بأنها تقاطيع متناسقة ومتناسبة ، وتشعر بشيء آخر أكثر غرابة .. هو ما يسود هذا الوجه من هدوء عميق، فعبدالظاهر اذ يجلس فى مكانه ، والى جانبه كوب الشاى غالبا ، والنارجيلة أحيانا ، لا يبدو عليه انه يرى شيئا ، أو يفكر فى شيء .. فهو صامت ، ينظر الى لاشيء .. الى فضاء الحارة .. ومن خلفه يجلس رواد القهوة ، وكأنهم أبطال رواية من روايات السينما القديمة قبل أن تنطق الشاشة بأصوات الممثلين ، وضجيج رصاص البنادق ، ورعود المدافع .. وما يشبههما من موسيقى « الجاز » ! فيبدون كالاشباح ، فى أضواء المقهى الخافتة يلعبون « الدومنا » أو الورق فى صمت

وسارت أمسيات عبد الظاهر فى هذا المقهى على هذه الوتيرة .. وكان الظن أن تبقى هكذا ، لولا أن جلس ذات مساء الى جانبه ، على المقعد شاب جميل الطلعة ، حسن الهندام ، يكاد يقطر الخجل من وجهه ..

لم يحى عبد الظاهر ، ولم يكلمه ، بل جلس صامتا ، وطلب فنجانا من القهوة ، ثم أشعل سيجارته ، وأخذ ينفث دخانها فى الهواء ، وراح يتابع ما يرسمه فى الجو من حلقات . توالى حضور هذا الشاب الى المقهى،وكأنه فى مكانه من عبد الظاهر ، كشخصين يقيمان فى كوكبين .. الى أن حدث فى ذات ليلة أن اختل توازن عامل المقهى ، وهو يحمل « صينية » فى يد ، و « جوزة » تحت الابط، ومقعدا فى يد أخرى ، فكادت تهوى الصينية على رأس عبد الظاهر لولا أن مد له الشاب يده ، فاستعاد توازنه فى لمح البصر ، وانطلق كالسهم بين صفوف الزبائن كأن لم يحدث شيء .. ولكن هذا الحادث السريع العارض ، حمل كلا من عبد الظاهر ، وجاره الشاب أن ينظر

أحدهما جهة الآخر ، فتتلاقى العيون ، ثم تتبادلان بعض الالفاظ .. وكأن كلا منهما كان يضيق بتجاهل الآخر له ، فانهار فى التو هـــذا الحاجز الذى اقيم بينهما ، وتكلما .. ثم انتقل عبد الظاهر فى اليوم الثالث الى حيث يجلس جاره ، وتغيرت الصورة ..

فلم يعد نظر القادمين الى الحارة يقع على «عبدالظاهر» على مقعده فوق رأسه طربوشـــه العالى ، وشـــارباه الـكثيفان ، وحاجباه الغليظان ، وأنفه الشامخ ، تطالع الناس فى تعال وصمت ووقار .. بل حل محل هـــذه الصورة .. صورة رجل مهيب يستمع بكلياته الى شاب نحيل صغير يتكلم فى صوت هادىء لطيف ، ويضحك بين الحين والحين ..

ولـكن حدث ما هو أهم وأخطر شأنا ، فان هذا الوجه الجامد ، عرف كيف يتكسر جموده ، بفضـــل ابتسامات كانت تعبره عبورا سريعا . وفى احدى الامسيات ارتفعت قهقهة عالية ، من صدر عبد الظاهر ، فرفع زبائن المقهى المجاورين وزملاؤهم الجالسون داخلها ، رؤوســـهم .. وكأن لسان حالهم يقول :

ــ سبحان القادر على كل شىء .. !

لـكن التغيير الذى طرأ على عبد الظاهر لم يكن سطحيا وخارجيا ، بل أوشك أن يكون داخليا وعاطفيا .. فقد أصبح يسير الى المقهى ، بخطوة سريعة نوعا ، فاذا لم يجد صاحبه فى مكانه جلس وأخذ ينظر الى مدخل الحارة بشىء من الملل والتطلع ، وأحيانا القلق !

لقد عرف من صاحبه الشاب كل شىء عن حياته ، ولم يعرف صاحبه شيئا أبدا .. لم يسأله من هو ، ولا ماذا يعمل ، ولا أين يعيش . وقد كان هذا سر اقباله على هذا الشاب ، وتعلقه به ، وفرحه بصحبته .. فقد كان

يكره أن يعرف الناس عمله ، لانه كان يعتقد ان النـاس اذا عرفته حقيقة دوره فى الحياة تجنبوه . ولما عثر على هذا المقهى الهادىء العجيبه ، لم يكن يظن أن توفيقه سيتوج بما هو أجل وأعظم .. بجار يحدثه ويمتعه ، ويروى له عجائب حياته ، ولا يدس انفه فى حياته هو ، ولا يحمله الفضـــول على أن يشقيه بأسئلة كأسئلة المحققين ..

على ان عبد الظاهر ، كان يتوهم أحيانا ان صـاحبه عرف ماذا يعمل ، استنتاجا أو مصـــادفة ، واحترم شعوره فلم يقل له شيئا عنه .. ولـكنه سرعان ما كان ينفى هذا الوهم ، حتى لا يعكر صفو حبه ومودته لهذا الصديق النادر ..

وقد كانت جعبة الشـاب ، لا تفـرغ من النـوادر والطرائف حتى تمتلىء ، فقد اصبح يعمل قبل تردده على المقهى مباشرة فى ملهى ليلى .. وعمله فى هذا الملهى ، وان اقتصر على اجلاس الرواد فى اماكنهم ، الا انه يرى بفضله كل ما يجرى فى الملهى ، بل انه يعرف ما يجرى فى حيـــاة غانيات الملهى ، ومآسيهن ، ومجازفتهن ، ومغـامرات الاصدقاء الذين يدورون حولهن ، ويتقاتلون عليهن ..

وقد كانت جعبة الشـــاب ، لا تفرغ من خيال عبد الظاهر ، وامتع العوالم عنده فى الوقت نفسه ..

نساء عاريات أو شـــبه عاريات ، ونقود تبعثر بغير حساب ، وشيوخ ينافسون شبانا .. ورجال من ذوى السلطة والنفوذ ، يدخلون من الابواب الخلفية يشمخون بأنوفهم ، ويتظاهرون بالجد والصرامة ، فاذا وصلوا الى الغرف الكائنة وراء المسرح .. خلعوا الاقنعة من فوق وجوههم ، وشربوا وسكروا ، وصرخوا وتمرغوا فى الوحل دنيا تخالف الدنيا التى يعرفها عبد الظاهر ، وكان

يود أن يكون قادرا على تمنى ـ مجرد تمنى ـ رؤية طرف منها .. ولـكن كل شيء كان يمنع هذا التمنى ، ويجعله مستحيلا .. ومع ذلك فانه يشعر بقربه الشديد من هذا العالم الفاتن الرهيب ، عن طريق صاحبه الشـاب الذى لايبدو عليه انبهـاره بالدنيا التى يعيش فيهـا ، ويتصل بها ، أو تحمسه لها .. فانه يروى ما يراه فى صوت لا تتغير نبرته ، حتى كاد عبد الظاهر يتهمه ـ بينه وبين نفسه ـ بالنفاق والتظاهر الـكاذب ..

بيد أن أعجب ما فى قصة هذا الشاب سبب اتصاله بهذا العالم المذهل الذى يعيش فيه .. فانه لا يمت اليه أصلا ، فقد كان سائقا لسيارة ، عند أرملة شابة أغدقت عليه الـكثير ، حتى بدا شابا أنيقا .. وعرف فيمن عرف ممن يترددون على دار سيدته ، سائقا مثله ، كان يسهر كل ليلة مع سيده ، فى ملهى ليلى ، حتى توثقت صـلاته بموظفى هذا الملهى ، وعماله .. فلما خلا مكان أحـد هؤلاء الموظفين عرضوا عليه أن يعمل بدلا منه ، فرحب بهذه الفرصة التى لم تكن تخطر له على بال ، الا انه لم يلبث حتى أخذ يصعد فى سلم الرقى والنجاح ، فى هذا العالم الجديد .. فترك مكانه لعمل أكبر شأنا ، وأعظم ربحا ، فى ملهى أكبر مكانة ، وأعلى مرتبة .. وعرض على صاحبه أن يحل محله فى مكانه هو ، وتردد هذا الاخير ولـكنه قبل تحت الحاح صديقه واغرائه .. قبل تورطا فان خجله كان يجعله فريسة سـهلة لمن يثابر على الالحاح عليه .. !

وذهب عبد الظاهر كعادته الى المقهى ، وجلس مطمئنا الى أن صاحبه سيأتى فى موعده ، حتى تحين ساعة العمل فى ملهاه .. ومرت الدقائق بطيئة ، دون أن يأتى .. ثم اكملت الدقائق ساعة ، وتجاوزت العقارب حدود الساعة

الى منتصف ساعة ثانية ، ثم أكملتها .. ؟

وبدأ القلق ينشب أظافره الحامية فى نفس عبد الظاهر .. ماذا ؟ أيمكن ألا يحضر الشاب هذه الليلة ؟ .. ان هذا مستحيل ، لانه ألف منذ شهور ، ان يراه ويستمع اليه .. تماما كما يرى كل يوم شروق الشمس وغروبها بل انه لايرى شروق الشمس ولا غروبها ، وان كان يحس بها ويرى نورها ، اما صاحبه فيراه ، ويستمع اليه ، ويملأ أذنيه وقلبه بأحاديثه .. وانقضت الامسية دون أن يأتى الشاب ، ولم يرد عبد الظاهر الاستسلام لليأس فبقى فى مقعده ، مؤملا أن يأتى صاحبه ، ولاول مرة يعود الى بيته متأخرا عن عادته .. ولما عاد لاحظت زوجته وأولاده انه كاسف البال ، متعب ، كأنه عاد من عمل شاق ، وخائب ، ولم يسألوه شيئا ، فلم يكن فى الدار من يجرؤ على توجيه السؤال .. !

وفى المساء التالى ، أسرع عبد الظاهر الى المقهى ، فى مشية تخلى عنها بعض وقارها ، وجلس على مقعده التقليدى فى مكانه المألوف ، وصفق فى عصبية لم تكن تخفى على العين البصيرة الناقدة ، وطلب كأسا من الشاى ، دون أن ينتظر قدوم العامل اليه ، وسأل ــ خلافا لكل تقليد سابق ــ هل حضر « منعم » ؟ .. فأجاب عامل المقهى فى دهشة ، مجيلا نظره فى الجالسين والرواد على الافريز وفى الداخل :

ــ لا .. لم يأت موعد مجيئه بعد .. وألقى نظرة لا شعورية على الساعة فى معصمه !

وتعلقت عينا عبد الظاهر على مدخل الحارة .. فلما أهل « منعم » ، تنفس الصعداء ، وكأن جبلا انزاح من فوق صدره ، ولكنه لم يلبث أن أدار وجهه ناحية

أخرى ، وتظاهر بأنه لم يكن مشغولا ولا موزع البال ، وسلم « منعم » وفسر غيابه ، بعذر عما يطرأ لكل انسان وعينا عبد الظاهر تحيطان به وكأنما همـــا ذراعا أم تتلقيان ابنا طال غيابه ..

وعادت الحياة رتيبة .. يحضر عبد الظاهر فى موعده ويحضر « منعم » كذلك ، ويروى قصـــصــه وأعاجيب دنياه لاذنى عبد الظاهر الشرهة المتشوقة الى مزيد من الاسرار والفضائح والغرائب ..

ولـكن عبد الظاهر لم يستطع أن يخدع نفسه ، فان « منعم » قد طرأ عليه ما غيره ، انه هو هو ، فى خجله وأدبه ومواظبتـــه وهدوء صوته ، ولـكن شيئا من الشحوب علا وجهه ، وشيئا من تشتت الخاطر ، ظهر من تقطع حديثه ..

ان جديدا دب فى حياته .. ليس هذا بمستغرب ، فان الدنيا التى يعيش فيها والمخلوقات التى يجاورها ، ويعمل معها ، خليقة بأن تقلب وجود مثل هـذا الشاب رأسا على عقب .. فاذا كان قد نجح فى الابقاء والاحتفـاظ بأصله الى الآن ، فذلك سر جودة طبعه ، ومتانة خلقه .. وانقطع « منعم » عن المقهى يومين ثم جاء واعتـــذر بمرض ، ثم عاد فانقطع أياما أخرى ، واعتـــذر بعـــذر جديد . وتوالى الانقطاع ، وتوالت الاعتذارات .. وقلب عبد الظاهر يحدثه ، بأن الـكارثة الـكبرى موشكة أن تقع .. ولم تكن عند عبد الظاهر كارثة أكبر من أن يفقد صاحبه الى الابد .. !

ولم يطل الانتظار ، فقـد انقطع صاحبـه نهائيا .. وأصبحت حياة عبد الظاهر عذابا لا يطاق فهو فى عمله عصبى المزاج سريع الغضب ، شديد البطش .. وهو فى البيت ساهم ، واجم ، لا يتحدث .. وهو فى المقهى ،

قلق ، يطلب « الجوزة » التى لم يكن يفكر فيها مطلقا .. واذا جاءت فأوامره لا تنتهى .. فطلب النار والاعتراض على « التركيبة » يتكرر ، وعامل المقهى ، بل صاحبها لا يفهمان ماذا حدث لعبـــــد الظاهر ، ولولا انه زبون مواظب يكاد يكون قطعة من المقهى ، لضاقا به أو لتخلصا منه ..

ولـكن الانفعال الناجم عن هذه الوحشة القاسية ، خف مع الايام ، وتلطفت حدته ، وترسب فى أعمـــاق نفس عبد الظاهر حزنا عميقا ، ويأسا كاملا ، ولكن ندبة الجرح الخارجية لم تخف عمق الجرح نفسه .. فاذا نظر عبد الظـاهر يوما الى مدخل الحارة نظرة عفوية غير مقصودة ، تذكر انه كان يفعل ذلك فى الماضي عندما يتأخر عليه صاحبه .. أما اليوم فلا أمل فى نظرة ولا نظرات ، فان صاحبه قد اختفى ..

وأصبح عبد الظاهر يوما على عزم جديد ..

لماذا لا يذهب الى الملهى الذى يعمل فيه « منعم » ؟

وكان القرار هائلا ، فانه لم يخط خطوة واحدة نحو هذه الناحية من المدينة ، وهو لا يدرى لغة أصحابها ، ولا مداخلها ومخارجها فماذا يفعـــل ؟ ثم ماذا تكون النتيجة لو شوهد هناك ؟ .. أى تفسير يقوله للرؤساء الذين لا يبعد أن يكون أحدهم أو بعضهم ممن يترددون على هذه الملاهى .. ونفى الفكرة عن نفســـــــه وقرر الاستسلام لليأس والاخلاد الى راحته ..

وعادت الفكرة تعرض نفســــها عليه بعد أيام وعاد يقاومها ، وطالت المعركة وجمع أطراف شجاعته ، وذهب يضرب فى شارع عماد الدين ، ووقاره يحيط به ، وجزعه فى الداخل يتزايد ، ووقف على أبواب الملاهى كتمثال من لحم .. ونظر اليه بعض الشـــبان الذين يتبعثرون على

أبواب هذه الاماكن ، واخترقت أذنه عبارات سخرية لاذعة كاوية .. ضحكوا من شواربه ، ومن طربوشه ، ومن وقاره فى عالم يموج بالخفة والطيش والنزق

وعاد الى بيته كالنسر الجريح ..

ولعن « منعم » والمقهى الذى ساقه اليه .. وصمم ألا يفكر فيه أبدا . وفى الساعة التالية ، كان أمام أحد هذه الملاهى ، وقد دبت فيه شجاعة عجيبة وأخذ يسأل فى ثقة واعتداد ، وظن الموظفون انه يسأل عن ابنه ، واحترموا هذه العاطفة ، واستمعوا اليه وأطالوا الاستماع ، وأرشدوه الى ملهى آخر ، وهناك دلوه على ملهى ثالث ، وأخذ يتنقل ، وينظر على أبواب تلك الملاهى الرئيسية ، وأبوابها الخلفية .. ورأى الراقصات يدخلن محتشمات وعلى وجوههن كآبة وحزن .. ورأى العمال يعدون هذه الصالات ، فى جد ، تماما كما يعمل زملاؤهم فى الاعمال الجادة

ولكن « منعم » لم يكن له وجود فى كل هذه الملاهى والصالات .. بل ان اسمه لم يكن معروفا لاحد : فثبت لعبد الظاهر أن له اسما آخر فى هذه الدنيا ، وان مصيرا مجهولا ابتلعه .. فعاد من محاولته الفاشلة بقلب حزين ، مفعم بيأس أنهى معه كل أمل ، وماتت كل رغبة فى السعى من جديد ..

***

بعد زمن ــ لا يدرى عبد الظاهر بالضبط حسابه ــ نشرت الصحف التى لا يقرؤها وانما تتناهى الى سمعه أخبارها الكبرى المثيرة .. نشرت الصحف نبأ مقتل راقصة على يدى شاب فى ملهى ، وتحركت لهذا النبأ ذكرياته الهاجعة التى لم تنطفىء جذوتها أبدا ، وطلب

أن ينظر الى صورة الشاب القاتل ، وان تقرأ له تفاصيل النبأ .. ولم يستطع عبد الظاهر أن يتبين ملامحه ، فأضواء عدسات المصورين ، غشت لها عينا القاتل ، فأغمضها ، فبدا كالنائم .. وكان آخر الامر شابا نحيفا ، له شارب خفيف ، وثبتت حول عارضيه ، ذقن لم تمسها الموسى من أيام ، وتهدل شعره فوق جبهته ، وبدا متعبا ، غير مكترث لشيء .. وقد طافت حول شفتيه ابتسامة أو شيء شبيه بالابتسامة واطمأن قلب عبد الظاهر ، فلم يكن بين القاتل وبين «منعم» أية صلة حتى الاسم ، كان أبعد ما يكون عن أسم « منعم » ، كل ما فى الامر انهما فى سن الشباب ، وان كليهما نحيف ..

وعلى الرغم من هذه الطمأنينة الظاهرة ، فان شيئا ما داخل عبد الظاهر ، كان يدفعه فى الحاح مستمر الى أن يطلب من أولاده وزملائه الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أن يقرأوا له كل حرف تنشره الصحف عن القضية حتى كفت الصحف عن الكتابة عنها ، فنسيها عبد الظاهر أو تناساها ، وشغل الجمهور عنها بما جد من أحداث وقضايا وأمور ، ثم طفت من جديد على السطح حينما عرضت على محكمة الجنايات ، وقضت فيها بالاعدام شنقا ، لاقتران جريمة القتل بجرائم أخرى وقعت على رجال البوليس حين هموا بالقبض عليه ، وعلى صديق كان مع الراقصة عند الاعتداء عليها .. وقيل ان القاتل طعن فى الحكم أمام محكمة النقض واختفت القضية تماما ..

خرج عبد الظاهر الويشاوى من داره الى عمله فى الصباح المبكر ، والناس نيام .. وبعد خروجه بقليل ، كانت زنازين ثلاثة فى سجن الاستئناف ، قد أصبحت موضع اهتمام غير عاد من مأمور السجن ومعاونيه ،

ورجال النيابة ، ورجال الصحافة ، فنزلاؤها قد حان موعد تنفيذ حكم الشنق فيهم ..

وكان نزيل الزنزانة الاولى رجلا ضخما ، لم يكد يفتح عليه الباب حتى تكوم فحمله عساكر السجن حملا ، وهو غائب عن صوابه تقريبا ..

وكانت فى الزنزانة الثانية امراة أحرقت أختها لطمع فى ميراث ، فحملت الى مكان التنفيذ وهى تصرخ وتولول ، وتحلف بالله العظيم انها بريئة .. وجاء دور الثالث ، وتهيأ الجلاد لاستقباله ، ونظرت هيئة التنفيذ الى نهاية الطرقة الطويلة السوداء الداكنة التى يقدم منها المحكوم عليهم وظهر فى أول الطرقة ، فى ضوء شاحب ، يتسلل من نافذة عالية ، والحرس يجذبه . فوقعت الانظار على شاب نحيل ، ثابت القدم ، ينظر الى الامام ، وفى عينيه تهيب صارخ ، وجزع شديد ، ولكنه مع ذلك بقى متماسكا وساد كيانه كلههدوء عميق ، يكاد يكون رصانة ووقارا .. ووصل الى نهاية الطرقة وعيناه مضمومتان .. ثم أدار بصره فى حركة لا شعورية فى الواقفين ، وتركزت عيناه على الجلاد .. وخيل الى البعض انهما اتسعتا فى دهشة هائلة ، وان شفتيه انفتحتا عن صيحة لم يتبين أحد مدلولها ..

واقترب الجلاد من المحكوم عليه ، وبدأ يشد وثاقه ، فانفتحت الشفتان مرة أخرى لا عن صيحة ولكن عن عبارة قصيرة اخترقت أذن الجلاد ، وكأنها قذيفة ، فتوقف وقد ارتعشت يداه ، وغص بريقه .. فقد سمع :

ــ حاسب .. حاسب ياعم عبد الظاهر ..

والتفت المحكوم عليه برأسه نحو الجلاد ، وفى مثل لمح البرق رأى عبد الظاهر الويشاوى نفسه أمام « منعم » ،

نعم انه هو .. هو بنفسه . وصرخ المأمورفى عبد الظاهر بأن أسرع . وعاد « منعم » يقول فى صوت واهن :

ــ حاسب .. حاسب ..

ولم يستطع عبد الظاهر ان يعبر عما اصابه الا بأن زاد الوثاق ، وان دفع « منعم » امامه بشــدة الى غرفة التنفيذ حيث تــكون خاتمــة المطاف .. وطافت على شفتى المحكوم عليه ابتســامة او ما يشــبهها .. واحس عبد الظاهر بالاختناق .. ولما اســدل الطاقية السوداء على الوجه الذى أحبه وصاحبه .. سمع أو لعله خيل اليه انه سمع :

ــ ادع لى يا عم عبد الظاهر ..

وخرج عبد الظاهر من السجن الى البيت ، وهو يحس بمغص شديد يمزق أمعاءه .. ثم تبــع المغص الحــاد ، صداع لم يصب بمثله ابدا .. وتلقته زوجته صارخة :

ــ كفى الله الشر .. فقد كان زوجها فى مثل صفرة الاموات ، ولم يرد بحرف عليها ، وأشار الى فراشه ، فأعد له .. فارتمى عليه ولم يلبث أن تصبب العرق من كل جسمه ، كأنما أوشك أن يتحول الى ماء ، وأدنت الزوجة يدها من رأسه ، فاذا هى ملتهبة تكاد الايدى لا تطيق لمسها ..

ولم يكن من شأن الاسرة ، سرعة دعوة الطبيب اذا مرض أحدها ، فمر يوم ، ثم يوم ، وعبد الظــاهر فيما يشبه الغيبوبة . وفى اليوم الثالث حضر الطبيب ونصح بنقله الى مستشفى الحميات ، وان لم يقطع بنوع الحمى التى أصيب بها ..

وبقى فى المستشفى أياما وتشخيص الاطباء يرجح انها حمى التيفويد ، ولــكن التحاليل أثبتت المرة بعد المرة سلبية العينات التى أخذت .. وبعد أسبوعين خطر على

بال أحد الاطباء أن المرض قد يكون الحمى المالطية ..

وبدأت تحاليل أخرى ، وعلاج آخر ..

وخرج عبد الظاهر ، بعد عدة أسابيع واهنا ، ضعيفا، لا تكاد أقدامه تقوى على حمله ..

ومنذ اليوم الاول الذى استطاع فيه الخروج من داره ، قصد توا الى المقهى وجلس حيث كان يجلس ، واتجهت عيناه الى مدخل الحارة ..

كان ينتظر قدوم « منعم » ..

كان يعتقد أن كل ما سمعه فى بهو السجن .. وما رآه وهم لا أصل له ..

وفى ذات مساء ، عاد الى منزله كعادته وحيدا شاردا فداس بقدمه على قدم بائع متجول نشر بضاعته على قطعة من قماش « النايلون » على الارض ، وصرخ البائع فى صوت خافت :

ـ حاسب ياعم ! ..

وانطلق عبد الظاهر والعبـــــارة تدوى فى أذنه دوى الرعود ، ولم يكد يصل الى بيته حتى ألقى بنفســه فى الفراش وعاودته الحمى ..



الساعة



حينما خرج الصبى « نعيم » من مدرسته كان يحس أن الطريق بين المدرسة والبيت طويل ، وان خطواته الصغيرة لن تقصر من طوله مهما مد فيها ، ومهما أسرع. وقد كان يعرف فى نفسه ، انه وئيد الخطوة .. يسير وحيدا ، يسائل نفسه : لماذا لا تهفو نفسه الى ضرب حصـــا الارض بقدمه ، ولماذا لا يتعلق بمؤخر عربات « الحنطور » ولماذا لا يسابق زملاءه فى الشـــارع ، كما يفعل أكثر رفاقه فى الفصل .. وبطبيعة الحال لم يسائل نفسه قط ، لماذا لا تساوره الرغبة فى أن يأخذ حظا من لذائذ « الشقاوة » التى يتفنن فيها اخوانه فى المدرسة .. ويصلون فى تفننهم ، وابتداعهم وشجاعتهم ، الى صور باهرة .. انهم يخطفون أرغفـة العيش من فوق رءوس عمال المخابز ويختفون وراء الابواب ، وانهم يضعون فى أيدى الشحاذين المكفوفين أو مدعى العمى ، قطعا من الحجارة أحيانا ، وأشـياء أسـوأ من قطع الحجـارة أحيانا أخرى .. فاذا أمطرهم الشحاذ بوابل من الشتائم كمنوا فى ركن من بناء ، وكتموا فى صـــدورهم ضحكات تود أن تنفجر .. وتقدم واحد منهم الى الشحاذ ، مدعيا انه خف لنجدته ، حتى اذا ما اطمـأن اليه خطف منه عصاه ، أو صفعه على قفاه !

كان « نعيم » يرى هذه المغامرات وقلبه يكاد يعصر عصرا ، لانه يشعر بأنها فوق متناول شجاعته .. لذلك لم يجرؤ — حتى ولا فى خياله — ان يتصور أنه سيكون بطلا لواحدة منها فى يوم من الايام . كان يعرف بالضبط

حدود شخصيته ويلزمها تماما ، وقد كان أخص صفاته انه ولد هادىء ، وديع ، مرتب ، مطيع ، نظيف ، وانه أول فرقته دائما .. واليوم تأكدت صفاته ومزاياه هذه من جديد كما تأكدت من قبل مرارا .. فقد ظهرت نتيجة امتحان الثلاثة شهور الاولى ، فى السنة الثالثة الابتدائية بمدرسة القربية الابتدائية ، وكان الاول ، وحصل فوق ذلك كله ، على الدرجات النهائية فى المواد جميعا.. وقد اهتز الناظر اهتزازا شديدا ــ اهتزاز الاعجاب والفخر بطبيعة الحال ــ بهذه النتيجة المنقطعة النظير ، فداعب طرف شاربه المعقوص بيده اليسرى ، وهو يتأمل شهادة « نعيم » كما يتأمل الانسان لوحة فنية باهرة ، أو منظرا طبيعيا ساحرا ثم مرر يده اليمنى فوق ركبته اليمنى ، مرة ومرة .. ونظر الى ضابط المدرسة وسأله ــ كما يسأل السلطان فى حواديت الاطفال وزيره ــ ماذا يمكن أن يمنح صاحب هذه الشهادة من جوائز ؟ ..

ولم تكن شوارب ضابط المدرسة أقل ضخامة ، أو تقوسا من شوارب الناظر .. ولكن لم تكن تفوح منها رائحة « الجوزماتيك » الذى كان يستعمله فى تلك الايام، الرجال المتأنقون، ليكسبوا شواربهم القالب الذى يحبون أن يصبوها فيه .. واهتزت هذه الشوارب وكأنها تقول ، كما يقول الوزير فى « الحواديت » :

ــ التدابير لله يا ملك ..

وأخذ الناظر فى الحال يبحث فى أركان مكتبه وحجرته عن كتب أو خرائط ، أو أى شىء آخر متروك يصلح أن يكون مكافأة قبل نهاية السنة ، وأخيرا ، قرر فى حزم وعزم معا أن يهدى الى هذا الصبى النجيب ، ساعة يد ، وأن يدبر المال اللازم ، بتدابير تخرس لوائح الحكومة

وتربك وزارة المالية ووزارة المعارف معا .. ولما اشترى الساعة ، وتأمل فيها كما كان يتأمل فى شهادة « نعيم » من قبل ، أحس بأنه بذل فى سبيل النهوض بالتعليم مثلما بذل على باشا مبارك تماما .. وقرر أن تقدم هذه الساعة الى « محمد عبد المنعم خير الله الشوادفى » أمام تلاميذ المدرسة ، وبحضور المدرسين جميعا ، وضابط المدرسة « مسعد أفندى حسين » ، وشيخ الفراشين « عم مصطفى الحصرى » .. ولما التأم الشمل وقف الناظر بين الجمع خطيبا ، وفى يده الساعة، وأطال فى الكلام ، وأسهب ، وتحدث عن مزايا الاجتهاد، وطلب العلم ثم الطاعة والنظام . وأدار الخطبة بعد ذلك ؛ عن الساعة ، وكيف انها تدق كما يدق قلب الانسان تماما ، وان شوقى أمير الشعراء لم يخطىء فيما قال .

« دقات قلب المرء قائلة له :

ان الحياة دقائق وثوان .. »

ومد يده بالساعة فاشرأب جميع المدرسين والتلاميذ بأعناقهم الى حضرة الناظر ، وهو على الدرجة العليا من درجات سلم قليل الدرجات يؤدى الى طرقة تؤدى بدورها الى مكتبه ، ولكنه لم يلبث حتى ضم كفه على الساعة ، وبدأ يتناول معنى جديدا وهو « المكافأة » ودورها فى النهوض بالافراد والامم ، وقال : ان الله يجازى ويكافىء ، وأخذ يستشهد بالآيات والاحاديث وشعر الشعراء وأقوال العظماء ، حتى يئس الحاضرون من تسليم الساعة الى « نعيم » الذى كان واقفا أمام الناظر على آخر درجة من درجات السلم ، والمدرسة كلها من خلفه ، لا تنظر اليه بقدر ما كانت تنظر الى يد حضرة الناظر ، وقد انطوى كفه على الساعة .. كان « نعيم » هادئا كعادته .. شعر أول الامر بالخجل

الشديد ، عندما بدأت خطبة الناظر ، فلما أطال وكرر وأعاد ، كاد ينسى تماما أنه موضوع هذه الخطبة ، وفقد حتى الرغبة فى أن يأخذ الساعة .. فقد كانت انفعالاته قصيرة العمر ، تولد هادئة ، ثم تصبح باردة ، ثم تموت بلا ضجة أو عناء ..

ولكن دبت فى الحاضرين جميعا حرارة شديدة ، حينما مد حضرة الناظر ذراعه فى أتجاه « نعيم » وخطا نصف خطوة ، فى اتجاه الدرجة الثانية ، للدرجة التى ألقى الخطبة منها ، فقد أحس الجمع بأن الاجتماع وصل الى ذروته ، وان الساعة قد حان اطلاق سراحها وانهم سيصفقون ، وقد يهتفون بحياة حضرة الناظر ، وقد يندفعون الى « نعيم » ليروا الساعة معه .. اى ان حالة التجمد والوقار ، ستنتهى . ولكن حضرة الناظر خيب أملهم ، فقد بقى على هذا الوضع ذراعه ممدودة فى اتجاه « نعيم » ، وساقه تتهيأ أو كأنها تتهيأ للنزول .. واستمر يخطب ، وقد زاده هذا الوضع الجديد فصاحة ، وميلا للكلام . الا ان معين هذه البلاغة نضب آخر الامر ، فهبط درجات السلم حتى أخذ « نعيم » من يده وقال له :

ـ لقد كنت دائما رجلا فأهنئك وأهنىء والديك ومدرستك وأهل وطنك ..

وتدافع المدرسون نحوه يهنئونه ويصافحونه .. ثم جاء التلاميذ فأحاطوا به فى حين اختفى الناظر فى الطرقة المؤدية الى مكتبه . وشاعت الفوضى فى الصفوف ، وتعالى الهتاف ، وتعالت مع الهتاف بعض الطرابيش الصغيرة طيرها الاولاد فرحا لا بحصول «نعيم» على الساعة ، بل بانتهاء هذه الحفلة ، وبوقوع هذه المناسبة التى تبرر هتافهم وصراخهم .. ولم يطل بقاؤهم

فى ساحة المدرسة ، فقد تدافعوا نحو باب الخروج ، وهم يصيحون ويتضاربون ، ويتضاحكون ..

وأخيرا وجد « نعيم » نفسه وحيدا .. عاد الى وحدته المألوفة ، فراح يسير على رصيف الشارع ، وكأنه لم يكن منذ قليل بطلا يشار اليه بالبنان .. سار هادئا ، الكتب فى يده ، والساعة فى جيبه .. فقد كان كل التغيير الذى طرأ على حياته انه كان يسير فى ذلك اليوم بخطى أوسع ، ولكنه لم يجر كما كان يجرى زملاؤه ، الذين لم يكن نصيبهم من حفلة عصر ذلك اليوم الا الاستماع والتصفيق والتهليل .. وكم كانت تبلغ سعادته ، لو انه استطاع أن يجرى ..

ولما وصل الى الباب ، باب منزله ، وشد «السقاطة» التى كانت تقوم فى تلك الايام ، مقام الجرس الكهربائى فى أيامنا .. ورفع رأسه كالعادة الى أعلى ، فرأى خلف ثقوب « المشربية » التى تطل من ورائها أمه ، كلما شدت « السقاطة » .. رأى هذا الوجه الحبيب ، هادئا رصينا ، فهزته الفرحة من الاعماق ، فانه سيعطيها بعد لحظات الساعة وسيلقى بنفسه فى أحضانها ، وستقبله ـ كما تفعل أحيانا ـ وسيشم رائحتها التى أحبها والتى تبقى عالقة فى أنفه ، فكل رائحة أخرى لا تعادلها ، الا رائحة أبيه ، حينما يعود من البلد التى يعمل فيها .. رائحة عرق العمل ، ممزوجه بالدخان ، وكأنهما تعلنان معا عن طيبة الرجل ، ومدى تعبه وكده فى الحياة .. كما تعلن رائحة أمه ، عن ثباتها وجدها ، وثقتها بنفسها وترفها عن الاشياء والاحداث التى تجرى فى محيطها..

ولكن الباب لم يفتح .. ماذا حدث ؟ أيكون هو الذى نفد صبره وتغير ، وعاد يشد «السقاطة» ثم يفتح الباب ، ويرى نفسه فى مدخل بيته الذى اجتازه مئات

أو ألوف المرات ، عند الخروج وعنـد العودة .. هـذا المدخل المظلم نوعا ، الذى لم يغط وجهه ، بلاط أو رخام، فبدا طينا أسود ، كأنه مدخل فى بيت بالفلاحين ، وفى نهاية المدخل كانت درجات السلم العتيـق ، تنيرها فى الليل ، لمبة فى فانوس ، تزيد قدم السلالم قدما.. ولكنه كان يحب هذا المدخل ، وهذه السلالم ، وهذا الفانوس، كما يحب أمه وأباه ، وفردوس ..

ولم ير « نعيم » بأسا فى أن يجرى ، وأن يقطع المدخل عدوا ، وأن يثب ويقفز درجات السلم العتيق ، درجتين درجتين ، بل درجتين حينا وثلاثا حينا آخر .. ورأى أمه على أعلى السلم ، وهى تتساءل :

ـ ماذا جرى .. ؟

فأخرج الساعة من جيبه وهتف :

ـ ساعة ..

وعقدت أمه ما بين حاجبيها فى تساؤل يفيض دهشة :

ـ ساعة ! ؟

وأمسكت أمه بالساعة ، وهى تتأرجح فى يده فى الهواء وعادت تسأل ، وقد بدأ عليها اعجابها بالساعة :

ـ ساعة من ؟ .. أين وجدتها ؟ ..

وضحك « نعيم » بكل جارحة فيه ، وقال :

ـ لقد أعطيت لى ..

ووضعت أمه يدها على كتفه ، وأدنته منها ورفعت وجهه الصغير اليها ، وقالت :

ـ من الذى أعطاها لك ؟ ..

وقاطعها « نعيم » ..

ـ الناظر ..

وبدا ان الامر أخـذ يتضح لامه ، فقالت وهى تهم بتقبيله :

ـ لاى سبب ؟
فقال :
ـ أنا الاول ..
فضمته الى صدرها بشدة وقبلته مرتين على جبينه وخده وهى تقول :
ـ انت الاول دائما ..
فتخلص قليلا من ذراعيها ، ووصف لها الحفلة والخطبة وقد بدأ جبينه يتندى بالعرق ، شاعرا بأقصى السعادة لانه يتكلم بسرعة وبحرارة ، وبلا تحفظ ولان أمه خرجت عن وقارها ، واستجابت لفرحته ، وانها عادت تقبله ، وتضـــمه فى الوقت الذى كانت فيه ، فردوس ، قــد خرجت من المطبخ ، وفى يدها اناء كانت تغسله .. وقبل أن تفهم الامر جيدا ، صاحت :
ـ أزغرد .. أزغرد ياناس ..
ووضعت أم « نعيم » أصبعها على فمها وصاحت :
ـ ما هذه الفضائح ؟
وصاحت فردوس ، وقد وضعت الاناء على الارض :
ـ فضائح !.. كفى الله الشر ؟ هو الفرح حرام ..
ورنت زغرودة ، شعر لها «نعيم» بالخجل ، فأطرق.. وأراد أن يدخل حجرته ، فتتابعت الزغاريد ، كأجراس من ذهب ، من ناحية ، وكقذائف من بندقية ، متتابعة ، سلطت على خجلة وانكماشه ، فخلصته منهما من ناحية أخرى ..
وتوالى شد « السقاطة » ، فالجيران سمعوا الزغاريد .. فجاءوا متتابعين يسألون :
ـ ما الخبر ؟ ..
فعادت أمه الى صفاتها الاصيلة .. عادت الى الوقار والميل الى الاقلال من الـكلام ، ولـكنها لم تستطع أن

تخفى سرورها ، فقد كانت عيناها تلمعان فى الوقت الذى راحت فيه فردوس فى تنقل لا هدف له ، وفى حركة لا ضابط لها ..

وكان « نعيم » يتـابع تجولاتها ، وصيحاتها بسرور عظيم .. فقد كانت رفيقته الوحيدة فى المنزل ، ولم يكن يحس بأنها فى البيت لتخدمه بقدر ما كان يشعر بأنها مثله ومثل امه صاحبة نصيب فى هذا البيت الذى كان دنياه ..

وفى صباح اليوم التالى ، شعر بأنه مقبل على تجربة جديدة .. انه الآن بطل من أبطال المدرسة ، فخطبة الامس لا تزال ترن فى آذان التلاميـذ ، وحفلة اهدائه « الساعة » كانت حدثا غير مسبوق فى حياة المدرسـة كلها . ووصل الى المدرسة ، وبدأ يحس للحظة الاولى ان الاصابع تشير اليه .. الصغار ينظرون اليه ، ولا يقوون على الاقتراب منه .. والـكبار ينظرون اليه وعلى شفاههم ابتسامة عصبية تترجم عن الغيرة منه مع الادعاء بأنهم لا يهتمون : أبطال الـكرة والكشـافة ، والقسم المخصوص ، يتظاهرون بعدم الاكتراث به ولا بساعته ، لانهم يعيشون فى عالم أرقى وأكبر من هـذه السفاسف التى تسمى بالدروس والـكراريس والامتحانات ، أما المدرسون فقد نادوه مرارا ، ودعوه ليخلع الساعة من فوق معصمه ، يأخذونها ويتأملونها ، ويذكرون ماركات مختلفة للساعات لم يسمع بها من قبل .. ما هذا كله ؟ ان هـذه السـاعة لم تعد مجرد مكافأة لتفوقه ، لقد أصبحت اعلانا معلقا على ظهره يستوقف الناس ، انها حجر القى فى سطح المدرسة فأثار فيه اضطرابا هائلا..

ولما تقدم النهار أدرك أن « الساعة » قررت أن تصبح زلزالا لا يكف عن هز المدرسـة .. ففى درس اللغـة

الانجليزية كان الموضوع هو « الساعة » .. كتب المدرس فوق السبورة السوداء :

ــ كم الساعة الآن ؟

وعلم التلاميــذ كيف يجيبون حينما يكون الوقت فى منتصف النهار ، وحينما يكون الزمن ساعة ودقائق ، وساعة الا دقائق ، ساعة ونصف أو ثلث ، أو ربع .. وهكذا .. ولما دخل مدرس الانشاء ، كتب على السبورة فور وصوله الى الفصل :

ــ الوقت كالسيف .. ان لم تقطعه قطعك ..

ومدرس الحساب ، جعل حساب المائة يدور كله حول مقارنات بين ساعات فضية ، وذهبية ، وبرونزية ، وطلب الى تلاميذه أن يقولوا كم يكون ثمن ساعة فضية ، اذا كانت تقل عن ثمن الساعة الذهبية بخمسين فى المائة ، وكان ثمن الاخيرة خمسة جنيهات ..

الساعة .. الساعة .. الساعة .. !

أينما ذهب ، فى أى مكان اختفى ، وجــد « نعيم » الساعة أمامه تطارده وتلاحقه .. ولــكن أمله كان كبيرا فى أن تنسى الايام القادمة التلاميذ والمدرسين والمدرسة كلها الساعة ، ولــكن أمله هذا أخذ يتناقص ويضعف ، حتى كاد يتلاشى .. فبعد أيام من اهداء الساعة اليه ، حضر مفتش ، فنودى عليه وهو يتناول طعام الغداء فى صالة الطعام ، فخرج والعيون تتعقبه .. فاذا بضابط المدرسة يقوده من يده متجها به الى حجرة النــاظر ، وقال له الضابط وهما فى طريقهما الى الحجرة ان سعادة المفتش سمع بك ، وبالساعة التى أهديت اليك وانه يريد أن يراك .. وأن يراها .. ورفع الضابط ذراع «نعيم» الايسر ، حيث كانت الساعة تدق على معصمه ، ونظر اليها مبتسما . ودخــل « نعيم » الى الحجرة فوجــد

المفتش جالسا فى صدر الحجرة ، والظاهر انه كان يتبادل مع الناظر حديثا ضاحكا ، اذ لاحظ « نعيم » ان المفتش أخفى ابتسامة كانت على شفتيه ، ووضع رجلا فوق رجل .. وعاد الى الوراء وتجهم قليلا ، ونادى «نعيم» بصوت يمزج التشدد بالتلطف :

ـ تعال .. تعال يا ابنى ! هذه هى الساعة فى يدك .. عال .. عال .. انت تستحقها لقد رأيت شهادتك .. شهادة عظيمة ولكن اياك والكسل .. اياك واللعب .. اقترب ، اقترب لا تخف .. ما اسم أبيك ؟ ..

وأجاب « نعيم » وقد أدرك ـ على ضوء ما حدث فى المناسبات المشابهة ـ ان المفتش سيطلب منه أن يريه الساعة ، فخلعها من معصمه سلفا ، وقدمها للمفتش الذى تأملها ثم التفت الى ناظر المدرسة وهو يقول :

ـ شىء عظيم .. « ماركة » غالية ..

ثم عاد فنظر الى « نعيم » قائلا :

ـ ولكن كما قلت لك هذه الساعة ستنبهك الى الواجب .. ووالدك محتاج الى مساعدتك كما فهمت من اجابتك .. الفقر ليس عيبا يا ابنى ، أصل الفتى ما قد حصل ، هل تستطيع أن تعرب أصل الفتى ما قد حصل ؟ ..

وأخذ « نعيم » يعرب الجملة والساعة فى يد المفتش ، فلما أتم اعرابها بنجاح رد له الساعة ، وربت على كتفه وصافحه ، وزوده بنصائح لا تختلف عن النصائح التى استقبله بها ..

ولم تمض على زيارة هذا المفتش الا أيام قليلة ، حتى أعلن أن المدرسة ستتشرف بزيارة كبير المفتشين ، وكان هذا المفتش الكبير مشهورا بالغلظة ، وبأنه لا يتورع عن ابداء تعليقات جارحة على عمل المدرسين أمام تلاميذهم

لذلك استعد المدرسون جميعا لاستقباله فى أحسن حالاتهم ، وأصدروا أوامر مشددة ، بالنظافة والنظام ، وفتشوا أدراج التلاميذ ، وحملوهم على تنظيمها والقاء الورق الزائد منها فى سلة المهملات ، وكتب كل منهم عنوان الدرس بخط جميل ، ووقفوا فى منتصف المسافة بين باب الفصل والجدار المقابل للباب ، وفى منتصف المسافة بين الصف الاول لمقاعد التلاميذ والسبورة الموضوعة أمامهم ، واخذوا يسألون تلاميذهم ــ على سبيل التجربة والاستعداد ــ الاسئلة ، واخذ التلاميذ ــ طبقا لخطة موضوعة ــ يرفعون أصابعهم جميعا .. الذين يعرفون منهم والذين لا يعرفون ــ ولم يكن رفع الايدى متروكا لحرية التلاميذ ، اذ كانت الاوامر تقضى بأن يسند التلميذ مرفقه الى اعلى درجة ، وظهره مشدود ، وراسه مرفوع ، وعيناه متجهتان الى الامام..

ودخل كبير المفتشين الى الفصل أخيرا ، ووقف التلاميذ دفعة واحدة ، كأنما هم عرائس خشبية .. يحركها محرك آلى ، وكان كل منهم ، فى وقفته العسكرية يسمع دقات قلبه خوفا من كبير المفتشين ، وأسئلته .. وأشار المفتش بطرف أصبعه للفصل ، فجلسوا جميعا ، وهم يدعون الله أن يأخذ بيدهم فى هذه المحنة الداهمة

وبدأ مدرس الفصل فى القاء درسه ، فى الموضوع الذى اختاره ، وبالعبارة التى انتقاها .. وأخذ صوته يرن فى الفصل ، مرتبا منسقا .. وزالت عنه آثار الاضطراب قليلا قليلا ، والمفتش يتجول بين الصفوف مطرقا ، كأنما يتأمل فيما يقوله المدرس ، ثم وقف فجأة الى جانب « نعيم » .. فوضع يده فوق كتفه قائلا :

ــ اذن هو أنت .. لقد كنت أبحث عنك .. قف

ووقف « نعيم » ووجهه شاحب ، كأنما فارقته روحه

ورجع المفتش الى الوراء قليلا واستأنف كلامه :

ــ ولــكن أنت أقصر من فى الفصل .. حقا اذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الاجســـام ، ما اســمك يا شاطر ؟

وأجاب « نعيم » فى صوت خافت متعثر ..

فصرخ المفتش :

ــ ما هذا ؟ .. هل انت ميت ؟ هل أنا غول سآكلك .. اسمعنى صوتك .. عاليا .. عاليا جدا

وجمع « نعيم » كل شجاعته ، وقال أسمه كاملا ..

فضحك المفتش ضحكة مفتعلة قصيرة وقال :

ــ لا .. لا .. لا ينفع هذا .. أريد أن يسمعك من فى الفصل المجاور .. انت رجل وتخاطب رجلا .. فتكلم كما يتكلم الرجال هل فهمتنى ؟ .. هل سمعتنى ؟.. أم انك لا تسمع ؟ !

وراح « نعيم » يرتجف ارتجافا شديدا ، ولكنه أدرك انه لا مفر من هذا الموقف الا بالصراخ على الوجه المطلوب، فنطق اسمه بصوت عال ، وبطريقة تضحك من يسمعها لولا ان الجميع فى ذلك الحــين ، كانوا يعانون من خوف المفتش الذى بدا عليه الارتياح اذ نفذ أمره كما صدر منه تماما ، وقال له :

ــ اخرج أمام الفصل وأرنى « شـــــطارتك » التى حصلت بفضلها على ساعة .. ساعة غالية

وخرج « نعيم » وكأنما هو مجرم ضـــبط متلبسا بجرمه ، ووقف أمام التلاميذ ، صغيرا شاحبا .. ولكنه كعــادته لم يبد عليه شىء من الاضطراب سوى صــفرة وجهه

واخذ المفتش يسأله فى الحساب ، واللغتين : العربية ، والانجليزية ، والمحفوظات ، والتاريخ ، والدين ، وهو

يذرع الحجرة ذهابا وايابا ، و « نعيم » يجيب بصـوت خافت ، لا يلبث حتى يرتفع ، كلما صدرت عن المفتش الـكبير ، صرخة عالية .. وتثلجت يدا الطفل المسكين ، وتندت جبهته بالعرق ، ولـكنه بقى صامدا ، وفيما هو يفكر فى جواب سؤال ، سمع دقات الساعة فى يده ، فنظر اليها بسرعة .. وكان بوده أن يلعنها ويلعن اليوم الذى حصل فيه عليها ويلعن تفوقه الذى جعله هدفا لكل هذه المتاعب ، وضحية لكل من فى المدرسة ، ولـكنه جبل على الاستسلام لقدره ، واحتمل ما يصيبه فى غير تمرد ولا ثورة ..

وشبع المفتش الـكبير أخيرا من تقليب « نعيم » بين يديه ، كما يقلب القط الـكبير فأرا صغيرا يكاد لايكون لحم فيه ولا عظم .. ونفض احدى يديه بالاخرى ، كأنما فرغ من شىء — ذبح شاة مثـلا — ونظر الى « نعيم » نظرة طويلة ، توحى بأنه ينوى تدبير هجوم جديد ، ولكن تكسر تقطيب هذا الوجه المتجهم المخيف ، بفضل ابتسامة انتشرت فى صفحته ، ثم قال فى صوت — هو فى الواقع أرق من صـوته الذى خاطب به « نعيم » عند بدء الامتحان — ولـكن رقته كانت أمرا نسبيا ، فلم تستطع آذان التلاميذ ولا المدرس تنبهها ، قال :

— انت معجزة .. حفظك الله .. ولـكن اياك والغرور انه يقصم الظهور ، اياك والادعاء انه أس البلاء ..

وتقدم الى « نعيم » وداعب خده بأصبعه مداعبة اهتز لها الطفل المسكين ، وكأنها صفعة ..

وانصرف كبير المفتشين ، فتنفس الاولاد الصعداء ، وعبروا عن سرورهم بالحرية التى عادت اليهم ، بحركات كثيرة لا معنى لها ولا مبرر ، فقد فتح بعضـهم الادراج وركل بعضهم من أمامه ، بمقدم حذائه ، وانتقل أحدهم

من آخر الفصل الى تلميذ فى مقدم الصفوف وصفعه وجرى ، من حيث لا يراه المجنى عليه .. أما المدرس فقد بقى فى مكانه جامدا ، لا يصدق انه نجا ، وان كان قد تولاه شعور خفى بالمهانة .. اذ ان المفتش دخل الفصل وخرج منه ، ولم يوجه كلمة واحدة له ، لم يحيه فى القدوم ، ولم يحيه عند الانصراف وكأنه لا شىء .. وأفاق المدرس الى نفسه ، فوجد أن قطعة الطباشير التى كانت فى يده ، كادت تذوب من كثرة العرق الذى تدفق من مسام كفه الذى أطبق عليها ، والذى كان يزداد اطباقا عليها كلما صرخ المفتش ، أو اقترب منه فى تجوله بالفصل ..

وعاد « نعيم » الى مكانه ، كجريح خرج من المعركة وهو لا يكاد يعرف طريقه الى الصفوف الخلفية ، ولما وصل الى مكانه لبث جامدا لحظة ، ثم امتدت يده الى جيبه فأخرج منديله ، ومسح عرقه وصمت.. والفصل من حوله ، يزداد ضجيجا ..

ونام «نعيم» ليلته - بعد زيارة المفتش - نوما متقطعا وسمعت أمه أصواتا تصدر عنه ، تدل على انه يعانى من كابوس طويل لايريد أن ينتهى .. ولما استيقظ فى اليوم التالى شاحبا مهدود القوى ، شاعرا بصداع شديد ، وميل الى القىء ، تأكدت أن ابنها مريض .. وان عينا أصابته ، فان الجيران من النساء والرجال ، لم يكفوا عن الحديث عنه ، وعن الساعة التى ظفر بها ، وعن الحفلة التى اقيمت له فى المدرسة .. وهولوا فى ذلك ، وبالغوا حتى أقسم بعضهم أن وزير المعارف حضر بنفسه ليراه ، وانه سيرسل الى السراى ، وأن نفقات تعليمه ستكون على حساب الحكومة ، وان أباه سينقل الى القاهرة .. والى جانب هذه المبالغة ، جرت مبالغة أخرى ، القصد

منها النيل من « أم نعيم » وأبيه ، وقد بدأت أول الامر بمفتريات صغيرة محتملة ، وانتهت الى مفتريات هائلة لا تدع محرما ولا مقدسا عند عائلة الطفل ، الا واجترأت عليها وداستها ..

وتماسك « نعيم » ، وقرر انه لابد أن يذهب الى المدرسة ، ولم تحاول أمه أن تنهيه عن عزمه ، لانها كانت تود أن تراه كعادته ، يحمل كتبه ، ويخرج الى المدرسة .. ولكنها صممت أن تذهب معه « فردوس » وأن تحمل عنه الكتب ، وعارض الطفل ، ما استطاع المعارضة ، فقد خجل أن يراه زملاؤه ، وفردوس معه ـ كأنما هو فى حاجة الى حماية ـ ولكن ميله الشديد الى الطاعة ، غلبه على أمره ، فأذعن لارادة أمه ، وان كان قد رفض أن يعطى فردوس « الكتب » ، ولما هم بالخروج رأت أمه « الساعة » فوق وسادته ، فسألته بعد تردد :

ـ الن تأخذ الساعة ؟ ..

ووقف « نعيم » ينظر الى الساعة ، فوق الوسادة ، وكأنها حشرة سامة ، يخشى أن يدنو منها .. ولكن يده امتدت اليها ، وأخذها فى صمت يقطر حزنا وأسى وألما ، واتجه الى الباب ، واخذ يهبط درجات السلم كاسف البال ، وسار مع فردوس صامتا ، لا يكلمها ، ولا تكلمه .. لقد احترمت حزنه ، حتى اذا ما اقترب من المدرسة طلب اليها أن تعود ، فتركته يذهب ، وتظاهرت بالعودة ، ولكنها وقفت ترقبه ، حتى غاب والتلاميذ وراء أسوار المدرسة العالية ..

وكان الدرس الاول ، لمدرس اليوم السابق الذى حضر المفتش حصته .. فدخل الفصل ، مرتبكا لايدرى ماذا يفعل ، ولكنه رأى نفسه ـ من حيث لايدرى ـ يتجول

فى الفصل ، بين صفوف التلاميذ ، كما كان المفتش يفعل فى اليوم السابق ، ورأى التلاميذ أن مشيتـه أصبحت أشبه ما تكون بمشية المفتش ، ثم وقف فجأة ، وصرخ فى « نعيم » ، فانتفض « نعيم » من مكانه ، والتفت الى المدرس مأخوذا .. فصرخ المدرس :

ــ هل أصبت بالصمم ؟ ..

ووقف الطفل وأجاب :

ــ كلا ..

فقال المدرس وهو يقترب منه :

ــ أخرج الكراس .. وأرنى ماذا فعلت بواجب يوم الخميس الماضى ..

« واجب يوم الخميس ! » ..

كرر « نعيم » هـذا السؤال لنفسه ، وكأن كابوس الليلة الماضية لم ينته ، أو كأنه عاد اليه .. فقد كان مستحيلا عليه ان يقوم بهذا الواجب الليلة الماضية ، فقد كان أشبه بالمريض ، بل كان أسوأ حالا من المريض ، ولكنه لم يعتذر قط عن واجب .. ولم يتخلف يوما عما يؤمر به أو يطلب منه ، ولـكن كل هـذا لن يشفع له الآن ، فشكل مدرسه ، وصوته ، وحالته كلها ، تدل على أنه بات يكرهه أشد الكره ، ولم يكن عقل « نعيم » الصغير قادرا على أن يفهم أن تجاهل المفتش للمدرس أمام تلاميذه ، ترك جرحا عميقا فى نفس المدرس ولم يكن يعرف أن المدرس قضى ليلته ، وهو يتقلب فى فراشه ألما من هذا الجرح ، كما كان « نعيم » يعانى من كابوسه المخيف ، وقال « نعيم » انه لم يكتب الواجب لانه كان.. وقبل أن يتم الجملة حدث ما لم يدره ، فقد تطاير شرر أمام عينيه ، ثم اشتمله صوت عميق وأحاط به ظلام كثيف ..

فتح «نعيم» عينيه ، فرأى نفسه على سريره بالمنزل، ورأى أمه الى جواره تضع رأسه على فخذها ، وفى يدها منديل مبلل بالماء و « الكلونيا » ومن الناحية الثانية رأى أباه ، ينحنى فوقه ، وتلاقت عينا الاب ، بعينى الابن ، وطال تلاقيها فى صمت عميق ، وسأله أبوه فى حنان شديد :

ـ هل أنت أحسن الآن ؟ ..

وتحركت شفتا الطفل ببطء :

ـ الحمد لله ..

ورفع الصبى عينيه ، فتلاقت بعينى أبيه مرة اخرى، وفى هذه المرة لاحظ ان عينى ابنه تترقرق بدمع أشبه ما يكون بدموع رآها فى عينى الناظر يوم أن أعطاه الساعة

وانقطع « نعيم » عن الدراسة يوما تماثل بعده للشفاء ..

ولما عاد الى المدرسة ، كان أخوف ما خافه حصة المدرس الذى اعتدى عليه فى اليوم الاسبق ، ولكن « نعيم » فوجىء بأن المدرس دخل الحصة مرتبكا ، وانه تحاشى النظر اليه ، والاقتراب منه ، ومضت الحصة دون أن يوجه اليه كلمة واحدة ، وفى فترة راحة الظهر ـ بعد تناول الغداء ـ كان يسير فى احدى طرقات المدرسة ، فاذا به يرى نفسه أمام هذا المدرس وجها لوجه ، وامتقع وجه « نعيم » وجمد فى مكانه ، ولم يدر ماذا يفعل .. ولكن حيرته لم تطل فالمدرس بدوره تردد فى سيره قليلا ، ثم أطرق ، وأحس أن هذه المقابلة أربكت مدرسه أكثر مما أخافته هو ، وفيما هو يهم بالرجوع من حيث أتى ، سمع صوت أستاذه يناديه :

ـ نعيم .. ! نعيم .. !

واتجه « نعيم » اليه .. ولما وقع نظره على وجهه ،

رأى تقاطيعه ناطقة بالخجل.. وبعد قليل سأله مدرسه :
ــ لماذا لم تحضر الى المدرسة أمس .. هل كنت مريضا ؟
ولم يدر « نعيم » بماذا يجيبه ، ولكنه قال بصوت خافت :
ــ بل متعبا ..
وأطرق المدرس ثم قال :
ــ من أى شيء ؟ ..
وأطرق « نعيم » بدوره وتلعثم .. ولم يحر جوابا..
ومد له المدرس يده وقال وكأنه يعتذر :
ــ هل أخبرت والدك ؟ ..
ولم يكمل المدرس سؤاله .. وشعر « نعيم » بالدموع تملأ عينيه ، تأثرا بهذا الموقف الغريب المفاجيء الذى وقفه منه المدرس الذى صفعه منذ يومين صفعات هائلة وكأنه يود أن يقطع رأسه ، وأفحمته الدموع حتى عادت اليه ذكرى تلك الصفعات المدوية ، ولكنه تمالك نفسه وقال :
ــ أبى غائب أكثر الوقت عن المنزل ..
فزاد صوت المدرس رقة وقال :
ــ أنا مثل أبيك .. هل لا تزال متأثرا ؟ .. قل يا « نعيم » .. قل ..
ولمح المدرس الدموع فى عينى تلميذه الصغير ، فربت على كتفه مرارا وهو يقول :
ــ انس ما حدث .. فأنت تعرف أننا نحبك جميعا
ومد يده مرة أخرى الى ذراع « نعيم » اليسرى التى تحمل الساعة ورفع الذراع بالساعة قليلا ، وهو يقول :
ــ أنت تستحق أكثر من هذه الساعة .. أن لك مستقبلا عظيما ..

وبعد فترة صمت دار المدرس على عقبيه وترك «نعيم» الذى أحس بالحاجة الى الجلوس ، فسار حيث وجد جدارا منخفضا يطل على ناحية خالية من ساحة المدرسة ، فجلس ثم أخذ ينتحب انتحابا شديدا ..

***

ومرت أيام قليلة هادئة ، اذا قورنت بما سبقها من أيام ، حتى نقل واصف أفندى مدرس اللغة الانجليزية وحل محله شامل أفندى .. وقد تعلق به قلب «نعيم» منذ اللحظة الاولى ، فقد كان شابا نشيطا ، حسب الفصل حسابه من الدقيقة التى بدأ يتكلم فيها . لم تكن يده تمتد بالضرب ، كما لم يمتد لسانه بالسب ، ولم يكن يكثر من أوامر المنع ، ولم يكن الدرس عنده ، دواء يجرعه لتلاميذه ، فيتجرعونه وهم يلتوون ، وبودهم لو تقبلوه . توفى والد أحد التلاميذ ، فطلب اليهم أن يذهبوا جميعا الى بيت زميلهم ليعزوه ، ورقى أحد الاساتذة الى وظيفة مدرس بالمدارس الثانوية .. فطلب اليهم ، أن يجتمعوا خلال فترة الراحة ليهنئوه ، وأوعز لـ «نعيم» فجمع من كل تلميذ نصف قرش ، ليقدموا للمدرس المنقول هدية صغيرة ، فرح بها المدرس فرحا عظيما ، ولكن لم يكن «نعيم» يظن أن هذا المدرس نفسه سيجر عليه بلاء عظيما ..

فى ذات يوم سأل شامل أفندى « البشتيلى » أن يلقى احدى المحفوظات التى علمهم اياها المدرس السابق ، وكان « البشتيلى » تلميذا طويلا عريضا يجلس فى آخر الفصل ، ويمد ساقيه الطويلتين ، ويقضى الوقت كله مشغولا بأمور كثيرة ليس فيها شىء ما يتصل بالدروس ، ولو من بعيد ، وكان التلاميذ يهابونه ، وكان المدرسون

يتحاشونه .. فقد كان شرسا ، يستثار بأتفه الامور ، ولكن شامل أفندى ، مدرس كامل لم يعتبر البشتيلى انسانا متروكا ، ولاكما مهملا ، بل عالجه بالرفق وأشركه فى الدرس ، وهنأه على أبسط اجابة تصدر عنه ، ولو كان نصفها خطأ .. وفى اليوم المشهود ، سأل شامل أفندى ، البشتيلى عن هـــــذه القطعة الصغيرة من المحفوظات ، فأجاب بغلظة ظاهرة وفظاظة ملؤها التحدى بأنه لا يحفظها ، فابتسم شامل أفندى وقال :

ــ لماذا لم تحفظها ؟

فأجاب وكأنه ثور يتهيأ للنطاح :

ــ لان أحدا لم يطلب منا أن نحفظها ..

فعادت الابتسامة التى تحرج وتورط أغلظ النفوس ، وأشدها قسوة :

ــ اذن سأسأل غيرك ..

وسأل شامل أفنــدى واحدا ، واثنين ، وثلاثة من تلاميذ الفصل ، وأدرك التلاميذ انهم جميعا لو أجابوا ، لـكان معنى ذلك ، انهم يتحدون البشتيلى ، ويثبتون كذبه .. فادعوا جميعا انهم لا يحفظونها ، وأحس شامل أفندى ، ان الامر يحتاج الى حزم ، وان علاج البشتيلى بالرفق ، والملاطفة ، يجب أن يؤكد بلون آخر من العلاج ، هو دور الحزم والشدة ، فتلفت فى الفصل يمينا ويسارا ، وكأنه يود أن يجد مخرجا للأزمة .. وقع نظره فجأة على الساعة فى يد « نعيم » وكان قد سمع بقصتها ، ولـكنه لم يكن قد حفظ بعد اسم صاحبها ، فاتجه نحوه ، ووضع يده على الساعة ، وقال :

ــ قم انت يا صاحب الساعة .. انت لا تكذب .. انت لا تخاف .. قم واســـمعنا المحفوظات .. ان البشتيلى لا يخيفك ..

وامتقع وجه « نعيم » واصفر حتى أصبح فى مثل بياض قميصه ، وأدرك « شامل » مدى ما أصاب « نعيم » من حرج ، فوقف الى جانبه وأخذ يربت على كتفه ، وهو ينظر الى البشتيلى ، محاولا تهدئته قائلا : البشتيلى .. نسى فقط .. انه سيحفظها غدا أليس كذلك ؟ وزمجر البشتيلى وكأنه كلب عقور ، ووقف « نعيم » زائغ العينين ، لايدرى ماذا يفعل .. ولكن شامل أفندى بقى يستحثه ، حتى وقف وألقى القطعة فى صوت هادىء ولكنه رصين ، جميل ، كان أشبه شىء بصوت منبعث من خارج الحجرة ، أعلى من هذا الصراع الدائر بين مدرس يريد أن يحفظ النظام فى الفصل ويضرب المثل لتلاميذه وبين ولد فاسد لايريد أن يصافح اليد الرحيمة التى تمتد لانقاذه .. كان صوتا ملائكيا لطيفا .. لكنه لم يكد « نعيم » ينتهى من القائه العذب حتى صدرت عن البشتيلى ، حركة مصحوبة بصوت ، اندفع لهما الدم فى وجه شامل أفندى ، فانطلق كالسهم الى موضع البشتيلى ، ورفعه بكلتا يديه من مقعده ، ثم أخذ يصفعه يمينا ويسارا ، ويهزه هزا عنيفا ، أطار طربوشه من فوق رأسه .. ثم قذف به الى حيث كان .. واتجه شامل أفندى وهو منفعل الى مقدمة الفصل ، وأمر التلاميذ واحدا بعد واحد ان يؤدوا هذه القطعة من المحفوظات .. وأداها الجميع ، ولكن فى عصبية هائلة .. كانوا يرددون الالفاظ ترديداً بلا فهم ، ولا توقف .. لقد كانت الصفعات التى رنت على وجه البشتيلى ، رأس الذئب الطائر ، فاتعظوا بها جميعا ..

***

وانتهى اليوم ، وتبعه يومان أو ثلاثة و « نعيم » يحسب أن الدهر قد اكتفى بما ابتلاه به منذ ظهرت

الساعة فى حياته وفى اليوم الثالث أو الرابع ، خرج من المدرسة ومعه كتبه هادئا ، مرتبا وديعا ، نظيفا كالعادة ، وتفرق تلاميذه من حوله كالعصافير .. هـذا يجرى ، وذاك يثب ، والثالث يتعلق بمؤخرة عربة « حنطـور » ورابع يشد من الخلف عربة « كارو » .. يجرها حمار هزيل يكاد يقع اعياء من فرط الجوع والضعف ، فيقع بين ذلك الحمار والصبى ، سباق من قبيل شـد الحبـل ، وتجمع عدد منهم ، ولبسـوا من ورق جرائد كان معهم « طراطير » فوق رءوسهم ، وراحوا يزمرون ويصفرون ويهرجون ، مثيرين فى الطريق ضجيجا عاليـا وازعاجا لايدع مارا فى الطريق من رجل أو طفل أو امرأة ، حتى يناله بشيء ..

وسار «نعيم» وحده ، حتى بعد عن المدرسة وهدأت الشوارع ، وانعطف فى حارة جانبية ، ثم دخل الى عطفة صغيرة .. وفيما هو يدخل اليها ، خيل اليه أن شخصا ما يتبعه ، وكان ظنه أن « فردوس » هى التى تتبعه ، فقد لمحها أكثر من مرة فى أكثر من يوم ، تسير خلفه من بعيد ، وسـأل أمه فأكدت له انه واهم وان فردوس لم تترك المنزل ، فصدقها ، لانه كان يصدقها دائما ، ولان التى اشتبه فيها ، كانت تلبس ملاءة « لف » ، وفردوس كانت تخرج عارية الرأس.. ثم أحس ان الشخص الذى كان يتتبعه قد اقترب فالتفت الى الخلف فاذا به يرى « البشتيلى » ، مندفعا ، وقد خرج شعره الخشن من تحت طربوشه وانفتح أعلى قميصه ، عن صدر ضخم ، يرتفع وينخفض ، مع أنفاسه التى كاد يقطعها العـدو خلفه ، وقبل أن يدرك تماما ما حوله ، أحس بأن شيئا ساخنا جرى على وجهه ، ثم شعر بألم حاد وراء أذنه ، ثم بكتبه تناثرت فى الهواء ، ثم بجدار يصدم رأسه من

الخلف .. تتابعت هذه الاشياء جميعا فى أقل من لمح البصر، ثم توقفت فجأة.. رأى بعدها الاشياءوالاشخاص واضحة ، فهذا هو البشتيلى ، يهم بالهجوم عليه مرة أخرى .. وها هو ذا ، واقف أمام البشتيلى ، بلا خوف، وها هو ذا يضع يده فى أعلى فتحة قميص البشتيلى ، عندما اقترب منه ، ويجمعها فى قبضة يده اليسرى .. وها هى ذى قبضة يده اليمنى ، تجمع بحركة لا ارادية وها هى ذى ترتفع الى وجـه البشتيلى .. ثم حـدث أعجب شىء .. لقد انطلق دم غزير من أنف البشتيلى ، وفمه .. وتتابعت الاشياء الغريبة بلا مقدمات فها هو ذا ، يركل ، ويضرب ، ويعض .. والبشتيلى يصرخ : « آه يا ابن الـ .. عينى .. ينعل .. شعرى .. الخ »

كيف حدث هذا كله .. ؟

وقبل أن يعرف الاجابة على سـؤاله ، رأى جمعا ضخما من النساء والرجال والاطفـال ، قـد أحاط به لايدرى من أين بعثت ، ورأى رءوسا أخرى كثيرة أطلت من نوافذ المنازل المتداعية الفقيرة القليلة بالعطفة التى وقعت فيها المعركة ، ورأى من خلف كل ذلك ، فردوس بملاءة « لف » .. رآها تشق الزحام ، وتقترب منه ، وتخرج منديلا فتمسح به الدم الذى غطى وجهه ، ثم ترفع طربوشه الصغير الذى وقع .. ترفعه من الارض وتعيده الى راسه ، ثم تنظر عند مواقع الاقدام ، فتجد الـكتب والـكراسات قد تناثرت .. هذه الكتب المرتبة المنظمة ..

فعلت هذا كله دون أن تتكلم أو تنطق بحرف ، فلما جمعت ما تبعثر من « نعيم » نفسه ومن أوراقه ، وضعت يدها فى يده ، وقالت :

ــ الله لايكسبك يا بعيد ..

أين ذهب « البشتيلى » ؟

دار « نعيم » بعينيه فى الزحام بحثا عنه فلم يجده ، فسار وراء فردوس .. يدها فى يده ، وكتبه تحت ابطها ، وهى مرتبكة متعثرة ، فقد كانت حديثة عهد بالملاءة « اللف » ، والناس من خلفهم يتكلمون كلاما كثيرا لم يفهم منه شيئا ، ولما وصل الى نهاية المطفة رأى البشتيلى جالسا على حجر ، ودما غزيرا يتدفق من وجهه وأنفه .. وامرأة عجوزا ، تحاول أن تحبس الدم المتدفق بمنديل « محلاوى » ضخم فى يدها ..

***

وبعد أن سار « نعيم » بضع خطوات صرخ :

ــ الساعة !

واشار « نعيم » الى معصم يده اليسرى حيث يضعها وصرخت فردوس بدورها « وقعت منك ؟ » وعادت ادراجها ، وقد سقطت الملاءة من فوق رأسها ، وكادت تسقط الى الارض والكتب تحت ابطها ، ومن خلفها « نعيم » ، ولما وصلا الى حيث دارت المعركة ، أخذ كلاهما ينظر فى الارض والناس يسألون :

ــ هل ضاع شىء ؟ .. وكلاهما مشغول بالبحث غير ملتفت لما يقال ، وبعد قليل هتفت فردوس :

ــ لقد وجدتها .. !

ورفعت شيئا من الارض الى « نعيم » الذى أخذه بلهفة ثم بدأ عليه وجوم شديد ، فقد كان ما وجدته فردوس حطام الساعة ، قطع سوار الجلد الذى كان يربطها على المعصم ، وحطمت زجاجتها ، والتوت عقاربها .. وأدناها « نعيم » من أذنه ، ثم هزها مرة ثم مرة ، ثم عاد يهزها بشدة ، وبدا عليه بعدذلك شىء من الارتياح،

وارتسمت فوق شـفتيه ابتسامة باهتة ذابلة وقال فى صوت لايسمع :

ـ انها لا تزال تدق ..

وفى اليوم التالى ، لم يكن ممكنا لـ « نعيم » أن يذهب الى المدرسة .. فقد ارتفعت درجة حرارته قليلا ، وكان يحس بألم فى حلقه ، وتعب قليل فى كل جسمه . ولما انتصف النهار ، قال لامه ، انه لابد أن يكون قد أصيب باحتقان فى اللوزتين ، ونظرت أمه الى حلقه ، فوجدته ملتهبا ، وأسرعت تعد له غرغرة من عصير الليمون وتضع له كمادات من الخل والماء ، والكولونيا والماء .. وكلما تقدم النهار ، زادت حالة « نعيم » سوءا

وفى اليوم التالى بدا عليه التعب ، وقل ميله للحركة ، وضعف نشاطه فى الكلام ، وحضر أبوه ، وقرر أنه لابد من دعوة طبيب ، وعارضت الام فى ذلك ، ولما كان اليوم الثالث زادت حالة « نعيم » تأخرا ، فدعى طبيب مجاور ، يستدعيه الجيران فى جميع حالاتهم .. فهو مولد فى حالات الوضع ، والجراح عند الحاجة الى عملية جراحية ، وعلمه يتسع للحميات ، وأمراض النفس والعقل ، ووقته يتسع لسماع مشكلات العائلات ، وبالجملة فهو صديق وطبيب وقد لبى الدعوة ، حينما دعى لزيارة « نعيم » وقاس درجة الحرارة واطمأن اذ لم يجدها مرتفعة ، وكتب أدوية ، وخرج وهو يؤكد أنها نزلة برد ، مع تعب سابق ، احتقن لها الزور ..

ولكن « نعيم » لم تتحسن حالته ، وقلت قدرته على بلع طعامه ، وازداد ضعفه وشحوبه .. وقلق أبوه ، فقصد أحد ذوى قرباه من طلاب كلية الطب ، ليرى « نعيم » ولم يكد ينظر طالب الطب ، فى حلق « نعيم » حتى تجهم وجهه ، ولم يستطع اخفاء انزعاجه ، وسألت

الام والاب ماذا هنالك ؟ فقال :

ـ لابد من استشارة طبيبه ، ونصح بطبيب ذكره ، وبعد قليل ، عاد الاب ومعه الطبيب الذى تأمل فى حلق « نعيم » ، ونظر الى قريبه الطالب وقال :

ـ دفتريا .. !

ولم يكن مثل هذا الاسم معروفا عند أهل الحى الذى ينتسب اليه « نعيم » فى تلك الايام ، ولكن الام حينما سمعت الاسم أحست أن قلبها قد تعطل ، وأن دمها قد جمد .. ونظرت الى ابنها « نعيم » ، فلم تره فى مكانه على فراشه ، اذ دارت الارض بها ولم تدر بعد ماذا أصابها ..

ولما أفاقت ، كان « نعيم » فى فراشه ، كالمعهد به منذ أيام ، أحسن حالا ، يلعب بشىء فى يده .. ونظرت الام الى مافى هذه اليد التى كانت صغيرة ونحيلة فأصبحت أضأل ، وأكثر نحولا .. فاذا هى الساعة وابتسم «نعيم» ابتسامة منعشة لطيفة وقال لامه وهو يدنى الساعة من احدى أذنيه « انها عادت تدق » ، وفرحت الام كثيرا حينما علمت أن الساعة عادت الى الحياة بعد أن توقفت وخطفتها من ابنها ، وألصقتها بأذنها ، وكأنها تود أن تسكب دقات الساعة فى أذنها ، كما يرفع عطشان كأسا من الماء المثلج الى شفتيه فى يوم حار .. وسمعت الام دقات ضعيفة متقطعة كأنها هى خطوات كسيح يحاول المشى عبثا .. ثم توقفت الدقات تماما ، فوقف معها قلبها .. ولاحظ « نعيم » ما بدا على وجه أمه ، فأخذ الساعة منها ، وهى تأبى أن تفلتها من بين أصابعها ، وهزها قبل أن يلصقها بأذنه ثم ضحك وقال لامه ، وهو يعطيها الساعة :

ـ اسمعى .. انها تدق .. انها تسير كما كانت ..

لا تخافى يا أمي لا تخافى.. سأشفى وسأعود الى المدرسة من جديد .. وسنصلح الساعة ، سيصلحها لى أبى ..
وسمعت الام الساعة ، فلمع وجهها بفرح غامر .. فقد كانت فعلا تدق ، دقا منتظما ، وسارت كأنها رد اليها الشباب

ومدت الام يدها بالساعة الى ابنها ، فأخذها وهو يقول :

ـ لم يبق من عقاربها الا عقرب الساعات .. طار عقرب الدقائق السريع النشيط ، وعقرب الدقائق، وبقى العقرب البطىء الذى كنت أقول لك دائما انه يشبهنى

وقامت الام الى الخارج ، لتمسح دموعا كثيرة ملأت عيونها .. فقد حدثها قلبها ، انهم تأخروا كثيرا فى استدعاء الطبيب المختص .. وفهمت على الرغم من كل التعمية والتغطية التى أسدلت ستائرها عليها ، أن الطبيب المختص كان فى وسعه أن يحصن « نعيم » فى أوائل المرض بحقنة جديدة ، تقتل المرض فى مهده ولكنهم تأخروا .. تأخروا كثيرا ..

وقبل الفجر ، انتفضت وهى جالسة على مقعد بجوار فراش « نعيم » على حركة وصوت ، اذ خيل اليها أن «نعيم» يناديها .. وفتحت عينيها اللتين لم تعرفا النوم ليالى طويلة .. فوجدت « نعيما » نائما نوما هادئا وعميقا .. ولا شىء الا الساعة ملقاة فى الارض ..
والتقطت الساعة ، وهزتها .. هزتها بشدة ، فلم تتحرك ، فألقت بنفسها على ابنها النائم ولم تبال أن توقظه .. ولما أدركت الحقيقة ، من برودة جبهته ، لم تستطع أن تصرخ ، فقد مات صوتها فى أعماق صدرها..

***

ولما حانت لحظة تشييع الجنازة ، وقف ناظر المدرسة

وكأنما هو شيخ فان ، معتمدا على ذراع ضابط المدرسة من ناحية ، وذراع شامل أفندى من ناحية أخرى ، وقال وهو يكاد يترنح :

ـ أنا أعرف انه مات بالدفتسريا .. ولكن لست أدرى لماذا أشعر بأن لى يدا فى موته .. هذه الساعة .. هذه الساعة !..

وأراد الضابط مسعد أفندى أن يهون الامر على الناظر فقال :

ـ لقد كان ابن موت !

فحدجه الناظر بنظرة تقصف شررا وقال :

ـ ماذا تعنى ؟ .. هل لايريد الموت أن يترك لنا الا النفاية ..

ومسح « شامل » دمعة انحدرت على الرغم منه فوق وجهه وقال :

ـ لقد تعلمت منه .. تعلمنا منه الكثير ..

***

وسارت الجنازة ، وبعيدا فى آخر الصفوف ، كان يسير شخصان .. البشستيلى ، وفردوس .. وكانت فردوس تتعثر فى ملاءتها « اللف » ، تماما كما كانت تفعل حينما كانت تراقب « نعيم » خشية أن يصيبه شر .. كانت تراقبه من بعيد .. تماما كما تفعل الآن ..

صراخ في النافذة



كان الناس يسيرون فى حارة «شاكر أغا» دون أن يرفعوا رءوسهم الى النافذة التى كان يتدفق منها صراخ يزداد علوا وارتفاعا على وقع عصا تهوى بشدة على جسم ، فيسمع لها رنين كرنين آناء من نحاس ، يطرق بعصا من خيزران .. فقد ألف الناس سماع هذا الصراخ ، حتى أصبح أمرا عاديا لا يستوقف أحدا ، ولا يثير انتباها .. وقد سمع أول ما سمع مرة فى الاسبوع الواحد ، ثم مرتين ، ثم أصبح يسمع كثيرا ولكن بغير نظام مضبوط .. وحينما كان هذا الصراخ جديدا كانت نوافذ المنزل المجاورة تفتح ، وتطل منها رءوس متزاحمة فيها رءوس النساء ، ورءوس البنات ، تتخللها رءوس صغيرة لا يستطيع أصحابها أن يصلوا الى حافة النافذة فيشبوا على أطراف أصابعهم ، ليعرفوا ما الخبر ، وليرضوا فضولهم .. وفى أحيان كثيرة كان يقف فى النوافذ مع النساء والصغار ، رجال كبار يطلون كما تطل زوجاتهم وبناتهم ، ولكن تحت ستار مفضوح من أدعاء عدم الاهتمام ..

ولم يجد أهل حارة « شاكر أغا » صعوبة فى أن يعرفوا سبب هذا الصراخ .. فهم يعرفون الشقة التى ينبعث من نافذتها .. انها شقة يسرى أفندى

ويسرى أفندى ساكن قديم فى هذه الحارة ، وعلى الرغم من قدمه فيها ، فان صلاته بسكانها محدودة ، فهو لايزور ولا يزار الا نادرا ، وقد كان يروح الى عمله ويغدو منه صامتا لا يكلم أحدا ، ولا يكلمه أحد ، يسير

فى الشارع الموصل من الميدان الى الشارع الذى تتفرع منه الحارة ، وكأنه لايرى انسانا ، أو كأن ما حوله مجرد فضاء .. وكان وجه يسرى أفندى أبيض مشربا بحمرة تنتشر فيه نقط كثيرة صغيرة حمراء ، شبيهة بلون شعر راسه الاحمر ، وكان لونه ومسلكه ، وبعده عن الناس سببا فى تكهن أهل الحارة المتضارب فى شأن جنسه .. فمن قائل انه تركى ، ومن قائل انه « ارناءودى » نزحت عائلته من ألبانيا ، ومن زاعم أنه شركسى من بلاد القوقاز. أما يسرى أفندى ، فلم يكن يصل الى سمعه شىء من هذا كله .. لانه ما يكاد يصل الى شقته ، حتى يغلق بابها عليه فلا يخرج ..

وقد سرت فى الحى ، أقوال بدأت على استحياء ، ثم ازدادت على الايام قوة ، وكلها تؤكد أن يسرى أفندى رجل يدمن على الشراب .. وانه من الساعة التى يعود فيها الى بيته ، لا يكف عن تجرع كؤوس لا حصر لها ، من زجاجة كبيرة يشتريها بنفسه ، ويخفيها فى أوراق جريدة .. فاذا فرغت الزجاجة ، قبل أن يشبع ، أو فرغت ولم يسرع النوم الى نجدته ، أو لم يكن لديه ما يشترى به هذه الزجاجة ، أو اذا حدث فى البيت ، ما يعكر مزاجه ، وهو فى خلوته مع كأسه وطأسه ، انفجر احتجاجه فى صورة واحدة لا تتغير ، وهى امتداد يده بسرعة البرق الى عصاه ، وانطلاقه الى حجرة ابنه « سيف » وانهياله عليه ضربا ، كأن « سيف » قد تجمعت فى شخصه كل أسباب الحرمان والاثارة التى يعانى منها أبوه ..

وكان « سيف » صبيا نما جسمه ، نموا لا يتناسب مع سنه ، فبدا بين زملائه فى المدرسة ، واخوانه فى الحارة ، عملاقا بين أقزام ، كان طويلا عريض الصدر ،

مليئا بالحيوية ، فأنت لا تراه الا وهو يعدو ، أو هو فى عراك ، أو هو بين لاعبى الكرة ، يدفعها بقدمه ، لاهثا ، وعرقه يتصبب من جبينه .. ويداه وكتفاه تزيح من أمامه ومن جواره كل من تحدثه نفسه بالاقتراب منه وكان بعينيه « حول » ، جدير بأن يغرى الصبيـــان بالسخرية منه كعادتهم مع كل ذى عاهة ، مهما صغرت أو خفيت .. فالالثغ ، والاكتع ، والاحول ، والقصير المفرط فى القصر ، والطويل المسرف فى الطول ، لاينجون من عبث الاطفال الذين يمتلىء قاموسهم باسـم لـكل صاحب عاهة من هذه العاهات وغيرها

ولـكن « سيف » مع حول عينيه ، كان قويا سريع الحركة متفوقا بحكم ميزته البدنية على أقرانه فى اللعب ، فدانوا له بالطاعة المشوبة بالخوف شيئا ما ، وبالكراهية الى حد قليل . ومع كل هذه الصفات والمزايا ، بقى « سيف » هدفا لعصا أبيه .. بل بقى الهدف الوحيد لها بين كل أفراد العائلة ...

يضرب مرة كل بضعة أيام .. وأحيانا يضرب فى اليوم الواحد مرتين .. وفى كل مرة ، كان يصرخ صرخات تهتز لها جدران الدور الذى يقيم فيه مع والده وعائلته ، بل حارة «شاكر أغا» كلها ، فان صدره الواسع كان ينطوى على رئتين قويتين شابتين لصبى رياضى ، قوى البدن ، صحيح الاعضاء لا يكف عن الجرى والوثب ، والكر والفر

وكان الظن انه حينما يألف الضرب ، سيقل احساسه بالالم ، أو على الاقل سيضعف صراخه ، الذى يصدر عنه تعبيرا عن هذا الالم .. ولـكن هذا الظن لم يتحقق، فقد زاد صراخه على مر الايام ارتفاعا ، وفى بعض الاحيان كان هذا الصراخ يقترن بأفعال رهيبة يجمد لمرآها الدم فى العروق ، فكثيرا ما شاهد أهل حارة « شاكر أغا »

« سيف » وقد تدلى نصفه من النافذة وكأنه موشك على السقوط الى الحارة كومة من اللحم المزق مختلطا بعظم مهشم سابحا فى بركة من دماء . ولكن هـذا الجسـم المتدلى ، كان يبقى معلقا دون أن يسقط ، ودون أن يرتد الى الداخل ، الى أن ينتهى الضرب الذى يستمر فى ايقاع رتيب زمنا غير قصير وكأنه يصـدر عن آلة لا تحسب حسابا لاحد أو لشىء . وكان الذين يستطيعون أن يروا ماذا يحدث داخل شقة « يسرى أفنـدى » يرون ماذا يقع بعد مثل هذا المشهد الفاجع ، فلا يكاد يصدقهم أحد ، اذ كانوا يؤكدون أن « يسرى أفندى » لم يكن يكف عن الضرب ـ وهو يكف غالبا فجأة ـ حتى يلقى بعصاه على منضدة فى صالة المنزل ، ثم يجلس على مقعد قريب من هذه المنضدة ، وقد علاه وجوم شديد ، واستولى عليه جمود كالشلل ، يثبته فى مقعده زمنا طويلا ، لا تطرف له خلاله عين ، ناظرا الى لا شىء ، أما « سيف » فيندفع الى حجرة من حجرات المنزل ، وهو يعوى عواء مدويا ، ثم يأخذ عواؤه فى التناقص حتى يسكت تماما ، ثم يمرق الى باب الشقة الخارجى كالسهم ، يهبط درجات السلم فى خفة وسرعة .. كل درجتين أو كل ثلاث درجات فى قفزة واحدة ، فاذا ما وصل الى الحارة ، اندفع الى أول مجموعة من الصبيان تصادفه واختلط بها ، واشترك مع أفرادها فيما يمارسون من لعب ، وكأنه كان معهم منذ البداية . ولم يحدث أن فكر أحد من هؤلاء الصبيان ـ ولو مرة واحدة ـ فى أن يشير ولو بحرف واحد ، الى هذه الوقعة الساخنة التى ملأ دويها أرجاء الحارة التى خرج منها « سيف » لتوه .. بل انهم كانوا يستحون أن يلفتوا نظر « سيف » الى ما يتخلف أحيانا عن هـذه الوقعة من دم متجمد على جبهته أو فى أحد ركنى فمه ؛

أو غير ذلك من المواضــع فى جسمه .. ولم تكن هــذه العلاقة الغريبة بين « يسرى أفندى » وابنه ، هى كل خصائصه من غريب الاطوار ، فقد كان شهر رمضـــان موسما تحيا فيه شخصية جديدة تخرج من شــخص « يسرى أفندى » الذى أصبح معروفا لكل أهل الحارة وما يجاورها ، وهى شخصيــة تخالف الاصــل الذى خرجت منه كل المخالفة .. فالنافذة التى كان يتدفق منها صراخ « سيف » كل يوم ، ينبعث منها منذ اليوم الاول من رمضان كل سنة صوت « يسرى أفندى » وهو يقيم الصلوات الخمس فى مواعيدها ، ثم وهو يتلو القرآن فى صـــوت جميــل ، يحمل الــكثيرين والــكثيرات من الجيران على أن يقتربوا من نوافذهم ليسمعوا هـــذا الترتيل الحلو ، فتخشع له قلوبهم وتدمع عيونهم .. أما المارة فيرفعون رءوسهم الى النافذة وهم يتمهلون فى سيرهم ، واذا كان الضحى من كل يوم فى رمضان لبس « يسرى أفندى » ثيابه ، وحمل فى يده اليمنى عصاه ، وخرج .. وعلى وجهه ابتسامة تحيى كل من يقابله فى الطريق ، فيقف له فى الشارع الذى تتفرع منه الحارة : « عبده البقال » ، و « صادق البواب » وغيرهما ممن تقع حوانيتهم على جانبى الشـــارع الكبير . وفى هـــذه الايام يجمع بعض أهل الحى شــجاعتهم ، فيستوقفون « يسرى أفندى » فى طريقه ، ويسألونه عن أمور حياتهم أو يطلعونه على ورقة حكومية وصــلتهم ، أو يطلبــون وساطته عند أحد زملائه من موظفى الدولة .. فلا يضيق بشىء من هذا كله ، ولا يتأخر أبدا فى أن يساعد ويعين، ويشرح وينصح ..

ولقد عرف أهل الحى أن « يسرى أفندى » ضعيف غاية الضعف أمام النساء اللواتى يلبسن الملايات اللف

السوداء ، وذلك فى يوم من أيام رمضان أيضا .. فقد كان عائدا من عمله ، فرأى أمامه واحدة من لابسات هذه الملايات ، تتمايل وتتثنى ، والملاية تكشف عن تكوين جسمها ، وذراعاها العاريتان ، يثبتانها فوق رأسها ، أو يحكمان لفها حول خصرها ، فتوقف قليلا ، ثم اندفع الى الجانب الآخر من الشارع ، فرارا من الفتنة .. ولامر ما انتقلت السيدة الى نفس الجانب ، فمرق الى الرصيف المقابل ، ولكن شاء سوء حظه أن يرى سيدة أخرى اكثر رشاقة ، تسير أمامه ، فى خلاعة مثيرة .. فنزل الى وسط الطريق ، وعلى وجهه فزع من تهدده خطر داهم

ولكن ما يكاد الناس يفرغون من أداء صلاة العشاء فى رمضان حتى تنهار ارادة « يسرى أفندى » فيقفل على نفسه الباب ويخلو الى زجاجته ، قد يشرب منها ويسرف فى الشراب ، حتى الثمالة ، وقد لا يشرب ولكن يبقى طوال الليل مؤرقا ، يروح ويغدو فى أرجاء المنزل ، هائج الاعصاب ، يود لو ينفجر على عادته ، فى شىء أو فى شخص ولكنه يلجم نفسه الهائجة .. وكثيرا ما هددته نفسه بأن يستعين بالعصا ليطلق عن طريقها الابخرة المنعقدة فى نفسه وصدره ، ولكنه كان يقبض يده عنها ، ثم يبعدها عن نظره حتى لا يعذبه مرآها فى متناول يده ، وهو عاجز عن أن يتذوق لذة استعمالها ، أما «سيف» فكان أشبه شىء بالطبق الشهى المصرى للصائم شديد الحب للطعام .. فأكتافه العريضة ، وظهره المنبسط ، وجسمه الممتلىء كلها كانت دعوة ملحة لـ «يسرى أفندى» وعصاه ، ولكن « يسرى أفندى » لم يستعمل العصا قط فى شهر رمضان ، ولم يسمع الناس من النافذة خلاله صوت « سيف » الهدار المدوى . صحيح أن « يسرى أفندى » لم يكن يحترم العيد ، احترامه لأيام رمضان ،

ولم يكن يرى بأسا من أن يسلط عصاه على جسد ابنه فى أيام الاعياد ، بل فى صبيحة اليوم الاول من بعض هذه الاعياد .. ولعل فلسفته فى ذلك ان الحرمان مفروض عليه فى أيام رمضان فقط .. وان الاعياد ، تباح فيها الملذات والمتع ، ومتعته الاولى ، هى أن يجلد ابنه ، كلما ضاق بشىء فى الدنيا ، أو عكر مزاجه معكر أو نفدت نقوده فعجز عن شراء ما يكفيه من الخمر الرخيص ..

ولم يكن « سيف » هو ابن «يسرى أفندى» الوحيد فقد كان لـ « سيف » أخ هو « ممتاز » ، وكان «ممتاز» هذا على النقيض من أخيه .. كان أكبر من « سيف » سنا ، وأضأل منه جسما ، وأقصر قامة ، وأقل حظا من الحيوية ، فهو لا يكاد يحس له وجود فى المنزل أو فى الحارة أو فى الحى .. لا يعرف الا المدرسة والكتاب .. لا يدع من يده أبدا دفاتر المدرسة ولا كتبها ، ولا يمل من حفظ دروسه عن ظهر قلب .. يحفظ ما يطلب منه أن يحفظ ، ويحفظ ما يطلب منه أن يفهمه . ولذلك لم يسبقه الى مرتبة الاولوية فى فصله أحد ، وتكدست عنده مكافآت التفوق ، فمن أقلام رصاص ثمينة ، الى كتب مهداة اليه من النظار موقع عليها منهم . ولكن « ممتاز » هذا لم يكن فى حياة أبيه شيئا مذكورا .. صحيح انه كان يذكره فى مباهاة ومفاخرة فى ديوان العمل اذا ما ذكر الابناء الفالحون الناجحون ، وكان يعطيه أحيانا ورقة ، أو يطلب اليه أن يكتب لاحد خطابا.. ولكنه لم يصحبه معه أبدا فى مهمة ، ولم يدعه للصلاة معه ، أيام الجمعة من رمضان .. ولم تمتد له يده أبدا بأذى ، بل لم يفكر يوما فى أن يمنحه نصيبا من الشتائم التى تنطلق منه اذا ما ثارت أعصابه ، انطلاق القذائف من مدفع رشاش .. وفى الاعياد كان يعطى «سيف» مثلما يعطى «ممتاز» ،

ولـكن ما يكادان ينصرفان حتى يدعو «يسرى أفندى» ابنه « سيف » على انفراد ، وينهال عليه بالسباب متهما اياه بأنه حمار وبليد ولا يستحق أن يتنفس الهواء الذى يعيش فيه ، ثم يضع يده فى جيبه ويعطيه ضعفيماأعطى أخاه ..

***

وفى ذات يوم أفاق أهـل حارة « شـاكر أغا » على حقيقة هائلة لم تصـدقها آذانهم وعقولهم ، تماما كما يفيق الانسان الذى اعتزم عند نومه أن يستيقظ فىاليوم التالى قبل شروق الشمس ، ثم تفتح عيناه فجأة على نور الشمس وقد ملأ الدنيا ، فيقفز ليستدرك ما فاته ، وهو يعلم أن ذلك مستحيل ..

تلفت أهل الحارة حواليهم ، ونظر كل منهم الى الآخر وكأنه يسأله :

ـ هل لاحظت مثلما لاحظته أنا .. ولم يجب واحد منهم على تساؤل صاحبه ، وانصرفوا جميعا الى أعمالهم كأن شيئا لم يحدث ، وتتابع مر الايام حتى لم يعد من الممكن الفرار من هذه الحقيقة ، فان « يسرى أفندى » انقطع عن ضرب ابنه ، وانقطع بالتالى هذا الصراخ الذى كان يتدفق وينفجر من النافذة ، كما تنفجر القنبلة ثم تتناثر شظاياها فى كل ناحية .. فما الذى حدث ؟ ..

وتحسس كل فرد فى الحارة موضع قلبه ألما وحسرة حينما علموا أنه فى ذات يوم رفع « يسرى أفندى » يده بالعصا ، ليشق بها ظهر « سيف » ، وبقيت معلقة فى الهواء ، وقد جحظت عيناه ، وبدا كتمثال ، فقد أصيب فى هذه اللحظة ذاتها بشلل نصـفى ، حمـل بعده الى الفراش ، وقد عجز عن النطق ، ورفض «يسرى أفندى» أول الامر أن يذعن لهذا القضاء ، فكان دائم البكاء ، وكان

يجاهد ليقول بلسانه المغلول ، وبيديه اللتين فقد بينهما التوازن ، انه لن يقبل أن يتحول الى طفل يحمل الى فراشه ويحمل من فراشه ، ولـكنه أدرك ان ذلك كله عبث لا نفع منه ، فانقطع عنه ، كما انقطع عن محاولات صبيانية متشابهة كمحاولة الانتحار ، بالقاء نفسه من النافذة التى كان ابنه يتدلى منها ، مهددا بالقاء نفسه الى الشارع ..

لم يعد الناس يرون « يسرى أفندى » قاطعا الحارة والشارع الكبير المتصل من بدايتهما الى نهايتهما مترفعا عن الناس بعيدا عنهم ، ولم يعد قادرا على أن ينزع من نفسه شخصا آخر كل رمضان يحيى الناس بابتسامة تفيض طيبة ووداعة وخبا ، أصبح من المستحيل أن يضرب ابنه بعصاه وأن يسمع الناس صراخه مرة على الاقل كل أسبوع ..

وألف كل من فى بيت « يسرى افندى » هذه الحالة الجديدة ، شأن الناس فى جميع أمورهم حتى « يسرى أفندى » ذاته ، استطاع أن يضع لحياته الجديدة أسسا وبرامج تتفق مع ارتباطه الوثيق بحجرته عموما ، وبالمقعد الذى كان يجلس اليه خصوصا .. فقد اكتشف ان فى الحارة أثنين من أرباب المعاشات لا يعرفان كيف يصرفان وقتهما ، أحدهما مطربش اشتغل فى المحاكم حتى أصبح رئيس قلم فيها .. والثانى معمم ، اشتغل بوزارة الاوقاف ، وقضى حياته فى درجة واحدة وبمرتب يزيد قروشا فى مدى سنين طويلة ، بينما تزيد أسرة صاحب المرتب فى سرعة يذهل لها كل الناس ، الا رب هذه الاسرة نفسها .. ولـكن وسط هذا المجتمع الذى قبل الامر الواقع واستطابه ، بقى شخص واحد لا يعلم به ، ولا يرضى عنه هو « سيف » .. فقد حزن لمصاب أبيه حزنا

لم يعبر عنه قط بالبكاء أو بالكلام ، وانما عبرت عنه حياته كلها ، ووجوده كله .. فقد زهد اللعب مع الاولاد ، وزهد الشجار معهم ، ومال جسمه الى الهزال شيئا فشيئا .. ابتدأ يقرأ .. قرأ أول ما قرأ الجريدة اليومية لابيه قراءة كانت تثير الوالد المشلول لكثرة ما فيهامن خطأ ، ثم أتقن القراءة فى الجريدة ، وانتقل منها الى قراءة كتب كانت متروكة ملقاة فى أركان مختلفة فى المنزل .. كتب مختلفة فى النوادر ، وفى التاريخ ، وفى الطهو وشغل الابرة ، والفلك .. كتب بعضها ضاع أوله ، وبعضها ضاع آخره ، ولكنها كانت تؤنس المريض الذى يريد أن يسمع صوتا يخفف عنه ثقل الوحدة وآلامها ، وتسعد الابن الذى يريد أن يشارك أباه هذا السجن الذى لاتعرف له نهاية ..

وعلى مر الايام ، أصبح صديقا « يسرى أفندى » الملازمان ، مجرد نواة لدائرة واسعة من الاصدقاء ، كانت تتردد على منزله .. منها الطبيب ، ومنها المحامى، ومنها المزارع ، ومنها الموظف .. ولم يترك « سيف » مكانه أبدا فى الحجرة التى تستقبل هذه الجماعة ، فقد اختار له ركنا .. يستمع فيه بعد عودته من المدرسة الى كل كلمة تقال ، ثم يلتقطها ويحفظها عن ظهر قلب ..

***

وفى ضحى أحد الايام ، دوى فى حارة « شاكر أغا » صوت رفع له الناس رءوسهم ، ليبحثوا عن مصدره ، وكل منهم يتمنى شيئا يضمره فى نفسه ، ويعلم أن تحققه مستحيل ..

سمعوا صوتا رنانا عاليا ، ذكرهم بصوت « سيف » وهو يضربه ، غير أن هذا الصوت كان حادا مرهفا ، لم يصدر وحده ، بل يصدر مختلطا بأصوات أخرى

تشبهه ثم تسكت جميعا الاصوات لتعود من جديد ..
اذن ليس هذا صوت « سيف » ، ف « سيف » لم يعد ممكنا أن يجلد لان اليد التى كانت تهوى بالسوط عليه ، قد جفت فيها الحياة ، و « سيف » نفسه خلق خلقا جديدا فلم يعد هذا الصبى الذى كان فى مثل ضخامة الشاب ، وفتوته ، وقوته وحيويته ..

فماذا يكون هذا الصوت ؟

لم يطل تساؤل الناس ، فقد أقبلت عربة أشبه شيء بصندوق واسع ، يجرها جواد هزيل، وقد ملئت بمقاعد الخيزران .. ثم صفت فى صـــفين طويلين على جانبى الحارة ، فعرف الناس من شكلها ووضعها هذا ، ومن العربة التى حملتها أن « يسرى أفندى » ، قد بدأ رحلته الاخيرة الى عالم جديد ..

***

وسرى النبأ فى الحـارة ، سريان النار فى الهشيم ، تناقلته الالسن : ألسن الصـغار والكبار ، ثم اتصـل بأنحاء بعيدة فى الحى ، وقبل أن تكتمل العاشرة من اليوم نفسه كانت جماعة كبيرة لم تشهد الحارة مثلها من قبل ، قد توافدت لتودع ابن الحارة القديم الوداع الاخير، وقد أظلتها سحابة ثقيلة من حزن صادق لا تصنع فيه ولا ادعاء .. وعند العاشرة تماما تدفق من النافذة صراخ هائل ، ارتجت له بيوت الحارة التى توشك أن تنهـار وحدها بغير حاجة الى ما يهزها من جذورها ، كهـذه الصيحات الراعدة .. ورفعت جماعة المعزين المودعين، راسها الى النـافذة ، وكأنما تسـتدير لتحيى ماضيا عزيزا ، تحييه هذه الصرخات التى كانت بمثابة رجع الصدى لصرخات شبيهة بها ، قضوا السنين يسمعونها .. فرأوا بعض النسوة متشحات فى ثياب سوداء قاتمة

ثم ما لبث أن ظهر رأس ضـــخم يطل من فوق أكتاف النساء ثم يتدلى نصف جسم وكأنه موشك على السقوط الى الطريق .. ولكنه ارتد فى الحال منتصب القامة ، تعلو وجهه غبرة قاتمة ، دون أن ينبس بحرف واحد .. رأى المعزون هذا كله فلم يملك أى منهم نفسه من الانخراط فى بكاء كانوا يهتزون له اهتزاز الاشجار أمام ريح عاصفة .. وتدفق له الدمع على اللحى الطويلة وعلى الوجنات الشابة معا .. ويهبط الجثمان الى الحارة ، يكاد يحتضنه « سيف » احتضانا ، والناس تدفعه عنه ، وهو صامت وقور ، وتحت ابطه شيء لم يتبينوه ..

وبدأت الجنازة تسير ..

وكان « سيف » فى المقدمة ، ولم يكن يسير وحده .. فقد كانت فى يده اليمنى عصا أبيه ، التى كانت تحت ابطه ، وهو يهبط مع الجثمان درجات السلم .. ولما لمح الناس هذه العصا خنقتهم دموع ، دموع غزار

وأقسم الكثيرون فيما بعد أن « سيف » تحول فجأة وهو يسير خلف النعش الى « يسرى أفندى » نفسه ، بطول قامته ، وباحمرار شعره ، وبالبقع الصغيرة الحمراء المنتشرة فى وجهه ، وعلى شفتيه الابتسامة التى كانت تملأ صفحة هذا الوجه ، ثلاثين يوما من كل عام .. هى أيام رمضان ..

وفى ظل هذا الوهم المؤنس المريح ، انقطع ســـــيل الدموع ، وسارت الجنازة وكأنها رحلة مع صديق لايتكلم بلسانه ولـكن تتكلم عنه صفحة وجه مشرق بابتسامة تفيض طيبة ووداعة وحبا ..


طلعتِ ادب

طلعت أدب ..
طلعت أدب ..
طلعت أدب ..
طلعت أدب ..
« طلعت أدب ..
« ونزلت أدب ..
« لقيت الدب ..
« يقزقز لب ..
« طردت الدب ..
« وأخذت اللب ..
« طلعت أدب .. ونزلت أدب .. ! »

وصلت هذه الالفاظ الساذجة الى أذن الصبى فؤاد، ممزوجة بأصوات رجال يقهقهون فى سرور خال من الهم ، وينعق وابور مياه ، لا يكف عن تعكير سكون الحقول المجاورة بما يبعثه من صوت لا يستقيم على نهج واحد .. فهو تارة أشبه الاشياء بحشرجة ثور مذبوح ، وتارة بنعيق طير أصيب فطار عن غصن الشجرة التى حط عليها ، وثالثة باستغاثة رجل يتعقبه أعداء أشداء .. وبالجملة كان صوت وابور المياه فى هذه الرقعة المنبسطة الجميلة من حقول القطن ، فى حر شهر أغسطس القائظ مجموعة من الاصوات التى لا ترتاح لها الاذن ولا تبتهج لوقعها النفس ، ومع ذلك استطاعت رتابتها وانتظامها وتتابعها ، أن تغطى على قبح كل صوت منها على حدة ، وأن تخلق منها وحدة يأنس لها الرائحون والغادون على

الجسر الذى يقع وابور المياه فى بطنه ..

وكان وابور المياه ، مبنى ، أو حجرة فسيحة من الحجر الجيرى ، لها نافذتان تسد كل منهما بضلفتين من الخشب الاصفر الساذج ، وبقضبان متعارضة ومتقاطعة من الحديد ، ولهذه الحجرة الضيقة باب فى مثل قدمها ، لم يره أحد قط مغلقا لا فى الليل ولا فى النهار والناظر الى ضلفتى الباب ، يحسب انهما لو تحركتا ، لسقطتا من توهما الى الارض .. فهما هناك على مدخل المبنى مجرد رمز !

وعلى مدخل الباب المفتوح كلب ، لا تدرى بالضبط أهو بدوره حيوان تدب فيه الحياة ويستطيع أن ينبح ، ويتحرك ، ويعض ، ويقفز .. أم أنه رمز آخر على أن لـ « وابور المياه » حارسا يحميه ، كما أن له بابا يمكن قفله عند الضرورة القصوى ، والكلب ـ واسمه « سبع » ـ دائما نائم لا يقوى على فتح جفونه ، والناس تدخل الى الوابور وتخرج منه ، دون أن تخطىء مرة ، فتدوسه أو تطؤه .. كيف ؟ .. لايدرى أحد ، حتى ولا عم « سعيد » ..

وعم « سعيد » هو العنصر الحى المتحرك فى هذا الوابور القديم الذى لا يكف عن التنهد والتوسل والاستغاثة والنعيب .. ومع ذلك ، فعم « سعيد » رجل تجاوز عمره .. تجاوز ماذا ؟ .. الخمسين أو الستين أو السبعين .. من يدرى ! .. انه شخصيا لا يعرف شيئا اسمه العمر ، فالزمن عنده ترف يتمتع به غيره من الناس .. عندهم ساعات ينظرون اليها ، ومواعيد يحرصون عليها ، ولهم من الحياة أسواط تلهب ظهورهم .. أما هو فأعلى من هذه الصغائر .. فالوابور و « سبع » وهو ، وحدة متكاملة تعيش بعضها مع بعض ،

فى تآلف عجيب ، ومودة تزداد مع الايام قوة .. والناس، والزمن ، والدنيا ، تأتى اليه ، وتذهب عنه ، وهو غير ملق باله لها .. لا استعلاء ولا استخفافا ، ولكن استغراقا فى هذا العالم القائم على هذا الثالوث الثابت : وابور المياه بزيته ، وشحمه ، وصراخه ، والكلب فى سكونه ووقاره وولائه ، وهو .. كما هو منذ تاريخ مجهول فى هذا الوابور لا يبرحه ، أو على الاقل هكذا يتصور الناس ، ومنذ ذلك التاريخ المجهول ، لم يطرأ عليه تغير أو تطور .. فمنذ البداية كان أسود اللون ، تلمع فوق جبهته حبات من العرق ، وكان قصير القامة ، نحيل الجسم ، شاب رأسه فتلاقى فيه السواد والبياض كأنهما أقراص « طاولة النرد » يمثلان معا الليل والنهار، على أن شخصيته كلها اجتمعت فى شيئين : عينين تبرقان كمصباحى سيارة فى ظلام دامس ، وفم سقطت كل أسنانه ، اذا فتحه بدا لك فضاء واسع لا نهاية له ، يروح فيه ويغدو لسان أحمر قان يحملك على التساؤل : ما ضرورة هذا اللسان فى هذا المكان ؟ فان عم «سعيد» لا يسمع يتكلم أبدا ، الا اذا حضر الى الوابور ، وقت الاصيل كل عشرين يوما أو يزيد «البك» مفتش مصلحة الاملاك الاميرية ، أو حضرة مأمور المصلحة ، فهما وحدهما اللذان كانا يزوران عم «سعيد» فى وابور المياه ، ومعهما المرءوسون والاصدقاء والاقارب ، وما يكاد يصل أحدهما الى الوابور ، حتى يخرج عم « سعيد » الى عتبة الباب ، وعيناه تلمعان لمعانا شديدا ، فيمد « سبع » نفسه على الباب مدا طويلا ، ويتثاءب ، ويعود الى نومه ، فهذه تحيته للضيوف ..

وينحدر المفتش أو المأمور من الجسر الى الوابور، وهما متهللان .. ويسألان عم « سعيد » عن الصحة ، ثم

يسألانه بعد ذلك : أصوته أجمل أم صوت منيرة المهدية؟ فيضحك عم « سعيد » ، ويقول فى مرح شديد : ان صوته أجمل بكثير .. فيطلبان منه أن يسمعهما أغنيته العظيمة « طلعت أدب » ..

وفى الحال يبدأ فى القفز مرددا مقاطع هذه الالفاظ الساذجة بلهجة عربية فى لكنة زنجية :

« طلعت أدب .. »

« نزلت أدب .. »

« لقيت الدب .. »

ولا يكاد يصل الى النهاية حتى يكون تصبب عرقا فيضحك الحاضرون ، ويعودون صاعدين الى الجسر ، الواحد فى اثر الآخر وفى مؤخرتهم عم « سعيد » ، الذى يقف على الجسر حتى يتواروا عن الانظار ، فيهبط الى الوابور صامتا متحاشيا النظر الى « سبع » الذى يشيح بنظره بدوره عن زميله ورفيق حياته ، وكأنه غاضب من قلة عقل عم « سعيد » ــ الذى يجعل من نفسه مهرجا ــ ليدخل السرور الى قلب المفتش أو المأمور ، أو الصبية من أقاربهم ..

ولم يكن عم « سعيد » فى حاجة الى تأنيب أو توبيخ من « سبع » فان الكآبة التى تعلوه بمجرد اختفاء الضيوف كانت تثقل عليه ، فيجلس مطرقا ، مطيلا النظر الى فرن الوابور ، وألسنة النار تتلوى فيه ، وتتراقص وتئز ..

وقد تكررت زيارة الصبى « فؤاد » لوابور المياه مع قريبه مأمور مصلحة الاملاك الاميرية .. وفى كل مرة ، كان يضحك كما يضحك كل زملائه فى تلك الزيارة لاغنية عم « سعيد » .. ولكنه كان يتمنى طوال فترة الزيارة أن ينصرف من المكان فلم يكن فى الاغنية ما يطربه ، ولم

يكن النظر الى عم « سعيد » وهو يقفز ، وفمه مفتوح من غير أسنانه يريحه ، أما رائحة العرق الممتزج بزيت الوابور وشحمه التى كانت تتناثر فى الجو وتملأ أنفه ، فكانت تقبض صدره ، ولكنه كان مضطرا أن يجامل ويساير قريبه ومن معه من الموظفين الذين كانوا يظهرون ابتهاجا بمنظر عم « سعيد » وفرحا بما يفعل .. كأنهم لم يسمعوه ، ولم يروه من قبل .. وكأن ما يأتيه لون من السحر المذهل فى هذه القرية التى خلت من كل وسيلة من وسائل الامتاع والتسرية ، ولكن « فؤاد » فوجىء ذات مساء بما لم يكن يتوقعه مما أضفى على عم « سعيد » لونا جديدا من الاهمية والاثارة ..

فقد كانت عادة حضرة المأمور أن يجلس فى حديقة منزله تحت تعريشة تغطيها أوراق العنب ، وتزينها عناقيده ، كل مساء بعد الغروب فورا .. ويلتف حوله بعض موظفى المصلحة ، وضيف أو ضيفان من القرى المجاورة .. قد يكون من بينهم عمدة بلد ، أو أحد كبار أعيانها ، ويتجاذب الحاضرون أطراف الحديث ، وفؤاد جالس فى ركن لا يكاد يتابع كلامهم الا نادرا .. حتى كان مساء ، أقبل على الحديقة شاب هتف المأمور لمرآه : « هأنتذا عدت من الاجازة ياقدرى أفندى » وانحنى قدرى أفندى قليلا وهو يحيى المأمور ، ثم جلس ففاحت رائحة عطر كان مصدرها بلا شك قدرى أفندى الذى عاد لتوه من القاهرة . وتأمله « فؤاد » فاذا هو على غير شاكلة موظفى المصلحة فثيابه أنيقة ، وهو حليق الشارب ، وفى يده « منشة » وتحت ابطه مجلة كاريكاتورية ملونة مما لا يقرؤه موظفو مصلحة الاملاك الاميرية . ولمح قدرى أفندى « فؤاد » فاقترب منه ، وأخذ يحدثه عن القاهرة باعتبار كليهما من أهلها ، فراق « لفؤاد » أن قدرى

أفندى من قراء سلسلة « جونسون » ، و«ملتون ثوب» البوليسية التى كان يصدرها فى ذلك الحين حافظ نجيب. وبعد قدوم قدرى أفندى من القاهرة ، ببضعة أيام ، حدث الحدث الذى كان أكبر مفاجآت ذلك الضيف ..

ففى المساء ، وتحت نفس التعريشة ، كان فؤاد جالسا فرأى امرأة ريفية تمرق من باب الحديقة الرئيسى فى اتجاه باب المنزل .. ثم استدارت حول المنزل فى طرقة من الحديقة نفسها ، فى طريقها الى حظيرة الدجاج ؛ وموضع الفرن حيث يعد الطعام ، وتهيأ جميع أمور الدار .. مجرد امرأة ريفية ككل النساء فى تلك القرية .. ولكن لامر ما ، تعلقت بها العيون ، ولا سيما عيون قدرى أفندى ، والصبى « فؤاد » يلتفت التفاتا قهريا .. فنظر اليها ، وهى تقطع الحديقة من جانب الى جانب فى خطوة مليئة بالنشاط ، تشى بحيوية صاحبتها .. واستطاع على الرغم من صغر سنه ، أن يحس ان لهذه القروية السريعة قواما بارعا ، وأن يديها ، وهما تضمان الطرحة السوداء فوق رأسها ، وتجمعان طرفا منها الى ناحية فمها ، كما تفعل النسوة اذا ما مررن بالرجال ، أو أحسسن بوقع أنظارهم عليهن .. أحس بأن يديها هاتين رشيقتان جميلتان ، وأن حركتهما خليقة بأن تستوقف أنظار الرجال .. والحق ان الرجال جميعا تابعوها بما يدل فى غير شك على ان لها فى نفوسهم مكانة .. أما قدرى أفندى فقد حاول ما استطاع أن يتظاهر بأنه لم يرها ، وتشاغل بمجلة فى يده .. ولكن «فؤاد» أدرك بغريزة الاطفال التى لا تخطىء أن قدرى أفندى لم يكن أقل الرجال اهتماما بهذه المرأة التى عبرت الحديقة فى سرعة السهم الخاطىء .. وقبل أن تختفى فى الطرقة الجانبية المؤدية الى خلف الدار ، قال أحد الرجال :

« مقبولة » زوجة عم « سعيد » ! .. ثم ابتسم ابتسامة أحس « فؤاد » انها كانت تقطر حسدا وسخرية من أحكام القدر ، وقال آخر ، وهو يكاد يتنهد لولا الحياء :

ـ امرأة .. امرأة بحق ! ..

وقال أحد الاعيان وكان معمما :

ـ اتق الله .. عم « سعيد » رجل طيب ، وامرأته امرأة صالحة .. لم نسمع عنها سوءا ..

وغرق الجميع فى صمت ، كأنما أحسوا أن الحديث فى امرأة عم « سعيد » ، طريق مسدود لايؤدى الى شيء محمود ..

أما « فؤاد » فقد كان بوده أن يسأل قريبه المأمور ، كيف يعقل أن يكون عم « سعيد » الشيخ الذى لا أسنان له ، والقزم الذى يتخذه الناس هزؤا هو زوج هذه المرأة الشابة التى تعلقت بها عيونهم ، وصمتوا لمرورها صمت الاعجاب ، بل التدله .. ولكن الصبى أشفق من السؤال ، منعه حياؤه ومنعه ان الامر كان بالنسبة له غامضا ومخوفا ..

***

وفى أصيل اليوم التالى ، جاء « قدرى أفندى » الى منزل المأمور ، ليصحب « فؤاد » الى نزهة كعادتهما منذ وفد « قدرى » من القاهرة ، فركب كل منهما حمارا من حمير مصلحة الاملاك الاميرية العالية القوية التى تكاد تبلغ لفرط قوتها مبلغ الحصان ، وانطلقا فى الحقول ، وقد تلطف الجو ، وهبت نسائم المساء ، بعد أن مالت الشمس الى الغروب . وكان « قدرى » لا يكف عن الحديث عن القاهرة ، ونشاطه فيها ، وعن أسماء كثيرة من أهل القاهرة ، من رجال الرياضة والفن ، يدعى « قدرى » انهم أصدقاؤه ، وانهم لا يقوون على البعد

عنه ، وانهم يسعون سعيا متصلا لاعادته لديوان المصلحة بالقاهرة كما كان . وطاب لـ «فؤاد» سماع هذا الحديث الذى كان أحسن بديل عن الاحاديث التى لم يكن يسمع سواها قبل مجىء « قدرى افنـدى » ، والتى لم تكن تدور على شىء سوى السماد ، والدودة ، والبـذرة ؛ والثيران والحمير ، وأمراضها ، والشـكوى من الطبيب البيطرى حينا ومن كسل الكلاف ـ وهو المسئول عن ماشية المصلحة ـ حينا آخر . ونسى « فؤاد » نفسه فى هذا الحديث الطلى الشيق ، فلم يفق الا على نبـاح كلب ، ونظر فاذا بكلب عم « سعيد » نفسه هو الذى ينبحهم .. لقد ترك مكانه على باب « الوابور » ، وبعث الى الحياة بعثا ، وانطلق من موضعه التقليدى الى بطن الجسر ، ثم الى الجسر نفسه .. لقد صعده ركضا وهو يلهث ، ولا يكف عن النباح ..

انها لمعجزة تماما كمعجزة بعث أهل الكهف وكلبهم.. ان الـكلب النائم الجامد الذى لا يتحرك ، قد انطلق يعدو ويركض وينبح .. سبحانك مغير كل حال ! ..

ولم يكن « فؤاد » ممن يخافون الـكلاب كثيرا على غير عادة أمثاله من صبيان المدينة الذين لا يقع نظرهم على غير القطط ، ولـكنه ككل صبى كان يخاف الـكلب الذى يبدو منه أقل الشر . لذلك لم يلتفت أول الامر الى الـكلب ، ولم يعبأ بنباحه .. فقد كان مشغولا بعودة هذا الـكلب الى الحياة ، ولـكن « سـبع » راح يقفز قفزات بدا منها شر مستطير .. كان كالمجنون يكاد يعض حمار « قدرى أفندى » ، بل « قدرى أفندى » نفسه ، وتظاهر « قدرى » أول الامر بعدم الاكتراث والهدوء ، لولا أن الامر زاد عن حـده فاضـطر أن يلوح بعصا من الخيزران كانت معه . وظهر عم « سـعيد » على باب

الوابور ، فى قميصه وبنطلونه اللذين لاتعرف لهما لونا . . فهما بين الاسود، والبنى ، والازرق، على انهما لايستران من صدره وساقيه الا أقل القليل .. فهما فى حقيقة الامر ، مزع متناثرة ، لايضمها بعضها لبعض سوى خيوط واهنة .. وقف عم «سعيد» ينظر الى «قدرى» و « فؤاد » ، ولا يتحرك .. كأنهما ضيفان غير مرغوب فيهما ، مع أن « فؤاد » ، لم ير عم « سعيد » من قبل الا مهللا ومرحبا .. فعجب للأمر ، ولكن عجبه لم يطل، فان « سعيد » ، بدأ يتحرك نحو ضيفيه وهما يهبطان الجسر الى حيث يوجد مبنى الوابور .. تحرك أولا فى بطء ، ثم بدا يسرع فى خطاه ، ثم راح يعدو كعادته .. وانفتح فمه عن ابتسامته التقليدية ، وبدا هذا الفراغ الذى يظهر به اللسان الاحمر كسحلاة تجرى لتختفى عن أنظار الناس .. كان «فؤاد» لا يحب زيارة عم «سعيد» ولا رؤية وجهه ، وكان يخاف من النظر الى عينيه ، مع انهما اجمل ما فى هذا الوجه ، ولكنه اليوم كان أشد انقباضا وأكثر ميلا للانصراف .. لولا أن زيارة ذلك المساء لم تكن ككل زيارة سابقة .. فان زميله فى تلك الزيارة هو « قدرى » ، وهو شاب وله أسلوبه الخاص فى الحديث ، فمنذ هبط الى الوابور ، وهو يداعب عم « سعيد » ، وعم «سعيد» لا يكف عن الضحك ، والكلب من خلفه عصبى لا يستقر فى مكانه ، حتى نهره صاحبه فعوى كأنما أصيب بحجر ثم اختفى .. واتجه «قدرى» نحو احدى النافذتين ، ومد يده الى شىء طويل رفيع لف فى ورق جريدة ، أزال عنه هذا الورق فظهرت بندقية جيدة ونظر الى عم « سعيد » وقال :

ـ عندك ؟ .. وأشار بأصبعه اشارة فأسرع عم « سعيد » الى جانب من الوابور ، وعاد ومعه صندوق

من الورق المقوى مليء بقذائف البندقية قائلا وهو يتهلل وعيناه تحدقان فى وجه « قدرى » تحديقا متصلا :
ــ عندى كثير ! ..
وأخذ « قدرى » أثنتين ، ووضعهما فى مكانهما من البندقية ، ثم أسندها الى صــــدره ، وخرج الى باب الوابور ، وسدد فوهة البندقية الى حجر ، فهم «فؤاد» انه الهدف الذى كان يتمرن « قدرى » على اصابته كلما زار عم « سعيد » ووابوره ، وأخطأ الهدف فى المرتين ثم أخذ قذيفتين أخريين وسدد ، وأخطـأ .. وضحك ضحكة تفيض مرارة وضيقا ، ودفع البندقيـة الى عم « سعيد » وهو يربت على ظهره بيده على صورة أحس معها « فؤاد » انها كادت تكون لـكزة أو لـكمة ، ونظر عم « سعيد » الى يد « قدرى » وهى ممدودة بالبندقية لحظة ، وعيناه تلمعان لمعانا مخيفا .. وحشا البنـدقية بالذخيرة ، ونظر الى الهدف باســتخفاف .. وعاد الى الخلف خطوات ، ليزداد بعدا عن الهدف ، وفى ســهولة ويسر ، وبساطة وسرعة ، أصاب الهـدف مرتين .. فضــحك وقفز فى الهــواء ، وبحث بسرعة عن عود من البوص .. دفع بعضه فى الارض الطينية وابتعد عنــه بضع أقدام ، ثم سدد اليه البندقية ، فشق العود شقا ، وفى هذه اللحظة ظهر الـكلب ، فاقترب من عم «سعيد» وتمسح فيه ، فوجه اليه عم « سعيد » الخطاب قائلا :
ــ لا تزم .. اننا لم نبلغ سن الهرم بعد .. سقطت الاسنان ، وشاب الشعر ، ولـكن .. فينا بقية يا عم « سبع » ..
وابتسم « قدرى » ابتسامة فضحت عصــبيته ، ثم اقترب من عم « سعيد » ، ووضع يده على كتفه ، وضمه نحوه بشدة .. كأنما يريد أن يريه الفرق بين قوته هو

وضعف عم « سعيد » ، لولا أن الاخير ، قفز وهو يقلد نفسه ، حينما يغنى ، وراح يردد :

ـ طلعت أدب .. ونزلت أدب ...

وأحس « فؤاد » انه يوشك أن يصرخ ضيقا بكل ما رأى ، وزاده ضيقا أن الكلب ، نبح على « قدرى » نبحتين قصيرتين انتهره على أثرهما عم «سعيد» فسكت محتجا وصعد الصبى ومعه صاحبه الشاب الى رأس الجسر ، وامتطيا بهيمتيهما ، وعادا الى القرية وهما صامتان لا يتكلمان ..

***

لم يدر « فؤاد » حينما استيقظ فى فجر يوم حلّ بعد زيارته الاخيرة لعم « سعيد » ببضعة أيام ، ما اذا كان فى يقظة ام فى حلم ، كان يسمع صراخا ووقع أقدام تجرى يمينا ويسارا وصفافير ، ويسمع أسماء عم « سعيد » و « قدرى » و « مقبولة » .. ورأى نفسه فى السرير جالسا ، وحوله ظلام خفيف يرى معه الاشياء غامضة ، ذات أثر عجيب .. ففى خارج الحجرة قاعة فسيحة مستطيلة ، يروح فيها الناس ويغدون لا يتكلمون ، وكأنهم أشباح ، وصراخ يأتى من الخارج مختلطا ، كالعهد بالاصوات فى الاحلام ..

ونزل « فؤاد » من السرير فى حذر شديد ، وهو لا يكاد يقبل فكرة البقاء فى السرير ولا فكرة الخروج منه .. ولكنه اضطر الى النزول اضطرارا ، فان الصراخ فى خارج المنزل اشتد ، ووقع الاقدام فى القاعة أصبح مسموعا ، فالامر علم وحقيقة وليس حلما أو وهما .. وخرج فى القاعة ، فوجد زوجة قريبه المأمور تلطم وجهها بخفة ، وتقول :

ـ قتله .. قتله بالبندقية ! ..

وسأل :

ـ من القاتل ؟.. ومن المقتول ؟.. فلم يرد عليه أحد ..

وفى ناحية من الدار ، رأى امرأة تقول :

ـ « مقبولة » .. لعنها الله .. قتلته الشاب ، وسيشنقون عم « سعيد » بسببها ، ومن تحت رأسها !

ولم يكن فى حاجة الى اطالة صبره ، فقد برح الخفاء ، وعلم أن « قدرى » قتل ، قتله عم « سعيد » فى غبشة الليل ، فقد انتظره وهو يخرج من دار عم « سعيد » نفسه بعد أن قضى ساعات مع « مقبولة » زوجته ..

قذيفة واحدة استقرت فى الصدر جاء على أثرها خفير ثم خفراء ، ثم اجتمعت القرية كلها ، وانهالت على عم « سعيد » ضربا ، وسيق الى بيت العمدة ، ثم جاء وكيل النيابة حيث اتخذ من مكتب مأمور مصلحة الأملاك مكانا للتحقيق ..

وقبع « فؤاد » فى ركن ، يرى وقلبه يكاد يقف جزعا ودهشة .. وكان النوم يغلبه أحيانا ثم يستيقظ فيرى أمامه نساء ورجالا وموظفين فى ملابس رسمية وعساكر وضباطا ، دون أن يدرى أكان ما يراه حلما أم أنه كابوس طويل لايريد أن ينتهى .. ولكنه استيقظ تماما أو ظن انه استيقظ حينما أحس بجلبة شديدة وبوقع أقدام ، ثم رأى أمامه عم « سعيد » هادئا هدوءا شديدا ، يقوده عسكريان طويلان ، وهو بينهما كطفل حطم زجاج نافذة جاره .. لم ينظر الى « فؤاد » ، و « فؤاد » لم يستطع أن يطيل النظر الى وجهه وأن يتأمله ..

وغاب فى حجرة المأمور التى اتخذها وكيل النيابة مكانا لاجراء التحقيق ، وراح الصبى بعد ذلك فى سبات عميق .. فقد هدأ المكان ، وانقطعت الحركة ، وسكن

كل من فى الدار وما حولها ، وحتى الجنديان اللذان صحبا عم « سعيد » الى دار المأمور ، وجلسا خارج حجرة التحقيق فجلسا على مقعدين متجاورين وقتا ، وهما مستيقظان ثم استسلما للنوم .. فمال رأساهما على صدريهما ، ثم انطلق من صدر كل منهما شخير .. كأن كلا منهما يرد به على صاحبه ..

انفجر الضجيج مرة واحدة كقنبلة .. تدافعت الارجل ثانية ، وطرقت أرض الحجرة الاحذية العسكرية الثقيلة، وفتح « فؤاد » عينيه مأخوذا .. ورأى نفسه ، أمام المرأة التى لمحها وهى تمرق كالسهم من جانب من حديقة الدار الى جانب آخر .. هل كان ما رآه هو الحقيقة أم انها دهشة اليقظة المفاجئة ، فقد رأى فى هذه اللحظة أجمل وجه وقع عليه نظره ، رأى ابتسامة خفيفة ترف على الشفتين ، وخطوة ثابتة ، وقامة ممدودة ورأسا مرفوعا ..

وغابت المرأة فى حجرة وكيل النيابة لحظة ، ثم سمع صوت عم « سعيد » يقهقه ثم بدأ يردد :

ــ طلعت أدب .. نزلت أدب .. لقيته الدب .. طردت الدب .. ثم سكت فجأة !

وغرق المكان فى صمت عميق مرة أخرى ، قطعه فجأة انفجار جديد .. خرج على أثره عم « سعيد » مكبلا بالحديد ، مسوقا الى الباب الخارجى للحديقة ، وهو بين حارسيه يقفز ويردد :

ــ طلعت أدب .. ونزلت أدب ..

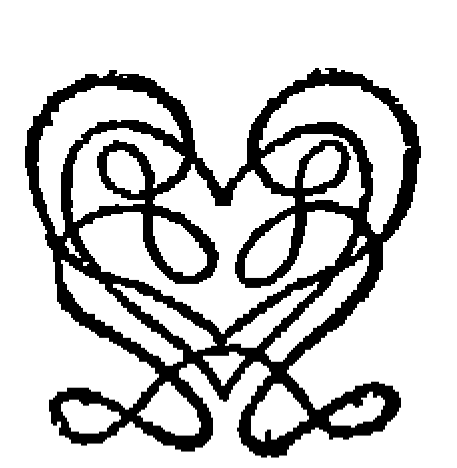
وخلا المكان من الناس ، فاستطاع « فؤاد » أن يرى فى مؤخرة جميع من كانوا فى الدار وتركوها .. «سبع» مطرقا ، يشم الارض ثم يسير متمهلا ..

ومن بعيد،كان هواء الصباح ، يحمل الى أذن «فؤاد» صوتا يردد :

ــ طلعت أدب .. ونزلت أدب ..

ثم خفق فى المكان شيء كجناحى وطواط فانتبه « فؤاد » ، فاذا المرأة التى رآها تعبر الحديقة من طرف الى طرف ، تمرق مرة أخرى كالسهم ، وتختفى فى مثل لمح البصر ..

و « فؤاد » لايدرى أكان كل ما رآه حلما أم كان حقيقة .. !




أنا القاتل

خرجت من دار « السينما » وكأنى قذيفة منطلقة من بندقية ..

فلقــد كان بطل الرواية المغنى الاســبانى « جوزيه موجيكا » وكان موضوعها دينيا يدور حول راهب يبلغ حدود الخطيئة ، ثم يرتد عنها بعناء شديد .. فملأنى صوته العريض العميق ، انفعالا ، أحسست معه انى أسير بقدمين تكادان ترتفعان بى عن سطح الارض ..

ورحت أشق لنفسى طريقا وســط جموع المتفرجين المنصرفين الى دورهم ، وكأنى لا أراهم .. فقــد نجح انفعالى بالرواية فى وضعى فى غلاف من الانتشــــــــاء والسعادة ، فصلنى عن الناس وعما يدور خارج نفسي .. كنت أدفع الناس المتلاصقين المتزاحمــين ، بلا وعى ، فحركات يدى وخطوات قدمى ، كانت جميعا تلقائيــة عفوية ، تصدر عنى ، كما تصدر حركات النفس ،وضربات القلب . ولكن لا بد ان تكون عيناى قد وقعتا على وجوه كثيرة ، وأنا اخترق كل هذه الاجساد البشرية ، ومع ذلك لم ينطبع منها على صفحة عقلى صورة وجه واحد .. حتى اذا ما وصلت الى نهاية الطرقة المؤدية الى الطريق العام ، وقع نظرى على وجه شاب .. ولست أدرى ما الذى كان فى هذا الوجه ، فقد ملأ عينى ، على الطريقة التى يتبعها المخرجون السينمائيون حينما يأمرون عدســات آلات التصوير بالاقتراب من وجه الممثل اقترابا ليملأ الوجه « الشاشة » فتبدو تقاطيعه ومعها خلجــاته ، وحركات شفتيه ، واضطراب جفونه ، واهتزازات أهدابه

رأيت الوجه كبيرا ، قريبا منى ، ناطقا بل صارخا .
أى وجه هذا ؟ ..

عيون صاحبه كبيرة واسعة سوداء ، ولكنها جامدة لا تطرف ، ثابتة لا تتحرك .. كأنها عيون ميت ، لولا انها كانت تفيض بأضواء خاطفة . ولقد سقط ضوؤها على ، وكأنها تبغى تنويمى أو تجميدى فى مكانى ، فقد استمر صاحبها يصوب الى نظرات طويلة لم أستطع أن أتبين معناها ، فقد عجزت حتى عن مجرد التساؤل عما اذا كانت نظرة فزع شديد استولى على الشاب حينما رآنى ، أم نظرة استغاثة من رعب هائل يطارده ، أم أن الشاب لم يكن مرتاعا ، ولا طالب غوث ، بل كان مخمورا أسرف فى الشراب ، ووقف على هذه الصورة لا يبغى شيئا .. جامدا لا يستطيع حراكا ، ولا يعى ما يدور حوله . ولكن حركة عصبية عبرت وجه الشاب ، عبورا خاطفا ، استطعت خلالها ـ وهى تظهر وتختفى كالبرق ـ أن أتحرر من نظرات عينيه « المنومة » لأتأمل وجهه كله ، فزاد الامر عندى غموضا .. فوجه الشاب كان متكاملا مع نظرات عينيه ، اذ امتلأت كل قسمة من قسماته بنفس التعبير الغامض الذى فاضت به عيناه ، والذى حيرنى ، فلم أتبين مدلوله ولا كنهه ..

ويبدو أن وقفتى فى وجه التيار المتدافع من خلفى ، تيار رواد السينما المتلهفين على العودة الى منازلهم ـ بعد أن انتصف الليل ـ كانت عقبة سهل التخلص منها ، فقد رأيت نفسى فى عرض الطريق بعيدا عن مدخل الدار حيث وقف الشاب يحدق فى لا شىء .. فتنفست الصعداء ورحت أمد فى خطواتى ، فى طريق جانبى مجاور للسينما كان خاليا تقريبا من المارة ، وأردت أن أنظر الى الخلف ، عساى أرى الشاب ، بعد أن بعدت عن مجال

نظراته .. ولـكن لم أقو على ذلك بفعل حافز لاشعورى كان لاشك حافز الخوف من أن يقع نظره على مرة أخرى، فأستثير اهتمامه بى .. وبعد أن بعدت عن دارالسينما أدركت انى أعدو تقريبا فى الطريق ، وانى أسـير ناظرا الى الامام لا أتلفت يمنة ولا يسرة وأن يدى جمدتا فى جيوبى .. خجلت اذ تبينت هذا كله .. أخجلنى مقدار الفزع الذى دهمنى لمجرد وقوع نظرات هذا الشـاب الغريب على .. أوعلى الاصح ، هذا الشاب الذى وهمت انه غريب ، وقد يكون فى واقع الامر واحدا من النظارة مثلى ومثل المئات الذين كانوا معى داخل الدار . وبدأت أعضائى تلين قليلا ، فأحسست باسترخاء خفيف ، أتاح لى أن التفت الى الخلف بشىء من عدم المبالاة ، وليتنى لم أفعل .. فقد رأيت فى آخرالطريق شبحا يدنو نحوى ، وبدا لى انه الشاب الذى كنت قد تصورت انى نجوت منه .. كان يسير بخطى واسعة ، فى اتجاهى .. اذن لابد انه تعقبنى ..

تعقبنى !.. لماذا ؟.. لا بد أن يكون قد دهانى الليلة شىء ، اذ كيف أتصور أن أكون هدف هذا الشاب الذى لا تربطنى به أدنى صلة ، والذى لم يقع نظره على الا بضع ثوان ، وتذكرت انى لم أظفر فى الليلتين السابقتين للصدفة المحضة بكفايتى من النوم ، وقررت أن أزيح كابوس هذا الخوف عن نفسى بمواجهة مصدره الموهوم .. فوقفت تماما ونظرت الى الخلف ، ولدهشتى رأيت الشاب يقترب منى وكأنه يعرفنى من قبل، فيقر قرارى فى التو .. فقـد أدرت وجهى بلا تفكير ولا تدبر ، الى الناحية الاخرى من الطريق ، ورحت أمد خطواتى فيما يقرب من الركض ..

كان الهدوء يشمل المدينة ، وكان الطريق كما قلت

خاليا .. فأصبح من الميسور أن أسمع طرقات قدمى الشاب السريعة وهو يدنو منى ، وكانت طرقات قدمى التى تفضح خوفى ، جوابا لها .. وزادت خطواتى اتساعا ، ولكن بلا جدوى .. فالخطوات التى كانت تلاحقنى أعلنت سرعتها المتزايدة عن عزم صاحبها الشابت على اللحاق بى ، ولم يكن ثمة أسرع من خطواتى وخطوات مطاردى ، سوى ضربات قلبى الذى خيل الى انه سيشق صدرى ..

ما أبشع الخوف ، وما أقساه من شعور مذل ! .. ان الموت نفسه أقل منه فظاعة ، وهو على كل حال فى رأيى أليق بكرامة الانسان ..

قلت لنفسي شيئا من هذا القبيل وأنا ألهث ، ولو ثابت هذه النفس الى شيء من الهدوء والتماسك ، لأدركت أن مبعث خوفى ، هو انى أجهل هذا الشاب ، وان كل الباعث له على اللحاق بى ، هو انى نظرت له ، نظرة بدت له انها نظرة من يعرفه .. ولكن لم يكن هناك أقل أمل فى أن أثوب الى الهدوء ، واقتربت الخطوات منى اقترابا علمت معه أن القضاء قد حم .. ولم ألبث حتى شعرت بيد تمتد الى ذراعى اليمنى ، فخيل الى أن قلبى قد كف تماما عن دقاته ..

ولست أدري بالضبط ماذا حدث بعد ذلك ، فقد رحته فيما يشبه الدوار .. ولكن الذى أؤكده أن اليد التى أمسكت بذراعى من الخلف ، كانت يدا مترددة ، بل فى الأرجح انها كانت يدا مرتعشة .. وبالاحساس الغريزى السريع أدركت أن مطاردى خائف مثلى .. بل لعله أكثر خوفا ، وقد ترجمت غريزتى فى الحال هذا الشعور الى عبارة موجزة :

ـ انت أقوى منه ..

فملأني هذا الشعور فى التو بطمأنينة غامرة ، ومع ذلك لم تكن كاملة فأتاحت لى أن أدير رأسي الى الخلف فى بطء وقد اقترن خوفى المتناقض ، بفضول متزايد .. من يكون هذا الشاب ؟ .. وماذا يريد منى ؟ .. أهو مجنون ؟ .. أم سكران ؟ .. أم قاتل ؟ .. وخيل الى ان لفتة راسي ، كانت كدورة الارض حول محورها ، طويلة ، طويلة جدا ..

ووقعت نظراتى على نفس الوجه الذى رأيته أمام دار السينما .. ولكن جبينه كان فى هذه اللحظة ، قد تفصد بالعرق ، وان الخوف الذى ملأ صفحة وجهه ، اقترن بشيء من الاعياء ، ولم يكن فى التقاطيع شيء يستوقف ، فهى فى الجملة مما يرتاح اليه النظر .. عيون سوداء لطيفة ، وبشرة بيضاء تشوبها حمرة ، تتناسب مع حمرة شفتيه الرقيقتين اللتين دل انطباقهما الشديد على عزم قوى ، وحساسية مفرطة ، ولما استدرت له وقفنا وجها لوجه ، وكأن كلا منا فريسة للاخر لا حول لها ولا قوة ، تنتظر فى استسلام مصيرها . طالت نظرة كل منا لصاحبه ، وكانت ـ من حيث لايدرى كلانا ـ نظرة توسل واستعطاف . قالت نظرتى له :

ـ لا تفكر فى ايذائى ، فأنا لا أعرفك ، ولا أضمر لك شرا ولا أقوى على ايذاء بعوضة ..

أما نظراته الى ، فقد عييت فى كشف غامضها .. فحرت بين ان اسلمه على التو حافظة نقودى فيما لو كان لصا ، وبين التهيؤ لاتقاء ضرباته ، فيما لو كان سكران او مجنونا ..

وبعد صمت بدا لى طويلا ثقيلا ، اضطربت شفتاه ، وصدر منهما صوت خافت متعثر ، أكد لى ، ان الشاب يعانى معاناة شديدة من خجل مستبد ساحق .. ففاض

قلبى عطفا ، لذلك لم يكد الشاب يعاود الكلام ، ولم أكد أتبين انه يقول مساء الخير حتى رددت عليه فى حماسة :

ــ مساء الخير !

ومد لى يدا رأيت فى نور مصابيح الشارع الخافتة ، كم هى مضطربة فأمسكتها ، فاذا هى أشبه بجناحى عصفور بلله ماء مطر بارد ، غسلها العرق ، ينتفض فيها كل عرق ..

وعاود محاولته للكلام ، فتمتم ببعض الالفاظ التى استطعت بجهد أن افهم منها انه يقول :

ــ هل تسمح لى بدقيقة من وقتك ؟ .. وبدات أحس بأنى أشبه بشخص يفيق من كابوس ، واننى أرى الاشياء وأسمع الاصوات واضحة ولكنها تأتينى من بعيد ، وأجبته وانا اجد عناء كبيرا فى تحريك شفتى : تتحدث الى ؟ فهز رأسه بالايجاب ، وقد زادت شفتاه الرقيقتان التصاقا ، فبدت على دهشة عميقة ، وقلت :

ــ الى أنا ؟!

فعاد يهز رأسه بالايجاب ، وقد علت وجهه ابتسامة تفيض مرارة ، وظهر ارتباكه أكثر وضوحا ، ثم أطرق اطراقة الخجل ..

فسألته :

ــ هل تعرفنى ؟

ولاول مرة استطعت أن أسمع صوته اذ قال :

ــ أبدا .. عفوا انى مخبول

ودار على عقبيه ، وأراد أن ينطلق ، وهو يلوح بيده اليمنى ، تعبيرا عن خجله وحيرته ..

وتطور الموقف تطورا عجيبا ، فبعد أن كنت أفر منه ، فرار الفريسة من الصائد ، أخذت أستوقفه ، ثم قلت بقوة :

ـ الى أين ؟

فأدار رأسه الى ، وعلى وجهه تعبير قاس من الشعور بالخزى وقال لى :

ـ لا تؤاخذنى .. لا تؤاخذنى .. مساء الخير ..

فأمسكته من ذراعه قائلا :

ـ لا .. لا تذهب ، ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟.. هل كنت تحسبنى شخصا بعينه ، لا بأس عليك ..

فالتفت الى فى هدوء وحزن ، وقال وهو يضغط بشفته العليا على شفته السفلى

ـ لا شىء .. لا شىء .. الامركله سخافة.. سخافة

وضحك ضحكة عصبية ، وهو مطرق فجمدت فى مكانى ، لا أفهم مما يدور أمامى شيئا ، ولعلى قلت لنفسى :

ـ ان الرجل مختل ، وانه شأن المخبولين المتأثين متردد ، ولذلك فقد عدل عن مسايرة النزوة التى حفزته الى مطاردتى .. فاعتزمت أن انتزع نفسى من هذا الموقف المربك المحير غير المفهوم ، وان انطلق الى بيتى حامدا لله أن نجوت من هذه التجربة بلا خسارة تذكر. ولكن التعبير غير الارادى الذى طفا فوق وجهى جرح كبرياء الشاب ، فاستدار نحوى وقال بصوت ضعيف ولكنه مسموع ، وبألفاظ ثابتة غير قلقة :

ـ أؤكد لك انى لست مجنونا !

فقلت على الفور وكأنى أنفى عن نفسى تهمة اعلم انى مرتكبها فعلا :

ـ أنا لم أقل شيئا كهذا

فعادت الابتسامة الشاحبة تكسو وجه الشاب وكأنها طبقة خفيفة جدا من لون فاتر ، وقال فى شىء من الثقة بالنفس :

ـ بل قلته .. وجهك قاله ، اننا نتحدث بوجوهنا ،

اكثر مما نتحدث بألسنتنا .. ما علينا .. ألا يضايقك أن أتحدث اليك قليلا .. فى مكان ما ، مكان قريب .. من هنا .. أى مكان ، فكل الاماكن الان خالية تقريبا ، ولا تخف منى ، فلست ـ أؤكد للمرة الثالثة ـ مجنونا ، ولا أنا أريد منك شيئا .. لن أطلب نقودا ، ولن أكلفك الا مشقة الاستماع الى فى هذه الساعة ، وقد تكون بحاجة الى العودة الى البيت ، والنوم .. فما أسعدنا حينما ننام ، وحينما نكون فى بيوتنا بعيداً عن الناس ، لو لم نكن نحمل فى نفوسنا جراثيم القلق .. انك ستخدمنى ياسيدى خدمة عظيمة .. عظيمة جدا

وانصت لهذا الصوت الرقيق ، وهو الذى كان مع رقته ينطلق فى حماسة مضبوطة كأن الشاب يتلو على لوحا محفوظا . لقد اهتززت من الاعماق ، واحسست انى أمام انسان رقيق ، وضعيف معا ، فيرق له قلبى ، ووددت ـ لولا تحفظى ـ ان آشد على يده ، أو أربت على كتفه ، آية المشاركة والمواساة ، ولكن على الرغم من شدة انفعالى ، فقد قلت له فى تحفظ شديد وفى تعال بارد :

ـ لكن هل تعرفنى ، هل رأيتنى من قبل ؟

وصدت هذه اللهجة الشاب ، فكاد يستدير ، وأنا أعجب لنفسي كيف يكون ردى بمثل هذه البرودة ، وأنا أشتعل انفعالا فى الداخل ، ولكنه قال فى صوت نم عن يأسه :

ـ لا .. لا .. انا لا اعرفك من قبل .. ولم ارك ، رأيتك فقط أمام السينما ، تلاقت عيوننا ..

ثم سكت لحظة استأنف بعدها الكلام فى مشقة :

ـ وحينما تلاقت عيوننا خيل الى أن نظرتك كانت نظرة عطف .. انك فهمت اننى بحاجة الى انسان .. صداقته أو على الاقل صحبته .. أنا لا أطيق الوحدة التى أعيش

فيها .. اننى على حافة ..

وسكت فجأة وقد تغيرت سحنته ، وترقرقت فى عينه دموع حاول أن يمنعها من الانهيار بضغط شفته السفلى بشفته العليا ، فاهتز لذلك خـداه ، وعاودنى الخوف ولـكنى قاومت نفسى وقلت له :

ـ هل تعرف مكانا هنا ؟

فلم يرد على ،بل سار فى التو امامى ، تطرق قدماه الارض طرقا مسموعا ومنتظما وتبعته فى صمت كالمنوم حتى لحقت به ، وأخذ وقع حذائى يرن فى سكون الليل الهادىء ، ويرد على ايقاع حذائه فكنا أعجب مخلوقين .. فلقد مشى الواحد منا الى جانب صاحبه صامتا ، لايتكلم .. وكان كل منا يجهل رفيقه فى الطريق ، وكنت لاأدرى اى حديث سيفضى به الى ، كما كنت لا أدرى الى أين نحن ذاهبان .. وانعطف فى نهاية الشارع الساكن الى حارة صغيرة أكثر هدوءا ، وأقل حظـا من النور ، ثم وقف وأخذ يتلفت ، فوقفت أنتظر قراره ، ثم انطلق الى آخر العطفة وانا أتبعه ، ثم دلف منها الى عطفة أخـرى واخذ يجيل فيها نظره حتى وقع على باب حانة صغيرة فدخل اليها مترددا وأنا خلفه .. ثم أخذ يبحث عن ركن فيها ، واختار أخيرا موضعا الى جوار الباب ، على يمين الداخل اليها ، فجلس وجلست معه على مقعدين قديمين يتأرجح مقعدى منهما ، لا لقدم المقعد فقط ، بل لعدم استواء الارض أيضا .. ونظرت الى يمينى ، فألفيت على مقعد مجاور ، شيخا ، شاب رأسه ، وطال شعر ذقنه ، جلس وقد مد ساقيه أمامه وتدلى عنقـه على صدره ، وراح فيما يشبه النوم ، تاركا فوق منضدة خشبية عتيقة لا تعرف لها لونا ، كوبا فيه مشروب قاتم اللون ، وفى ثوان اطمأننت الى المكان ، فاستطعت أن أتبين

ـ فوق ما تبينت ـ ان مصباحا واحدا يضيئه وهـو مصباح ضعيف ، لا يبدد الظـلام بقدر ما يرسم على الجدران أشباحا .. وكان فى صدر الحانة ، منصة عالية من الخشب ، وقف وراءها شاب استند بذراعيه عليها، ونظر الى لا شيء .. فلما دخلنا الى الحانة لم يتحرك ، بل لم يلتفت الينا وبالتالى لم يسألنا ماذا نطلب ، وامتدت يدى فى هذه اللحظة لاخرج علبة سجائرى وكنت قد ذهلت عنها طوال هذه الفترة الحرجة ، مع أن يدى شأن جميع المدخنين تمتد اليها بلا تفكير ، عند أدنى انفعال أو تعب . وأشعلت عود ثقاب ، بعد أن التقطت من صندوق سجائرى ، سيجارة .. فأضاف الضوء الضعيف المتراقص المنبعث من العود ، الى جو الحانة ، لونا زادها رهبة . ولكن الثقاب انطفأ ، والسيجارة بدأت تشتعل .. وبعد لحظة مددت علبة السجائر للشاب ، فهز رأسه علامة الرفض وهو غير ملتفت الى . وتحرك فى مكانه قليلا وتهيأ للكلام ، وبدأه بعبارة خيل الى انه أعدها خلال الفترة التى قطعناها صامتين فى طريقنا الى الحانة ، قال :

ـ لست ممن يحسنون الحديث .. ولكن القصة ، أو الرواية أو المأساة .. كما تحب ان تسميها والتى سأرويها لك الآن قصصتها على نفسى مرارا ، حينما أعوزنى المستمع الذى يمكن أن أرويها له .. قصصتها على المستمع الخيالى الذى خلقته ، قصصتها عليه مفصلة ومجملة ، حذفت منها ، وأضفت اليها ، وعلقت على احداثها وحللتها مرارا .. كل مرة بطريقة ، وبأسلوب وكنت خلال ذلك كله ، أسخر من العالم الذى نعيش فيه ومن الحياة كلها ، فلقد أحسست ان هذا الوجود عدم لا معنى له .. ولم أكن من قبل أتفلسف ، بل لعلى لم أكن أفكر ـ فأنا ـ ولنبدأ القصة ـ شخص عادى

لم أثر اهتمام احد حتى ولا آبوى .. جئت بعد بنين وبنات ، وجاء بعدى ولد وبنت .. فلم أكن أكبر الاولاد، ولا أصغرهم ، فلم أظفر بتدليل الاوائل ، ولا باعزاز الاواخر .. وفى المدرسة لم أكن قط فى المقدمة ، لم اتدحرج الى المؤخرة ، لم أرسب حتى يكون لنجاحى بعد الرسوب فرحة خاصة ، ولما اتممت تعليمى هنأنى أبى ، وفرحت أمى ، ورنت فى البيت زغاريد ، ولكن كان ذلك كله أقل مما يحدث فى بيتنا لمناسبات اقل اهمية ، ولكن لم التفت وقتذاك لشىء من ذلك ، فلم اشعر له بضيق وجرت حياتى على هذا المنوال نفسه ، حتى بعد أن لحقت باحدى الشركات الكبيرة ، على الرغم من ان الحظ واتانى بما لم يمنحه لزملائى الذين كانوا أبرز منى بين الزملاء ، وأكثر توفيقا ، فقد حصلت على مرتب أكبر من مرتب اكثرهم نجاحا فى الحكومة ، ورأيتنى محل عناية المدير واعوانه ، ولم افكر أيضا فى سر هذا النجاح ، واستمتعت بحياة رخية سهلة ولكنها كانت ... ماذا اقول ؟ .. كانت ملساء ، خلت من الزوايا ، والبروز والتضاريس . فلم أكن فى الشركة مثلا شخصا مرموقا ، ولا صاحب نشاط خاص ، ولم يكن لى أصدقاء ، ولا أعداء ، ولا منافسون .. فلم أعرف المغامرات ، ولا المآزق ، ولا آلام الطموح ، ولا لذة الانتصار بعد المعارك

وتردد قليلا ونظر الى من تحت أهدابه الطويلة كما نفعل حينما نضطر الى الافضاء بشىء نخجل منه ، وقال:

ــ وصلاتى .. صلاتى بالنساء كانت منذ مطلع الشباب ، بنفس السطحية ، فمن عرفتهن من الفتيات ، فتيات الجيران ، أو غيرهن ممن تسوقهن الصدفة ، كن يطفون دائما على سطح حياتى .. لم يصلن الى الاعماق

ثم ابتسم ابتسامة فاترة وعاد يقول :

ـ لا لعيب فيهن .. بل لان حياتى لم يكن لها اعماق وكنت لا أتوقع لحياتى تغييرا .. بل لعلى لم أكن أتوقع شيئا ، ما دمت لا أتغير ، وما دامت صلاتى بالناس جميعا لا تخرج عن قالبها المألوف .. ولكن آخر ما يتوقعه الانسان هو الذى يقع غالبا .. حدث فى حياتى انفجار مفاجىء ..

واشتد فضولى فأشعلت سيجارا ، وعلى ضوء الثقاب الخافت المتراقص ، رأيت قادما جديدا الى الحانة. كان مهرجا ممن يرقصون ويطبلون أمام «البيانولا» مع صبى وفتـــاة ، احيانا ، ومع زميل احيانا اخرى .. كان على وجهه المساحيق المعتادة وعلى رأسه قبعة .. ودخـــل مطأطىء الرأس ، يجر رجليه جرا ، ونظر اليه عامل البار بنفس الاهمال الذى نظر به الينا .. ولكن المهرج ارتمى على المقعد المجاور للباب من ناحية اليسار ، وهتف :

ـ واحد « زفت »

ثم ألقى قبعته على الارض وتركها لحظة ثم التقطهـا ورماها على المنضدة المجاورة له ، ونظر الى عامل البار، بعينين جعلتهما المساحيق وسائل للاضحاك ، لا أدوات للتفاهم ، ولا وسائط للنظر ، ثم صرخ :

ـ قلنا واحد زفت .. الزفت خلص ؟ !

ولم يتحرك عامل الحانة من مكانه ، ولكنه قال :

ـ ألم تطفح عند مانولى ؟

وزأر المهرج :

ـ مانولى ملعون أبوه .. وأبوك معه.. واحد «زفت» يعنى « زفت » .. خلاص

وافترت شفتا العامل عن ابتسامة كأنما هى بصـــقة سالت على شفتيه عفوا وبلا قصد ، وهو يمد يده الى رف صفت فوقه قنانة الخمر ، وسكب من احداها سائلا

قاتم اللون فى كوب صغير ، على طـاولة ملصقة ، وهو يقول ، وكأنه يتجشأ :

ـ جيبك فارغ كالعادة

وصرخ المهرج :

ـ عقلك هو الفارغ ، جيب السبع ..

وضرب على جانبه الايمن بحركة دلت على انه شرب حتى فقد توازنه ، وفى هذه اللحظة بعينها تحرك الشيخ الجالس على مدخل الحانة الايسر كأنما هو أفعى تمدد طولها ، ونظر حواليه نظرة من أفاق من نوم عميق ، ثم هز راسه واخذ يدندن فى صوت كئيب ، ثم تدلى عنقه على صدره من جديد ، وسكت

شتتت هذه المناظر ذهنى ، وقللت من شدة انتباهى الذى بلغ غاية التركيز عندما شرع الشاب فى سرد قصته فقد انقبض صدرى لمرأى هذه الاشباح ، ولسماع هذه الاصوات ، واستولى على شعور بالاشمئزاز والدهشة . اما محدثى فقد نظر الى كل هذا بلا اهتمام ، واستأنف حديثه :

ـ ليتنى أستطيع أن أشرب مثلهم

ثم هز رأسه وقال :

ـ ما علينا ..

ثم زم شفتيه كالعادة وانطلق ، وكأنه قرر أن يفرغ من قصته فى جولة واحدة بلا توقف ، كمن يتجرع كأسا مرة ، دفعة واحدة :

ـ كنت أعيش عيشة هادئة ومرتبة ، بعيدا عن أهلى . وكان من ضمن برنامجى أن أرتاد مرة كل شهر مكانا من الاماكن الفاخرة التى لايرتادها الا علية القوم وأثرياؤهم . كنت أحب أن أستنشق هواء البذخ . وأن أرى أغنى الناس فى افخر ثيابهم ، وفى احسن حالاتهم . وفى الاغلب كنت أذهب الى هذه الاماكن وحيدا ، وان لم يخل الامر

منى أن أدعو صديقا أحيانا نادرة . وفى احدى الامسيات دخلت ـ على عادتى ـ مطعما فاخرا ، تعزف فى جانب منه فرقة موسيقى ، تناثر من حولها رواد المطعم ، فى حلقات يتهامسون ، وتتعالى ضحكاتهم ناعمة وخشنة من النساء والرجال ، فتضفى على المكان بهجة انيقة مترفعة .. وفيما أنا آخذ مكانى عند احدى الموائد ، وشعور الراحة وخلو البال يغمرنى تماما ، رايت يدا تلوح لى من بعيد . ونظرت فرأيت شابا يبدو عليه الثراء ، ككل رواد المكان والى جواره شابة ، آية فى الاناقة . وترددت فى النظر اليهما ، لانى رجحت أن التحية لغيرى ، فأنا ممن يدخلون هذه الاماكن ويخرجون منها ، وكأن روادها اشخاص رواية سينمائية تظهر على الشاشة فقط ، دون أن يكون ممكنا الاتصال بهم أو التحدث اليهم . ولكن الشاب كرر تلويحه بيده فى اتجاهى حتى لم يعد ثمة مفر من التدقيق فى النظر اليه ، ولكنه أغنانى عن هذا كله ، لانى سمعته يهتف باسمى وهو يحاول ما استطاع أن يكون نداؤه غير ملفت للنظر أو مزعج للسادة والسيدات الذين كانوا كمن يسبحون فى بحر من النور ، ثم اتجه نحوى وأمسك يدى بين يديه وهو يقول :

ـ ما هذا ؟ أتحاول الفرار ؟ تعال أعرفك بزوجتى .. لقد تزوجت

والحق أننى دهشت من هذا كله ، فصاحبى هذا كان من زملاء الدراسة ، وكان واحدا من القلة التى تذهب الى الكلية بسيارات خاصة .. وكعادتى لم أكن أختلط به ، شأنى مع غيره من الزملاء ، أغنيائهم وفقرائهم ولكنه ـ بعد أن تخرج كلانا من الكلية ـ تردد على فى الشركة التى عملت بها ، لشئون عمله ، مما دعا الى تقابلنا بين الحين والحين ، مقابلات لم تكن طويلة ولا داعية

لانشاء صداقة ، ولكن هذه المقابلات مع الزمن، لتكررها وانتظامها ، جعلتنا على شيء من المودة والالفة ..

قدمني الى زوجته ، فلم يستوقفني في مظهرها سوى اناقتها .. وعلى الرغم من انها اناقة دلت على ذوق مصقول ، لكنها لم تنجح في أن تخفي عني أنها - أي الزوجة - دون زوجها في المرتبة الاجتماعية والثراء . وبعد عبارات التعارف جلسنا نتناول عشاءنا ، على صوت الموسيقى الهادئة الجميلة ، ونتبادل الاحاديث حول شئون تافهة لم يكن في وسع أحدنا أن يتجاوزها ، فقد كنا - ثلاثتنا - من الزبد الذي يطفو على سطح المجتمع ، ومن هنا لم يكن ليشغل أذهاننا من أمور المجتمع ، الا ما يطفو كذلك .. ولكن استوقفني - بعد حين - ان نظري لم يكن يتجه الى زوجة صاحبي مرة ، حتى الاحظ انها كانت تطيل الى النظر خلسة ، وان عيوننا لم تتلاق ابدا ، لاني لم أكن انظر اليها - في أية مرة - حتى تسارع بتغيير الوجهة التي تنظر اليها .. على ان ذلك لم يقتضيني اطالة التفكير فيه ، اذ عللته لنفسي ، بان السيدات يسرهن عادة ان يتأملن في اصدقاء ازواجهن ، ليعرفن أسلوبهم ، وطريقة كلامهم ، وأذواقهم ، ليكون كل ذلك مادة للتعليق فيما بعد ، على الرغم من أن الحديث سار سهلا ، ودار حول الزواج ، والمقارنة بينه وبين العزوبة ، وعن اى الجنسين اكثر احتمالا لمتاعبه ، وعن مزايا الزواج المبكر ، ومزايا الزواج المتأخر . وعلى الرغم من أنني انطلقت على سجيتي في المشاركة ، في كل هذه الاحاديث .. الا أن شعورا خفيا ، ساورني بأن السيدة لم تكن مرحبة - في أعماق نفسها - بتناولي العشاء معهما . ومرة أخرى عللت ذلك بأنها كانت تود أن يخلو لها زوجها ، وأن تستأثر بصحبته ، خصوصا وأنا ممن

لا يحسنون الحديث . وقد اكون أيضا ، ممن لا يحسنون الاستماع .. غير ان هذه المشاعر الخفية ، توجت بشيء كان أكثر لفتا لنظرى ، فقد سألنى صاحبى ، فى صدر الحديث عن حياة العزوبة التى أحياها .. عن الشقة التى أسكن فيها ، وعن العمارة التى تقع فيها الشقة ، وعلقنا طويلا على سكنى العمارات ، وسخافة الحياة بها ، ومتاعب المصاعد ، ومشكلات البوآبين ، والجيران . وكانت زوجته خلال هذا الحديث ، تبدى اهتماما بمعرفة عنوان العمارة بالضبط ، ورقم الشقة ، وان اخذت هذا كله ، تحت ستار من التعليق على حسن اختيارى لمسكنى ، فى الحى الذى اخترته . وانتهت سهرتنا ، ونحن نضحك أو نتضاحك ـ على الاصح ـ مما كنا نتبادله من فكاهات على حياة الاعزب السعيد ، الذى سيدهمه الزواج ، ان آجلا أو عاجلا ..

وعندما وصل محدثى الى هذا الموضع من القصة زم شفتيه ، وأدار طويلا عينيه فى جوانب الحانة .. ويبدو أن جارنا الشيخ، قد أحس بوقع نظرات الشاب الحائرة التى وقعت عليه عفوا ، فتحرك أولا ، ثم اتجه ناحيتنا فى خطى متثاقلة ، ثم وقف يتأمل فى وجهينا ، على طريقة السكارى ، فبدا لى أن أعطيه سيجارة ، فمد فى الحال يدا مرتعشة ، وأخذها ، ثم بصق على الارض ، ومسح شفتيه بظهر يده ثم قال مغمغما :

ـ ولا يهمك ..

وضحك وقال بصوت أعلى قليلا :

ـ ملاعين .. أولاد ملاعين .. ولا يهمك !

وهز صاحبى رأسه ، واستأنف حديثه تاركا الشيخ أمامنا ، وكأنه لاشىء ، وقال :

ـ بعد يوم أو يومين ، وأنا فى شقتى مستلقيا على

أريكة ، وفى يدى مجلة ، وكل ما حولى يؤكد أن العـالم كعهدى به لايزال هادئا ، وانه سيستمر على هدوئه هذا الى الابد ، دق جرس الباب ، فذهبت متثاقلا لافتحه ، ولم أكن أدرى انى سأفتحه على جهنم .. فتحت الباب، فاذا هى أمامى ..

فسألته والفضول بلغ منى أقصى الغاية :

ــ من هى ؟

ولم يجب محدثى على ، فقد غاب عن المكان ، وقـد امتقع وجهه امتقاعا شديدا ، وأخرج لسـانه من بين شفتيه ، ولعقهما به ، وكان المهرج فى هذه الاثناء قد بدأ يدندن ، فثقل على كل ذلك ، وشعرت اننى أود أن أصرخ فى محدثى :

ــ انه قصتك ودعنى اذهب

ولـكن جموده ، وبروده ، وعدم اكتراثه ألجمت لسانى فجلست أنظر اليه ، ولما طال سكوته ، أخرجت سيجارة وأشعلتها ، وفيما أشعلها رأيت الشيخ قد اتجه نحو المهرج ، وسيجارته تهتز بين شفتيه ، فحدثتنى نفسى ، أن أهرب ، وأن أترك هؤلاء جميعا بعضهم مع بعض فهم من عالم واحد .. لولا أن الشاب ، وضع يده على ، وهو ينظر بعيدا عنى ، وكأنه يود أن يزيح عن عينيه منظـرا لا يطيق رؤيته ، ثم أخذ يفرس أصابعه فى شعره الاسود الغزير بعصبية بادية ، مستأنفا حديثه ، بنغمة جديدة دبت الى صوته :

ــ كانت هى .. كانت زوجة صاحبى ، أشهد الله انها كانت مجنونة .. نعم مجنونة .. حسبك أن تتصور أنها جاءت تطالبنى بخطاباتها الغرامية التى أرسلتها الى .. أى مجنونة .. اجبتها اول الامر فى هدوء : انى لا اذكر انى رأيتها من قبل .. ولكنهـا أخـذت تلح على ذاكرتى

الحاحا شـديدا حتى تذكرت أنه كان لى جيران وكانت لهم ابنة ، وأنا كنت معهــا على صـلة صـبيانية كأكثر الشـــبان فى ســن شـــبابهم الاولى . عبث أطفـــال لا أكثر .. ولا أقل .. ولا يبعد أن تكون قد أرسلت الى خطابا أو خطابات .. أوراق مضحكة .. ولم يكن معقولا أن أحتفظ ، وأنا الصبى ، بخطاباتها هذه عشرين عاما أو تزيد .. وكنت أتوقع ، أن تطمئن وتنصرف فى هـدوء شأن سيدة تزوجت وتمتعت فى حيـــاتها بالسعادة ، فحرصت على حماية سعادتها ، فلما اطمأنت الى ذلك ، قنعت بهذه الطمأنينة . ولـكنى رأيت نفسى امام مخلوقة لم اعرف لها نظيرا .. فقد اخذت تتوسل اولا ، ثم تبكى، ثم ارتفع تعبير انفعالها الى صراخ .. أخـذت تتهمني بأنى تعقبتها ، وان مقابلتى لها مع زوجها لم تكن صدفة محضة ، وانى معتزم الاحتفاظ بخطاباتها لتهديدها ، اما لابتزاز مال منها باعتبارها زوجة رجل غنى ، واما للظفر بها شخصيا .. مؤامرة كاملة ، ذات مقدمات وغايات لم تخطر لى على بال .. وقد كان الامر يهون ، لو انى رأيت امرأة تبكى وتصرخ ، ولـكنى فى الواقع كنت أمام انسان معذب ، قلق ، خائف ، يتوقع ان يصيبه شر مؤكد .. وقد كان ذلك شيئا مفاجئا لى ، فلم يكن فى حيـاتى ما يؤهلنى لمواجهة هذا الموقف ، أو التصرف فيه . ولو كنت مجربا ، لوعدتها كذبا بأى شىء لا تدبر الموقف على مهل .. لفعلت شيئا ما أى شىء .. !

ووقف الشـاب ، واتجه نحو الباب ، وقـد امتلأت عيناه بدموع غزيرة أخذت تنهمر على خـديه ، فوقفت بحركة لا ارادية ، وأمسكت به ، وانا انتفض وسألته :

ــ الى أين أنت ذاهب ؟

فهز رأسه وقد غص بدموعه ، وقال فى مثل صـوت

طفل خنقه البكاء :

ـ لو لم تكن أمي قد ماتت ، لذهبت اليها ، وارتميت بين ذراعيها .. انى لم اذنب حتى أعذب هكذا !.

ونظر الينا المهرج والشيخ ، فوقفا صامتين مأخوذين بما يريان .. ومن كان احق منا بان يثير الدهشة

وعدت الى الشاب اسأله :

ـ أتريد أن نخرج من هنا ؟

فقال ، وقد عاد يهز راسه علامة الحيرة والندم معا :

ـ الى أين ؟

وعاد الشاب الى المقعد ، فجلس فى بطء ، وهومشغول عنى ، وكأنه يحدث نفسه ، بما نطق به بعد قليل :

ـ لو رأيتها أنت فى صراخها الهستيرى ! .. لقد بكت ومزقت شعرها وقالت ان سعادتها ستنهار .. لم تسمع لكلامي ، ولا لايمانى المغلظة .. وخرجت محطمة متداعية وهى تقول :

ـ انها تدعنى لضميرى يومين أو ثلاثة ..

وكنت أود أن أتخلص منها بأى ثمن . فلما قالت ذلك وخرجت تنفست الصعداء ، وخرجت بعدها بقليل جدا وكأنى عصفور اطلق من القفص ، وقد كنت اظن اننى سأبقى زمنا متأثرا بما رأيت وسمعت ، ولكن سطحيتى الاصيلة فى ، استطاعت أن تتغلب على هذا التأثر المؤقت، ففى اليوم التالى نسيت عنها تقريبا كل شيء . وفىاليوم الذى تلاه ، لم أعد أصدق انها ستعود الى .. حتى جاء اليوم الرابع ووجدتها على عتبة الباب .. عندما فتحته بنفسى ، لم اصدق عينى ، فلما دخلت والقت بنفسها على أول مقعد بالردهة ، وشعرها مضطرب ، وعيناها ككأسين من الدم ، وشفتاها ترتعشان ، وهما تنطقان بالالفاظ ، ويداها مضطربتان لا تكادان تقويان على حمل

حقيبتها ، خيل الى أن قبضة قوية قد أمسكت بخناقى بشدة ، وفجأة احسست أننى سأغيب عن صوابى ، فلما سمعتها تقول :

ـ هل أحضرت خطاباتى ؟ ..

جمدت فى مكانى ، لانى أحسست اننى منها ، كالقاضى الذى سينطق حكم الاعدام . تعلقت عيناها بشفتى ، ولـكن لم يكن ثمة مفر من أن اقول لها الجواب الذى لا بديل له عندى .. قلت لها اننى لم ابحث عنها لسبب بسيط هو انه لا وجود لها كما أخبرتها لاول وهلة .. ولم تناقشنى هـــذه التعسة ، بل قامت فى صمت ، وفتحت الباب دون أن تلتفت الى ، وفيما تتخطى هذه العتبة ، قالت فى صوت خافت ، مع نظرة تفيض احتقارا لى :

ـ لقد كنت أحسبك اكثر شرفا !

واحسست للكلمة بمثل وقع خنجر فى الصدر ، او بمثل ركلة قدم فى الظهر ، وخيل الى ان كل دمى قد اجتمع فى رأسى ، وكاد ينبثق فى عينى .. ولكن اقبح ما وقع لى فى هذه اللحظة اننى شعرت بكراهية شديدة لهذه المخلوقة التى لا تمت الى بأدنى صلة ، فزالت الرحمة من قلبى ، وما كان يذيبنى اشـــفاقا عليها ، مشـــاركة لهـــا ، من مظاهر حزنها واضطراب هيئتهـــا وانهمار دموعها وتقلص شـــــفتيها ، مـــلأ نفسى بالتقزز والاشـــمئزاز . لم اكن اعهد فى نفسى هـــذه الانانيـــة الجائحة ولـكن من منا يعلم حقيقة نفسه.. لقد أصبحت فى مثل لمح البصر ، انسانا آخر قاسى القلب ، يود أن ينتقم . ولحسن حظى ، أن السيدة لم تفعل شيئا ، ولم تضف لما قالته حرفا واحدا ، فقد وقفت ، وكأنها تجمع أعضاءها عضوا عضوا ، ثم نظرت الى ، وهى تأخـــذ

حقيبتها من المقعد المجاور لمقعدها ، ثم سارت فى بطء وتثاقل ٠٠ اننى لا ازال اراها ، ان عينيها الحمراوين اللتين غطتهما الدموع لا تزالان تنظران الى حتى الآن.. اننى اراها فى كل مكان ٠٠ انها الآن آمامى ٠٠ انها تسير فى اتجاه الباب كشيخ متهدم .. ها هى ذى تقفل الباب انها تختفى .. لتعود من جديد .. انها أمامى ، انظر.. انظر .. وأمسك الشاب بذراعى ، وهو يضغط عليها بعنف شديد كدت أصرخ منه ، ثم أمسك بمقدم سترتى وراح يهزنى هزا وهو يقول :

ـ أمجنونة هى ؟ أتعتقد انها مجنونة ؟ قل ذلك .. قل ذلك ..

وخرجت من بين شفتى كلمة « نعم » بفعل ضغطه المادى على ، كما تخرج بذرة الفاكهة بفعل ضغط أصابع شديدة فوق قشرتها ٠ وحانت منى آلتفاتة الى المهرج والسكران فاذآ بهما جامدان ، وقد اعتمد احدهما على كتف الآخر ، ووقفا يتأملان فى حالة استغراق تام ، وعدت بحركة عصبية أقول :

ـ نعم ! بلا شك ..

واخلى الشاب سبيلى ، كمن يلفظ متاعا لا نفع منه ، وهو يقول ، وكأنى أسمع صوت أضراسه ، وهى تطحن كلامه طحنا :

ـ هـذا أسهل الحلول .. مجنونة .. ومجانين .. ولكن هذه المجنونة دفعت بى أنا الى الجنون .. هأنذا كما ترى ، أهذى ، وأجرى وراء رجل لا أعرفه ، وأتحدث فى حانة .. وليس فى وسعى الا أن أفعل ذلك ، فبعد أيام ، رأيت صورة فى جريدة .. صورة شابة ، شنقت نفسها .. كانت هى ، هى بعينها ، تدلى لسانها من بين شفتيها .. ولكن خيل الى أنا ، انها قبل أن يتدلى

لسانها هكذا ، جمعت شفتيها لتبصق على .. على وجهى وأنا أستحق ، ثم صرخ الشاب :
- نعم ، انا أستحق .. »
وقد اذهلت الصرخة السكرانين ، كما افاق على صوتها عامل الحانة ، فاقترب منا وهو يقول :
- ماذا جرى ؟
وانطلق الشاب يعدو الى خارج الحانة ، فانفجر الشيخ مقهقها وهو يودعنا بصراخ مدو :
- ملعون أبوهم كلهم .. ولا يهمك !
ولحقت بالشاب ، واستطعت أن أستوقفه وسألته :
- الى أين أنت ذاهب ؟
فأجابنى بنغمة تفيض احتقارا :
- وهل أنا أعرف ؟ ..
ولست أدرى ما الذى وضع على لسانى السؤال التالى :
- ولكن انت مضطرب هكذا .. انت لم تفعل شيئا
فصرخ فى وجهى :
- كيف لم افعل شيئا .. انا القاتل .. لقد قتلتها ياسيدى .. صحيح اننى لم أذبحها بسكين ، ولم ألق بها من نافذة ، ولم أصوب اليها مسدسا .. ولكن هذه أهون وسائل القتل .. لقد ارتكبت جريمة القتل التى نرتكبها جميعا دون أن نحس .. لقد أهملتها .. كنت أريد أن أتخلص منها بأسرع وقت
فأجبته على الفور :
- وماذا كنت تريد أن تفعل ؟ ..
فأجابنى وكأنما يجيب على نفسه :
- شىء من المشاركة .. لقد كانت تنوء تحت عبء خوف .. الخوف من خطر موهوم .. كانت فى حاجة

الى جو من المودة ، يعيدها الى صوابها ، كان يمكن أن تبحث عن هذه المودة عند زوجها وتجدها فى هذه المناسبة .. فقد كانت تخافه ، أو تخاف أن يطلع على ما تصورته ماضيا يجب أن يبقى مجهولا .. ولكن أى مودة عندى أعطيها لها أو لغيرها .. لقد كنت أعيش فى هدوء .. فى فتور .. غارقا فى دنيا من عدم المبالاة .. والبعد عن كل المتاعب والمضايقات والمشكلات .. تمنيت أن تخرج حالا من حياتى .. وقد خرجت

فوضعت ذراعى فى ذراعه ، وقلت له :

ـ لا تنصرف .. فانى أود أن أتكلم معك ، لقد تكلمت أنت ما فيه الكفاية

فلمعت عينا الشاب بسرور عظيم وقال :

ـ حقا أانت لا تريد التخلص منى ؟

فقلت بحماسة لا أدرى من أين مصدرها :

ـ بالعكس ..

فالتفت الى الشاب بكل جسمه ، وكأنه لا يصدق ما سمع :

ـ عجيبة !

قلت له :

ـ ما هو العجيب ؟

قال :

ـ انت لا تريد أن تطردنى من حياتك كما فعلت أنا معها ..

قلت وأنا كالمتورط :

ـ لا .. لا .. لن أطردك .. سنمشى قليلا

وأفلتت منى كلمة « قليلا » بلا تدبر .. فابتسم صاحبى ابتسامة باهتة ، وهز رأسه هزة أسف شديد وقال :

ـ نتمشى قليلا ، ويذهب كلّ منا لحال سبيله ، انت خائف ان اتهمك بمثـــل ما اتهمت به نفسى .. اذهب ياسيدى ، اذهب الى بيتك .. وانسنى ..

ثم نظر الى ساعته نظرة خاطفة لا أظن انه عرف معها كم الساعة وقال :

ـ اوه .. لقد تأخرنا كثيرا .. لقد أخبرتك ، ولكن لا بأس أن تصادف فى حياتك مرة مجنونا .. فالمجانين وان كانوا يخيفون آلا انهم يسلون ..

والتقت عيناه بعينى ، فهالنى ان عينيه اتسعتا اتساعا مخيفا ، فاهتززت بشدة ، وشعرت برغبة ملحة فى الفرار وفى هذه اللحظة ، اقترب منا السكرانان ، ثم اتجه نحوى الشيخ منهما ، وهو يتقيأ .. فكاد يصيبنى من قيئه شىء ، فأسرعت بالابتعاد بينما وقف الشاب يتأمله دون أن يتحرك .. ودار الشيخ حول نفسه ، ورجلاه لاتكادان تقويان على حمله ، ثم شبك ذراعه فى ذراع الشاب ، كما كنت أفعل من لحظة مضت .. ثم دفع الشيخ ، فسارا معا ، وهما يترنحان بفعل حركة الشيخ المتـارجحة ، والشيخ يصرخ بأعلى صوته المخمور :

ـ ملعون أبوهم كلهم .. كلاب أولاد كلاب .. ولا يهمك ..

وأخذا يبتعدان عنى قليلا قليلا ، وقبـل أن يبلغـا نهاية الطريق ، ويختفيا عن نظرى سمعت الشاب ، وقد ادار راسه الى الخلف وهو يصرخ :

ـ ملعون أبوهم كلهم .. ولا يهمك !

ولم أنم ليلتها ولا ليالى بعدها ..

وفى الايام التالية لم أستطع أن اتصفح جريدة واحدة فقد كان قلبى يحدثنى اننى سأجد فى احداها ، صـــورة شاب ، تدلى من حبل ، وقد برز لسانه .. !

قصة السريالى



صفقت طويلا لاستوقف عامل مقهى « نادى المحبة » .. ولعل العامل كان موزع الخاطر بين رواد وجلساء المقهى الكثيرين ، الذين وزعوا على مناضد ، صفت فوق افريز الطريق العريض فى آمسية ذلك اليوم ،الذى كان قائظا .. وانتهى كعادة ليالى القاهرة ، بنسيم عليل ..

وعاودت التصفيق .. وفى كل مرة ، كان يخيل الى ان العامل « مدبولى » التفت الى ، وفى كل مرة أتبين ان ما ظننته كان بعيدا عن الواقع ، وقد راح هذا العامل النشيط ، يتنقل بين الزبائن فى سرعة ، ويردد طلباتهم فى صوت ممطوط بنغم ، ترى له أثرا فى مشيته التى كان يتخلع فيها ويتمايل ويتلوى ، يساعده على ذلك قوام لدن ، وقامة طويلة .. ويزيده ميلا اليه ، وجه صبوح ، يكاد يكون وجه فتاة ..

وفى المرة الاخيرة ، سمعت لتصفيقى صدى .. تصفيقا آخر ، ولكنه لم يلبث حتى أصبح حادا عنيفا .. فدرت بنظرى الى مصدر الصوت ، ثم ارتسمت على شفتى فى الحال ابتسامة عريضة ، فقد وقع نظرى على شاب جلس الى الطاولة المجاورة ، وقد استوقفنى منه على الفور ربطة عنق سوداء أو كانت سوداء ، وأصبحت مع الزمن رمادية ، مع بقع صفراء ، وأخرى زرقاء ، كما تمزقت أطرافها ..

وكانت هذه الربطة من الطراز الضخم الذى يفضله الفنانون فى اوربا ، ومن يقلدهم من محبى التقليد فى مصر

« بابيون » متهدل اجتمع سواده المخطط ، مع زرقة سترة زرقاء من ذوات الازرار النحاسية الصفراء التى يلبسها الرياضيون ويسمونها على ما أظن « بليزر » ؛ ومع الاثنين ، بدا رأس جارى ، وقد توج بشعر أسود فاحم ثائر ، كان لامعا بطبيعته وناعما ، وقد تاهت عيناى فى هذه السمات الصارخة ، فلم تستطيعا أن تتبينا وجه جارى وقسماته وتقاطيعه .. ولكن الذى لاشك فيه ، ان أبهى ما فيه ، كانت عيناه الصغيرتان السوداوان اللتان يخطف بريقهما الابصار .. عينان ضاحكتان كضحك الاطفال ، المزوج بخبثهم ..

وكنت أود أن أدير وجهى سريعا عن جارى لولا انه بادرنى بقوله :

ــ غير موجودين !

وأشار الى والى نفسه بأصبعه اشارة سريعة جدا ، ثم انفجر ضاحكا .. وماتت على شفتى ابتسامتى العريضة ، كأنى حرت فيها ، هل أنهيها ، أم أبقيها ، أم أتحول بها من الابتسام الى الضحك ، ولكن المفاجأة اذهلتنى ، بيد أن جارى كرر عبارته :

ــ غير موجودين .. ثم أضاف :

ــ لا أنا .. ولا أنت ..

وقبل أن أعلق على هذا الكلام بشىء ، وثب من مكانه الى جوارى ، وقد تأبط حملا من أوراق ظهر جليا أنها مجموعة من جرائد يومية ، فى الغالب كانت قديمة ، وقد حشيت بمجلات ، وحشيت المجلات بكتاب أوكتابين .. ولما اقترب منى ، رأيت انه يرتدى بنطلونا رماديا كان شديد الضيق مما جعل وثبته عملا رياضيا خارقا وقد كان « البنطلون » أقصر من أن يصل الى آخر

الساق .. فظهر جورب ، صعب على فى الحقيقة تبين لونه ..

وجلس الشاب على المقعد ، وقد وضع حملَ الجرائد على الطاولة ، ثم انطلق يصفق ويقهقه ويدور بعينيه فى كل اتجاه ، ثم توقف فجأة وقال :

ــ محسوبك مشتاق السخاوى !

وقد كنت غارقا فى الدهشة ، فلم أفتح فمى بكلمة واحدة ، ولكنه استأنف قهقهته وقال :

ــ مشتاق .. نعم مشتاق .. أية غرابة فى هذا ؟.. مشتاق .. ميم .. شين .. تاء .. ألف .. قاف ..

وانفجر ضاحكا ، وصفق بيديه ، ثم برجليه .. نعم برجليه فقد مد ساقيه أمامه ، وراح يهزهما هزا متصلا ، وقبل ان افيق من صدمة هذه المفاجأة التى لم تكن فى الحسبان ، التفت الى ، وقال :

ــ سريالى !

ثم أقبل نحوى بكلّ جسمه ــ عبر الطاولة ــ وقد استدبر كفيه عليها ، وقال وكأنه يصحح لى كلاما قلته ، أو استنتج هو اننى أوشكت أن أقوله :

ــ لا .. لا .. لست رساما ، ولا نحاتا .. ولا واحدا من أهل الفنون التى يسمونها الآن تشكيلية .. وعلى فكرة .. هل تعجبك هذه الاسماء ، تشكيلية وتعبيرية ؟ ..

واستولت على صاحبى نوبة جديدة من الضحك والتصفيق بقدميه ، دون يديه ، ثم توقف فجأة وقال :

ــ أنا مجرد آدمى .. انسان .. وليس هذا بالشىء القليل .. ومع ذلك فأنا سريالى !

وشعرت بانه لابد لى من ان اقول شيئا ، واوشكت أن أقول مثلا : « تشرفنا » ولـكن « مشستاق » وضع أصبعه على شفتيه ، وحركه مرتين أو ثلاثا ، اشـارة منه لي بعدم الـكلام ، وتدفق فى حديثه المثير للفضول وقال :

ـ ماذا ترى هنا ؟

وفرحت بالسؤال ، ليكون جوابى عليه ، كلاما أرد به على هذا السيل المنهمر ، قلت :

ـ أرى أناسا .. رجالا ..

فدفعنى فى صدرى برفق وسرعة باصبعه التى كان قد وضعها على شفتيه من قبل ، وقال :

ـ انت ترى ذلك .. لانك لست سرياليا .. كن سرياليا .. لترى الحقيقة ..

واستدار بسرعة شديدة ، وأخـذ يتنقل بعينيه فى الجالسين ، ثم أشار الى شيخ ملتح ، استدارت لحيتـه السوداء حول وجهه وتدلت مسبحة طويلة من أصـابعه وأغمض عينيه تقريبا .. بينما راحت شفتاه تتحركان فى نشاط ترددان شيئا ما ، وقال :

ـ ماذا ترى ؟ ..

قلت :

ـ شيخ ملتح ..

فاتجه بأصبعه الى مدبولى عامل المقهى وكان قـد اقترب منا ، وعلى يديه صينية نحاسية ، وهو يتمايل وينثنى ويتغنى :

ـ ومن ذا يكون هذا ؟

فقلت :

ـ مدبولى ..

فهز رأسه ووضع رجلا فوق رجل واخرج سيجارة ثم أشعلها فى تثاقل ، وكأنما ثقلت عليه خواطر حزينة ، وبعد ان اخذ نفسا طويلا طرد الدخان فى الهوآء ، واخذ يتابع حلقاته ، واخيرا بدأ يتكلم فى صوت ونبرة الاستاذ الذى يشرح درسا صعبا لتلميذ بليد بطىء الفهم ..

ـ هؤلاء .. فضاء .. فراغ .. اما الشيخ فمزبلة . أشم رائحتها .. أما من تسميه مدبولى .. فهو مو ..

وقال كلمة جارحة صارخة ..

وفى هذه اللحظة وصل الينا مدبولى .. فانحنى نحونا وقال فى صوته اللين :

ـ أسعد الله التماسى ..

فقال له مشتاق :

ـ كنت أقول للأخ انت مو ..

وكرر الكلمة ، فضحك مدبولى فى سرعة ، وقال وكأنه لم يسمع شيئا يخصه :

ـ أوامر السيادة ! ..

فقال مشتاق السخاوى وهو لا ينظر الى مدبولى :

ـ اثنين خرسوس ..

واختفى مدبولى بسرعته المعهودة ، ومشتاق يقول له :

ـ الخروب والعرقسوس ،كان يشربهما الشيخ عبده .. هل تعرف الشيخ عبده ؟ ..

والحق انى لم اكن أعرف من هو الشيخ الذى ذكره ، ولكن لم يكن فى وسعى أن أعلق بشىء حتى لو كنت أعرفه ، فان الشاب لم يكن يدع لى فرصة للتعليق على ما يقوله ..

وجاء مدبولى بالخرسوس فى كوبين طويلين ، تندى كل منهما ببخار الثلج .. فشعرت بلذة ارتشاف هذا

المشروب الجديد مقدما ، ومددت يدى بسرعة الى أحد الكوبين ورفعت عنه غطاءه المصنوع من معدن أبيض ، ولما هممت بالشرب سألنى « مشتاق » :

ـ هل تعرف ماذا تكون أنت ؟ ..

قلت وقد توقفت عن الشرب :

ـ أبدا ..

قال فى صوت خال من المجاملة :

ـ انت .. صفر

ومد يده هو الى كوبه ، ، واخذ يرشف منه رشفات متواليات فى صوت مسموع وتلذذ باد ، ورجله اليمنى التى وضعها فوق اليسرى تهتز هزات رتيبة هادئة ، معبرة عن مدى سعادته فى هذه اللحظة ، وتذوقه للمشروب الذى اقترحه ..

وخيل الى ان الكوب سيسقط من يدى ، وشعرت ان الدم هرب من وجهى ، وان قلبى توالت ضرباته .. فقد كانت الاهانة بالغة ، وزاد من قسوتها اننى شعرت بأن اقتحام هذا المجنون لى ، دل على استهانته التامة بأمرى ، وعدم احترامه لى .. اعدت الكوب الى موضعه ، وفقدت الرغبة حتى فى النظر اليه ، ولكن جارى الذى سقط على كما يسقط البلاء ، لم يبد عليه أى احتفال بالالم الذى سببه لى ، وعاد يسألنى دون أن يدير وجه ناحيتى :

ـ هل تعرف ماذا أنت الآن ؟

ولما لم أجب قال :

ـ اهتزاز ! ..

ثم التفت الى ببطء وقال :

ـ هذا أحسن .. لقد كنت صفرا .. لانك لم تكن

تريد شيئا .. مجرد ذرة فى الهواء .. أما الآن فأنت تهتز ، ولـكنك لا تدرى ماذا تفعل .. لقد تمنيت أن تصفعنى ، فكرت فى أن تبصق فى وجهى . لقد تصورت فى مثل لمح البرق انك قمت فركلتنى برجلك حتى ألقيتنى على وجهى ، ثم دست على عنقى بحذائك ، ولـكن أين الارادة والشجاعة والتصميم ؟ .. انت خائف ، ولذلك فأنت تهتز .. لا تحزن .. هذا أول الطريق !

ومد يده الى كوب « الخرسوس » وقدمه الى فى هدوء تام ، وكأنه لم يوجه الى أية اهانة ، وكأنه لم يقل لى منذ لحظة كلاما أقرب الى الهذيان منه الى كلام العقــلاء ، ومددت يدى الى الـكوب ، وكأنى منوم ، وبعد تردد ، رفعت الـكوب الى فمى ، وشربت هذا الشراب الذى لم أسمع عنه من قبل ، فاستطبتــه ، وأعجبنى طعمــه ، وأشاعت برودته فى ارتياحا تسلل الى نفسى كأنما أشرب خمرا ..

وبعد قليـــــل عاد الشاب الى الـكلام فى نبرة أكثر انتظاما ، وادعى الى الثقة به وبعقله ، فقال :

ــ النــــاس ينظرون الى الاشياء والى الاشخاص بعيونهم .. العيون لا تكفى ، هــذا هو المصاب الاكبر ، يسمعون الاصوات بآذانهم ، الاذان لا تنفع ، هذا هو بلاء الانسانية .. يتحسسون الاجسام ، ويقيسون الاحجام بأيديهم .. الايدى تكذب .. صــدقنى انها تكذب .. منذ كم سنة يستعمل النــاس عيونهم وآذانهم وأيديهم ليعرفوا العالم الذى يعيشون فيه ..

وأطــال النظر الى وجهى بعيونه الصــغيرة اللامعة ، فسرت فى بدنى رعشة .. ولما لم أجبه بسرعة ، امتدت يده الى ربطة عنقه فعبثت بها ، ثم الى شــعره الثــائر

فوق رأسه يتخلله بأصابعه العصبية ، وأجاب هو على نفس السؤال :

ـ آلاف السنين .. منذ جاءنا أبونا آدم وأمنا حواء الى هذا العالم غير المفهوم .. لذلك أصبحت العيون والآذان والايدى كالسلاح المثلوم .. كالسلاح البارد الذى لا يقطع .. لاسبيل الى معرفة الناس الا بالنظر الى باطنهم .. من الباطن ، الى الباطن .. تماما مثل من الباب الى الباب !

وقهقه قهقهة طويلة أحسست انها تنضح بحزن شديد ، ثم مد يده الى حزمة جرائده ، فوضعها تحت ابطه ، ثم سار الى الناحية الاخرى من الطريق ، أى الى الافريز المقابل ، وأنا مأخوذ ، أنظر اليه ، كأنما أنا فى حلم ثقيل .. وقد استطعت أن أتأمله فى سيره ، وهو يكاد يقفز ، و « بنطلونه » الضيق ، يكشف عن عنق قدميه ، ويظهر مدى نحافته وضآلة جسمه ، وغرابة تكوينه .. وقبل ان يصل الى الرصيف المقابل اتجه الى وهو يلوح بيده صارخا :

ـ لا تدفع لمدبولى شيئا .. بيننا حساب مستمر .. حساب مفتوح .. ولا تنس أن مدبولى هو مو ..

وكرر اللفظة القبيحة التى كررها وأطلقها عليه والتى لم يحفل بها مدبولى ، وكأنه لم يسمعها ..

***

لم أستطع أن أجلس طويلا فى « نادى المحبة » بعد أن تركنى مشتاق السخاوى ، فقد شعرت بانقباض وخوف وبحيرة واضطراب ، فقمت أجر قدمى ، كأنما ضربت ألف سوط فوق ظهرى ورأسى .. ولم أستطع أن أنام نوما هادئا تلك الليلة ، على الرغم من انى كنت لا أشكو فى العادة أرقا ، أو اضطرابا فى النوم ..

على اننى ما كدت أفرغ من عملى ـ فى اليوم السابق ـ حتى انطلقت الى البيت ، وليس فى رأسى الا خاطر واحد ، هو خاطر الاجتماع من جديد بمشتاق السخاوى فى المساء ، أو على الاقل ترقب مجيئه .. وقبل موعدى المألوف ، كنت فى مقهى « نادى المحبة » ولم أكد أجلس ، حتى صفقت لمدبولى الذى لبى ندائى سريعا ، فطلبت فى الحال : « واحد خرسوس » فصاح وهو واقف أمامى :

ـ خرسوس الباشوات ! ..

ولما أحضر الكوب الطويل المثلج ، لم ألتفت اليه ، ولم تمتد يدى نحوه .. فقد كانت عيناى حائرتين لا تستقران تتنقل من اليمين الى اليسار ، ومن الامام الى الخلف ، بحثا عن « مشتاق » وقد وقفت مرارا نصف وقفة ، وقفت مرارا أخرى وقفة كاملة ، كلما توهمت أن « مشتاق » قدم من أحد الازقة والحوارى العديدة التى تنتهى عند الشارع الذى يقع على ناصية «نادى المحبة» وطال انتظارى ، حتى غلبنى اليأس ، واستبد بى الملل .. فلما مر بى بائع الصحف ، ينادى على جريدة مسائية اشتريت منه نسخة ، وانا الذى لم يقرأ صحف المساء قط ، والذى لا يقرأ صحف الصباح الا نادرا .. وقلبت الصحيفة ظهرا لقلب مؤملا أن يستوقف نظرى فيها عنوان أو موضوع أو قصة أو نبأ ، فلم تزدنى قراءتها الا مللا ، وفيما ألقى بها فى الارض ، اذا بيد تلتقطها بسرعة ، وتنفجر بعد ذلك ضحكة من ضحكات السيد مشتاق السخاوى ، والتفت الى مصدر الضحكة ، فاذا هو بعينه ، وقد انحنى ليرفع الجريدة عن الارض ، ثم يطويها بعناية بالغة ، ويضمها الى حزمة الاوراق التى كان يتأبطها .. ثم جلس الى جوارى ، وقد أحس بأننى

افتقدته ، فبدا عليه ارتياح ، لم يحاول اخفاءه .. وبدأ يتحدث ، كأنما يتم كلام الامس ، وكأنه لم يفصلنا ليل طويل ، ونهار كامل :

ـ ليست السريالية بالشيء الهين .. هأنتذا لم تنم جيدا .. تحت عيونك هالات زرقاء .. وأنت لا تدرى ماذا اكون .. مجنون أم نصاب أم عاقل .. اعقل من سواى .. هذه هى السريالية .. ! لم تعد تكتفى بالنظر الى واجهات البيوت .. كان فى مصر ، ناحية طولون ، مصنع للذخيرة والاسلحة .. ولما تغيرنا تحول الى مستشفى لمعالجة العاهرات .. نفس البناء بنفس الواجهة !

وانفجر يضحك ، ويمد ساقيه للامام ، ويصفق بقدميه .. وأنا أتجرع صوت قهقهته بكل آذانى ، وأكاد أود أن اطبع صورته فى مخيلتى لفرط دهشتى وسرورى معا .. ولم أعد الى بيتى الا فى ساعة متأخرة من الليل .. فقد قضيت أكثر الليل مع مشتاق ، أسمع ، وأتأمل ، وأسلم نفسى للدهشة ، وللسرور أيضا ..

وتوالت الامسيات التى نعمت فيها بصحبة مشتاق ، وزدت به تعلقا .. وظهرت آثار صحبتى اياه على ، فقد كنت أدخل مكتبى فلا أكاد أرد على تحية زملائى فى العمل ولا اتحدث معهم الا عند الضرورة ، وكانت لهم مؤامرات صغيرة يشاغبون بها زملاءهم ورؤساءهم ، وحلقات يعقدونها فى مكتب العمل ، كلما ملوا الكتابة والنظر فى الملفات يروون خلالها فكاهات صارخة ، واعترافات هائلة يضجون لها بالضحك ، لا يكفون عنها حتى تصدر لهم أوامر بالتزام الادب .. فبدأت أرى فى كل هذا مايستحق الاهتمام والمشاركة ، وجربت أن أتحدث ، وأن أروى ما سمعت من الفكاهات المتبولة بالبهارات الحريفة .. وكانت فكاهاتى فى اول الامر باردة غثة ، ثم دبت فيها

الحياة ، حتى كنت أحتل مكان الصدارة بين رواتها ..

وتغيرت مشيتى فلم أعد أسير مكتفئا ، لا أكاد أرفع عينى من الارض .. عرفت كيف أقفز الى الترام ومنه ، وتحررت من هذا الحبل الذى كنت اخطو فوقه .. هذا الحبل المشدود بين مكتبى ومنزلى وبين منزلى و «نادى المحبة » .. وأهم من هذا كله انقطعت عن التساؤل بينى وبين نفسى : أيكون مشتاق عاقلا أم مجنونا ، أم مهرجا متصنعا .. يكفى اننى أحببته .. يكفى انه حل عقدة من لسانى ، ودفعنى الى بحر الحيـــــاة المتلاطم ، فتمتعت بضربات الموج فوق صدرى وعلى ظهرى .. واحسست بساقى تتحركان بعد ان كادتا تصابان بالشلل ..

الشىء الوحيد الذى وددت ان اعرفه ، ولـكن خجلى وتهيبى القديمين منعانى من التفكير فيه ، هو المصـــدر الذى كان يرتزق منه مشتاق .. فأنا لم اسمع منه قط انه كان يباشر عملا ، ولم أر قرشا يدخل الى جيبه ، ولم أشهد يده تمتد الى مال سواه .. ولقد أعيانى أن أقنعه بقبول دعوة لتناول غداء أو عشاء عندى فى البيت فقد واظب على الاعتذار وهو يرسل قهقهاته المألوفة :

ــ أكل البيوت محنط .. أشـهى طعـام هو الذى أخطفه من أيدى الباعة فى الطريق .. اللقمة التى تأكلها وأنت تجرى ، لا تغذيك فقط ، بل تجدد شبابك أيضا

ومضت الشهور ، ومشتاق فى حياتى هو ، هو ، بل انه ازداد تأثيرا على ، واتصالا بأعمــــاق نفسى ، حتى فتحت حزمة الاوراق التى يحملها ، فقد عثرت فيهــا ــ يوما بعد يوم ، ومرة بعد مرة ــ على كتب لم أكن ادرى من اين يحصل عليها .. كتب من كل صنف ، وفى كل فن .. بعضها كتب صفراء يحمر لها خجلا الشيخ الهرم ، فضلا عن الشاب أو الشابة ، وبعضها ثقيـــل

معقد ، لا يقوى الانسان على مطالعته الا اذا تسـلح بالصبر .. والايمان معا ..

على اننى لاحظت فى الايام الاخيرة التى سبقت الازمة التى انتهت بها علاقتى ب « مشتاق » انه بدأ يستقبل خليطا من الناس غريبا .. بعضهم يلبس عقالات فوق رأسه ، وبعضهم يلبس «جاكتة» فوق جلباب من الطراز البلدى .. وكانوا يحضرون غالبا فى سيارات جديدة الطراز فخمة ، ولم تكن صلة مشتاق بهؤلاء الاصدقاء لتمنعه من الجلوس معى طويلا كعادتنا ، ولا من التنقل فى أنحاء القاهرة ، والتردد بوجه خاص ، على حى الحسين والسهر فى مقاهيه المشهورة وتناول الطعام فى بعض مطاعمه القديمة .. وقد وددت يوما أن أسأل من يكون هؤلاء الاصدقاء ، لولا انهم انقطعوا تماما ، ثم قل تردده هو على اثر انقطاعهم على المقهى ، ولكن لم يكن ذلك بالامر الذى يستوقف نظرى ، لعلمى بغرابة أطواره وشدة رغبته فى التنقل والتغير .. ثم عاد هؤلاء الاصحاب ، وبدأ « مشتاق » يكتب اثناء وجوده معهم فى اوراق .. ماذا يكتب ؟ كان مظهره أثناء الكتابة غريبا ، فقد كان يبدو لى مستغرقا فيها ، منصرفا عن كل شىء .. الامر الذى لا يتفق أبدا مع مزاجه وأخلاقه وطباعه ، فهو مشتت موزع الخاطر ، يدور بعينين سريعتى الحركة وهو نفسه لا يكاد يستقر فى مجلسه ..

لقد كان دائما فى نظرى عصفورا صغيرا لا يكف عن القفز ، والزقزقة ..

وشعرت أن « مشتاق » يبتعد قليلا عنى . .ولما بدا عليه من الجد ، وقل نشاطه فى الكلام ، خفت أن أفقده .. أو أفقد على الاقل فيه ، هـذه الشخصية التى

لا تنقطع عن الضحك والحركة والخروج على العادات والهزء بالمألوف ، ومزج الجد بالهزل ، والقاء النكات البالغة فى قالب يكاد يكون الفحش بعينه !

وقررت ذات مساء أن افاتحه فى هذا التغيير الذى لاحظته ، لولا اننى وجدته فى ذلك المساء بعينه مرحا ضاحكا ، ثم اختفى تماما عنه هذا المظهر الكئيب الذى أحزننى ..

ثم ....

ثم اختفى مشتاق نفسه ..

مر يوم ، ويومان ، وثلاثة ..

وخيل الى أن « نادى المحبة » قد زال من الوجود لم تعد هذه الشخصية الفريدة تظهر على مسرحه.. قهقهته التى كانت تملأ المكان لا تصافح الاذان ، شتائمه وتشبيهاته ، وفكاهاته ، وتصويره للقادمين ، والذاهبين واللاعبين ، والسارحين والتائهين .. كل ذلك توقف..

وسألت كل رواد المقهى .. وكلهم يعرفونه .. بدأت بمدبولى ، فامتقع وجهه ، ولم يجب لحظة ، ثم قال فى صوت خافت :

ــ الله أعلم .. !

سألت الآخرين .. وعلى عادة الذين لا يعرفون ، لم يترددوا فى أن يقولوا أى شىء .. منهم من قال انه طريح مستشفى قصر العينى اذ صدمته سيارة ، وهو يترنح من كثرة ما شرب .. ومن قائل انه مات فعلا ، ودفن فى مدافن الصدقة .. ومن قائل انه جن ، وأودع مستشفى المجاذيب ، ومن قائل انه تزوج زيجة لم تكن على البال ، فوجد من ينفق عليه ، فكف عن تهريجه الذى لم يكن سوى ثمرة فقره ..

ورسبت هذه المفتريات والاشاعات فى القاع ، وبدأ

الناس ـ كعادتهم أيضا ـ ينصرفون عن تتبــع أخبــار مشتاق ، أو تسقطها أو صنعها صنعا .. ثم أخذ همس يعلو قليلا قليلا بأن الخبر الاكيد عند مدبولى ، فذهبت اليه وسألته فى جد :

ـ أين « مشتاق » ؟ ..

وفى هذه المرة ، امتقع وجه مدبولى أيضا ، ولــكنه أجاب بسرعة قائلا :

ـ الله يرد غربته ! ..

ـ غربته ! ..

واردفت بقولى :

ـ وهل سافر ؟ ..

فهز مدبولى رأسه قائلا :

ـ تقريبا ! ..

ما معنى هذا كله ؟ غربته .. وسافر تقريبا ..

ولم يطل انتظارى، فقد علمت ان مشتاق السخاوى، مقبوض عليه على ذمة جناية اتجار بالمخدرات مع عصابة تعتبر من اضخم ما وضع البوليس يده عليه ..

مشتاق السخاوى ، عضو فى عصابة مخدرات .. !

اذن هؤلاء الذين كانوا يترددون عليه ، ويكتب لهم ، ما كان يكتب جادا منصرفا عنا ، هم أفراد العصابة أو بعض أفرادها ..

وشقت على الصــدمة ، حتى كدت أحس بالمرض ، ولاحظ زملائى ذبولى ، وعزوفى عن الكلام ، ومع الايام فقدت شهيتى للطعام واضطربت قدمى .. !

لقد كانت خيبة أمل هائلة ..

لقد أحببت مشتاق وصدقته ، وأعجبنى أسلوبه فى الحياة .. كان مفلسا ضاحكا فيلســــوفا ، كان طيب القلب ، وكان عبث لسانه بالناس ، امتدادا لفلسفة ،

لا حقدا عليهم ولا كرها لهم ، ولا حسدا للناجحين فيهم .. اذن هذه خاتمة السريالى بكل تهريجه وعبثه ، فما اسخف اذن هذه الحياة التى نحياها ..

ولكن ايمانى بمشتاق السخاوى ، لم يلبث حتى غلبنى على أمرى ، ورجحت أن أفراد العصابة ، استغلوا عدم اكتراثه وبساطته ورغبته فى تجربة كل جديد وغريب .. ثم قطعت بهذا ، وقررت أن أبذل جهدا فى مقابلته فى السجن .. وباءت كل محاولاتى بالفشل ، فلم يقبل أحد التطوع بمساعدتى فى هذا السبيل ، بل ان اصدقائى وزملائى نهونى عن هذه المحاولة التى ستلقى على شبهات ، أنا فى غنى عنها ..

ونفضت يدى من هذه المحاولة على مضض ..

حتى جاء اليوم الذى تحدد للمحاكمة ..

طلبت اجازة من عملى ، وذهبت الى مبنى المحكمة ..

لم أكن أظن أن الوصول الى قاعة المحكمة ، هولا من الاهوال .. طرقة طويلة تكاد تكون مظلمة ، ومئات من الواقفين ، والجالسين ، والراكضين .. وأفواج من الناس ، يدفعون دفعا ، وراءهم عساكر ومعهم ضباط .. صراخ وصياح ، وقد كنت اتصور مقر العدالة ، مكانا هادئا وقورا ، منظما ، مضيئا .. وحاولت أن أعرف أين قاعة الجلسة ، فكأنما أبحث عن القارة المفقودة .. فمن قائل انها على يمينى ، ومن قائل انها على يسارى ، ومن قائل انها فى آخر الطرقة ، ورابع يفتى بأنها فى أول الطرقة .. ولقيت من فجعنى بان القضية نظرت وانتهت . على انى لم البث حتى صادفنى من طمأننى بأن الجلسة لم تنعقد ، وان القضاة لم يحضروا .. وفيما أنا أسمع هذا وذاك هبت عاصفة من الصراخ أعنف من كل ما سمعت ،

ورأيت تدافعا ، وتسابقا وهرجا ومرجا ، وارتفعت عصي طويلة يحملها جنود أقوياء .. وقبل أن أعرف حقيقة الانقلاب الذى وقع فى هذه الطرقة التعسة الكئيبة ، أحسست بطربوشي طار فى الهواء وبدم ساخن ، يتدفق من مؤخر رأسى .. ورأيت فى هذه اللحظة شابا يتقدم نحوى ويدفعنى الى ممر جانبى وهو يقول :

ـ اسعاف ! .. اسعاف ! ..

وكدت أنساق معه لولا أن رأيت فى هـــذه الزلزلة العاصفة .. وجه مشتاق ..

انه هو نفسه وسط رجال يكادون يكونون كالعمالقة طولا وعرضا ، وكاد قلبى يقف .. ان مشتاق بين هذا الجمع الغريب ، فماذا يا ترى يكون شعوره .. وقبل أن أردد السؤال ، رأيته بين أفراد العصابة وزعمائها .. صغيرا نحيلا ، يقفز كعادته ويدور ويلف حول نفسه.. وحانت منه التفاتة ناحيتى ، فشملنى سرور عميـق ، عميق .. فقد كان يضحك كعادته ، كان وجهـه مليئـا بالحيوية ، معبرا عن عدم مبالاته بكل شيء .. اذن هو برىء .. !

ودخلت قاعة الجلسة بعد أن ضمدت جراحى فى مكتب الاسعاف الموجود فى المحكمة ، ونسيت كل شيء حينما استطعت أن أقترب من قفص المتهمين الذى لم أكن قد رأيته من قبل ، وكان المتهمون فيه محشورين حشرا .. وبينهم جلس مشتاق ، أو وقف ، لست أدرى ، فقد كان تمييز ذلك بالنسبة لى أمرا صعبا

ورآنى .. فلوح لى بكلتا يديه ، وأخذ يضحك ،ويقول أكلاما لم أسمعه ..

وجلست ، بعد أن هتف حاجب المحكمة :

ـ محكمة ! ..

جلست أنظر فى هذه القاعة ، وأتأمل ، وأنا لا أكاد أدرى أين أنا .. ودارت عيناى فى أرجائها ، ثم وقفت عند مقعد محطم ، انتفش منه قطنه ووضع فى ركن من أركان القاعة ، خلف المحكمة ، وقد حاولت عبثا أن أفهم سر الاحتفاظ به على هذه الصورة وسر الابقاء عليه فى هذا المكان .. ورأيت لوحة زرقاء قديمة ، كتبت عليها آية من سورة من القرآن الكريم ، تدعو الناس الى العدل .. ولكن الغبار كان قد غطاها جميعها ، كأن الذين وضعوها فى هذا المكان منذ خمسين سنة او تزيد ، حرصوا على أن يخفى التراب حروفها جميعا ، وأن يخفى لفظ العدل على وجه الخصوص ..

ونودى على الشهود ، وكان أول الشهود جميعا مدبولى .. عامل المقهى ، مقهى « نادى المحبة » ..

وكانت شهادته أول الخيط فى القضية ، وكان المتهم الاول ـ حسب هذه الشهادة ـ هو مشتاق السخاوى !

ولكنى قد تبينت منها أيضا انه لم يكن مشتاقا ولا سخاويا .. فقد كان اسمه الحقيقى : « دحروج على دحروج » ..

ونظرت الى مشتاق فى القفص ، فلم أر على وجهه علامة واحدة من علامات الارتباك أو الانقباض أو الجزع .. انه هو ، هو .. كما رأيته فى اليوم الاول ، ابتسامته على شفتيه ، مكانها ، وعيناه اللامعتان الصغيرتان ، تشعان نورا وبريقا .. فقلت لنفسى :

ـ أيها السريالى العظيم ، هذا موقف فى حاجة الى كل السريالية التى وزعت على الناس أجمعين .. هل أصدق أذنى وعينى ، أم أكذبهما .. لقد علمتنى أن

العيون تخطىء ، والآذان تكذب ، والحواس أضعف من أن تصل الى الحقيقة ، أو تعرفها .. فما هى الحقيقة ؟ ما هى الحقيقة ؟

***

وعندما رفعت الجلســــة للاســتراحة ، أسرعت الى القفص .. فاقترب منى « مشتاق » فى لهفة وشوق ، وقال :

ــ هل لا تزال تشرب الخرسوس ؟ .. اشربه .. اشربه الليلة واذكرنى ..

والحق اننى أحسست بأن لسانى ثقيل ، وبأنى لا أكاد أقوى على مواجهة هذا الموقف المحير المربك ..

ولاحظ « مشتاق » ذلك فقال :

ــ الم أقل لك كن سرياليا تفهم ..

ولم أستطع كذلك أن أرد على هذه المداعبة ، فبادرنى بقوله :

ــ انا أحس بجوع شــديد .. اشتر لى لحمة راس وضعها فى رغيف ، وأسرع .. فالمحكمة ستعود حالا ..

وانقذنى هذا الطلب من هذا المأزق الذى تجمــدت فيه ، فأسرعت واشتريت رغيفا ساخنا ، مليئا بلحم الرأس ، ودفعته الى مشتاق الذى أخذه ، وراح يقضمه ، وهو ينظر الى بعينين صغيرتين لامعتين ..

وعادت المحكمة .. وعدت أسمع ، وانا لا أكاد أعى ، فأقوال تجعل من مشتاق زعيما من زعماء العصـــابة . وأقوال تجعل منه مجنونا استغله هؤلاء الزعماء .. وأنا بين هذا وذاك ، اشبه ما أكون بمن يوضع تحت « دش » بارد ، ثم « دش » ساخن على التــوالى .. وانقطعت

عن متابعة الجلسة ، لانى احسست بأن مرضا بدأ يزحف على زحفا ..

حتى كان يوم النطق بالحكم .. فتحاملت على نفسى تحاملا ، وسقتها الى القاعة التى أصبحت أكرهها أشد الكره .. فلما نطق رئيس المحكمة بالحكم ، لم أفهم شيئا فقد نطق بسرعة خاطفة ، وفى الحال دوت زغاريد وهتاف وامتزج ذلك بصراخ وبكاء .. ثم لاحت فى الافق العصى الطويلة ، وتدافع الناس ، فكمنت فى ركن ، حتى هدأت العاصفة .. ورأيت الذين كانوا فى القفص يساقون سوقا الى سيارة ضخمة تنتظرهم .. ورايت فيهم مشتاق ، يقفز ، ويصفق ويلف حول نفسه ، ويدور .. ثم يصعد مع بقية زملائه الى السيارة الضخمة .. فأسرعت نحوه ، وأنا أوهم نفسى بأن فرحه ومسرته ، هما دليل الحكم ببراءته .. ولكنى لم أجرؤ على سؤاله عن الحكم ، فقد اكتفيت بسماعى صوته وهو يقول :

ــ اشرب الخرسوس .. ولا تنس صاحبك !

هل برىء ؟ هل أدين ؟

هل هو عاقل ؟ أم مجنون ؟

هل هو مجرم ؟ أم اداة المجرمين ؟

لم أعرف ، فقد انقطعت عن « نادى المحبة » ولم أقرأ الجرائد ، ولم أسأل أحدا .. كل الذى وددت ألا يكون .. هو الا أحن من جديد الى السير على الحبل المشدود الذى كنت أسير عليه من قبل ..

أسطورة حب



كان الملك مســـتلقيا فى فراشـــه على ظهره ، ينظر الى النقوش التى ملأت سقف مخدعه الضخم •• وكان يتساءل فى دهشة عميقة : اكانت هذه النقوش فى هذا المكان من حجرة نومه ، منذ عرف هذا المخدع ؟ •• وكأنه يراها لاول مرة ، وكأن نظره لم يقع من قبل على هذه الغوانى العاريات ، الواقفات والجالسات على شاطىء بحر ، بينما طار فى الجو طفل صغير ، بأجنحة رقيقة ، يحمل فى يده قوسا وسهما ، وهو لايدرى الى اية واحدة منهن ، يصوب سهمه ؟ ••

وطاب للملك أن ينظر الى هذه القامات المشوقة ، والى تلك الاجســـاد التى تكاد تشع نوراً وكأنما صنعت من أشعة الشمس •• وعجب ان تغفل عينه عن هذه اللوحة البارعة ، وكأن اصابع الفنان التى صاغتها لم تكن تعنيه ولا تفكر فيه ••

وبينما كان الملك مسترسلا فى تأملاته هذه فى الجمال العارى المعروض عليه فى السقف وعلى الجدران ، وفى كل مكان ، كان على باب حجرة نومـــه ، هياج مكتوم ، يكاد يحطم باب الحجرة •• كانت حركة الاقدام لا تكف، وكان موظفو القصر ، وكبار رجال الدولة من عسكريين ، ومدنيين ، وأعيان الامة من اغنياء وشيوخ قبائل وزعماء عشائر يفدون الى القصر ، وعلى وجوههم علامات اهتمام شديدة •• ثم يجتمعون بعد ذلك ، فى القاعات القريبة من جناح الملك الخاص فى قصره العظيم ، الامر الذى لا يحدث الا فى الملمات الكبيرة ••

أما سيدات القصر ، فكن يتهامسن ، ويسرن على اطراف اصابعهن ، ويتخاطبن بنظرات العيون ، وخلجات الوجوه ..

أكانت في الجو نذر ازمة ؟؟

كان كبير وزراء الملك ، يروح ويغدو وهو يكاد يشتعل غضبا .. كان يلح في ان يرى سيده في الحال ، فعنده اخبار هامة وسارة .. ولكن كبير خدم الملك ، يأبى ان يدخل على مولاه ، فقد أمره - في الليلة السابقة - الا يقطع عليه نومه ، ولو انقلبت الدنيا رأسا على عقب .. !

وعندما يتنازع كبير الوزراء وكبير الخدم ، على باب الملك ، في شيء ، فان كلمة الثاني منهما ، هي التي يجب ان تنفذ وعلى الوزير الكبير ، أن يحني رأسه ..

وكان كبير حاشية الملك الخاصة ، يؤجل ويسوف ، حتى يعرف بطرقه الخاصة ، الخبر السار الذى سيفضى به رئيس الوزاراء الى الملك ، ليسبق هو باعلانه ، وينال بذلك الحظوه . ولذلك دار اتباعه ورسله في كل ركن من اركان القصر وخارجه يشمون الاخبار فلم يظفروا الا بشيء واحد ، هو ان رسولا خاصا جاء للوزير الكبير مع خيوط الفجر الاولى ، وافضى اليه بأمر .. وأنه مع شروق الشمس اصدر اوامره الى كبار رجال الدوله وزعمائها ان يوافوه في القصر ، لشأن هام ..

ولم يكن عند رسل كبير الوصفاء ، أمل في ان يجدوا للخبر اثرا - بعد ان اعيتهم الحيل في تبينه - الا عند ابنة الملك ، ووحيدته ، وأعز الناس عنده ، فهي وحدها التي تعرف الاخبار قبل ابيها ، او معه - على الاقل - لانها اعظم الناس تاثيرا عليه ، ومن هنا فهي مقصد كل المتملقين ، والراغبين في كسب عطف الملك ، والتقرب اليه ..

ودخل رسل كبير الحاشية الى ابنة الملك ، فأصابتهم على التو خيبة أمل كبيرة حينما وجدوها فى هدوئها الملائكى، تكاد لا تحس بما يجرى فى القصر ، وانها شغلت عنه ، بعزف خافت على « ارغن » . ولما خرج واحد منهم ، من حجرتها لمحه رئيس الوزراء ، فأسرع اليه وأمسك بتلابيبه ، وهزه هزا شديدا حتى كاد يخنقه ، وهو يقول : « لو عدت اليها لفصلت راسك عن جسدك فى الحال »

وأسرع الرسول مذعورا ، يتعثر فى خطاه ، ويكاد ينكفىء على وجهه الى سيده . فلما علم كبير الحاشية بكل هذا تولاه وجوم عميق ، ووقف على باب مخدع الملك ، وقد فارقته رغبته فى ان يعرف الخبر السار ، اذ ادرك ان ما عند رئيس الوزراء هو « أسوأ » الاخبار السارة ، وان للملك من وراء هذه البشرى التى ينوى رئيس الوزراء حملها اليه ، آلاما هائلة ، وأحزانا لاتنتهى .. وبقيت يد كبير الحاشية على مقبض باب حجرة الملك ، فتره من الزمن ، وهو لايدرى أيفتح الباب ، أم يبقيه على حاله . ولو تأملت هذه اليد فى تلك اللحظة ، لاحسست انها تكاد تكون وجها تتوالى عليه صور الخوف ، والحزن والامل ..

ولم يكن هناك مفر من فتح الباب ففتح ..

وكانت ابنة الملك الى هذه اللحظة ، امام الارغن تنساب منه ـ تحت وقع اناملها الرقيقة ـ آنغام كانت فى هذا الصباح حزينة ، الى الحد ، الذى احست معه العازفة نفسها ، بالرغبة فى البكاء .. فكفت فجأة عن التوقيع ، وقامت فى انفعال مفاجىء ـ لم تدر سببه ـ متجهة الى الباب ، وكأن يدا تدفعها الى الخارج .. ولم تكد تفتح الباب حتى وقعت عيناها ، على أكثر من وصيفة ، تسير

فى صمت ، مطرقة ، فقد ملا جو القصر انقباض ، تكاد تلمسه الايدى لمسا ..

ماذا هنالك ؟ ..

***

ماذا هنا لك ؟ ..

هذا هو نفس السؤال الذى انطلق على لسان الملك ، وهو يرى رئيس الوزراء متجها نحوه .. فوقف الوزير الخطير ، فى منتصف الحجرة ، وهو ينظر الى سـيده ومولاه ، وقد جلس فى وسط سريره فى ثياب نومه ، وكأنه كومة من اللحم والشـحم يبرز منها بصعوبة ، رأس صغير . وبعد فترة صمت ، نفد معها صبر الملك فصرخ :

ـ قل .. لمـاذا أزعجتمونى ؟ .. أهو خبر من تلك الاخبار التافهة التى شبعت منها ؟ انكم تسألوننى دائما، ماذا اريد .. ولكنكم لاتدعوننى ابدا كما اريد . كل منكم يوهمنى اننى صاحب الامر والنهى ، ولكن عيونكم المسبلة ووجوهكم المقنعة ، تلح على فى صمتها الثقيل بما تريده هى ..

ولكن الملك سكت فجأة ، فقد لاحظ ان وجه الوزير قد اكتسى بجد وصرامة ، ألجما لسانه .. فاقترب من طرف السرير ، ثم دلى ساقيه العاريتين على الارض ، ونظر الى وجه كبير مستشاريه ، وهو بين الخوف والامل، وقال معتذرا :

ـ لا تؤاخذنى .. فقد أخرجنى الغضب عن طورى

واقترب كبير الوزراء من مولاه ، غير ملتفت الى صراخه، ولا الى اعتذاره ، وادنى رأسه ، حتى قارب وجه الملك ، ثم قال فى صوت عميق :

ـ لقد وقع فى أيدينا ؟

وانتفض الملك واقفا ، وبدأ كرشه من وراء قميصه ككرة فى مثل استدارة رأسه :

ـ قبضتم عليه ؟ قل الحق .. !

وفى مثل رصانة وتجهم الصوت الذى افضى بالخبر ، قال الوزير :

ـ هذا هو الحق .. لا زيادة ولا نقصان ..

وارتعشت عضلات وجه الملك لشدة انفعاله ، وحاول الكلام فخانه الصوت واللسان ، فلم يملك الا آن ألصق الوزير بصدره ، تظاهرا للامتنان .. ولكن الوزير ابتعد عن سيده ، فى تؤدة ، فمد هذا يده الى قباء من الحرير دخل فيه بجسمه الضخم وجلس على طرف السرير وهو ينظر الى شفتى الوزير ـ وهو يكاد ينفجر من شدة الفضول الممزوج بالخوف والاشفاق ـ وتكلم الوزير فقال :

ـ لقد نجحت حيلتنا .. فلقد كان من المستحيل ، ان نقضى عليه حيث هو ، فهناك كان اعوانة . كان كل الناس معه .. استطاع ان يسكرهم بخطبه ، وآن يستولى على لبهم ، بشجاعته ومجازفاته ، فأرسلنا اليه من يدعوه الى اقليم « الموالى » . واوهمنــاه آن دعوته بدأت تذيع هناك ، وان انصـــارا ظهروا يؤيدونها .. وتردد قليلا وساوره شك فيما نقول ، فوآلينا ارسال الرسل اليه من كل لون ، وفى كل زى ، مصطنعين كل اسلوب .. وهو كما تعلم عظيم الثقة بالناس ، شديد الاندفاع لكل ما يراه خيرا لدعوته .. فوقع فى ايدينا ، ولـكنه قاوم واستبسل ..

وتوقف الوزير عن حديثه ، حينما رأى وجه الملك ، وقد علته غبرة حزن .. وكأن كل هذه الاخبار لا تسره ،

مع ان هذه الاخبار ذاتها ، كانت إمل آلملك نفســه منذ شهور طويلة ، وقد سهر ـ من اجل تحقيقها ـ الليالى مؤرقا ، خائفا يتحسس عنقه ، ويفكر فى الهرب ، حينا، وفى المسالمة والمصالحة حينا آخر ، وفى الاستعانة بجيرانه حينا ثالثا ، فقد كانت الثورة التى اشـتعلت فى إقليم « السماحة » تتسع وتلتهم فى وجهها حصونه وقلاعه ..

ولكنه كان يفكر الآن فى شىء غير الثورة التى اندلعت ضده ، وفى غير قائدها الذى كان يهدد عرشه .. كان يفكر فى ابنته ..

ووقف كبير الوزراء ، وقد صمت صمتا صوب خلاله نظرة ، اخترقت صدر آلملك وكأنها رصاصة مسمومة

وأدار الملك رأسه بعيدا عن وجه الوزير ، لأنه لم يكن يحتمل نظراته الصاعقة وكاد يقول : دعنى افكر ! .

لولا ان جاءه صوت كبير الوزراء حاسما حازما ، ينقل إلى سمعه

ـ لامكان للتردد .. يعدم رميا بالرصاص قبل ساعة من الآن !

وصرخ الملك ، وكأنه يود أن يتشبث بذيل رداء الوزير كما يتشبث الطفل بثوب أمه !

ـ ساعة !

وقال الوزير فى ثبات يكاد يكون تحديا :

ـ نعم ساعة .. والا

وتداخل الملك فى نفســه ، واتجــه إلى الوزير فى استعطاف :

ـ والا .. ماذا ؟

ووضع الوزير يده فى جيبه ، وهو يقول :

ـ هاك استقالتى ..

ولم يخرج الوزير شيئا من جيبه حينما سحب يده من الجيب ..

واطرق الملك قليلا .. ثم قال فى صـــوت خافت ، ضعيف ، متردد ، كأنما يلفظ انفاسه :

ــ انا اعلم ان رأيك هو الصواب .. أعلم انه لا مفر من ذلك ، ولكن ابنتى ..

واتجه الوزير الى الباب فىخطوات ثابتة ، وكأنما يكرر وقعها على الارض ، أوامره الحاسمة بأن لا تردد ، ولم يكد يصل الى منتصف الحجرة حتى استدار وعاد يواجه الملك ويقول :

ــ انا إعلم ان الخبر بلا شك سيحزنها .. ولكن فى سياسة الدول لا مكان للعواطف ..

ورفع الملك يده امام وجهه ، وكأنما يبعد عنه منظرا لا يطيق النظر اليه قائلا :

ــ ولكنها ابنتى الوحيدة ..

واقترب الملك من الوزير قليلا ثم قال :

ــ لقد أخطأت اختيار مكانها .. كان الواجب أن تكون الى جانب ابيها ، وان يكون قلبها معه .. لا ان تكون مع عدو ابيها ، وقلبها مع الثورة عليه ..

واحنى الملك رأسه وكأنما هو مذنب ، يسمع الحكم الذى يراه هو حقا وعدلا .. وخرج الوزير ، وهو لا يكاد يستطيع اخفاء سعادته ، بأنه ظفر بموافقة الملك ، على انفاذ حكم الموت ، فى « عادل بن كريم » الثـــائر الذى جمع الناس حوله ، مطالبـــا بالعدل ، وبـرأس رئيس الوزراء وتأديب الامراء وردهم عن الظلم ..

وأعلن النبأ فى القصر .. وعرف كبار رجال الدولة، وزعماء العشائر ، وامراء القبائل ، لأى نبأ دعوا ، فذهب

كل منهم الى قصره ، او ضيعته مسرورا ، وآن كان يتوجس خيفة ، مما قد يجره هذا الفوز من ويلات ..

***

وعلمت « فداء » ابنة الملك ووحيدته ، بالنبأ فلم تنطق بحرف واحد .. كأنما الفاجعة قد افقدتهـا القدرة على الحزن ايضا .. فقد احبت « عادل بن كريم » كما لم تحب شيئا ، أو أحدا آخر فى الدنيا .. عرفته وعرفها، وهما صغيران ، فقد كان قريبا فقيرا لأمها ، ولم تـكن أمها أميرة ، وانما كانت من بنـات الشعب ، من عائلة قديمة عرف كثير من افرادها بالعلم ، والفروسية معا .

وكان « عادل بن كريم » جديرا بالحب .. فقد كان وسيما وقورا ، قليل الكلام ، فارسا وشاعرا معا . ولما كبرا وبلغا سن الشباب ، أحبته لصفاته ولشبابه الدافق ، ثم احبته لانه علمها العلم الذى لا سبيل اليه فى الكتب.. لقد علمها كيف تحب الناس ، وكيف تعيش معهم ، ثم فتح عينيها على حقائق ، لم تـكن لتهتدى اليها ، لو تركت بين المربين والمعلمين من أهل القصر ..

لقد كشف لها عن بؤس الشعب وفقره ، عن جوعـه وعريه .. وأراها فوق الظهور آثار السياط ، وأراها فى القرى والكفور الذل والمهانة . وكانت تظن الدنيا كلها تعيش فيما تعيش هى فيه ، وأبوها ، ومن حولهما من النساء والرجال ، فى بحبوحة وسعادة .. وجعلها تعرف الخوف فقد ادركت ـ بفضله ـ ان الخوف فى كل مكان فى مملكة ابيها .. ادركت ان الناس يتكلمون همسا ، وهم يتلفتون ، وعيونهم زائغة وحلوقهم تكاد تجف من فرط الهلع . وعرفت شيئا رهيبا .. عرفت ان كل ما يقال فى القصر ، لها ولأبيها ومن حولهم ، ليس هو ما

يدور فى رءوس الناس . ولا ما يريدون أن يتحدثوا به..
انما هو شيء آخر يقال لهما ، وحدهما .. وجاءت لأبيها
الذى احبته لأنه كان لها الام والاب معا منذ ماتت الملكة
.. واخذت تحدثه - اول الامر - على استحياء وتردد ،
فيما سمعت وفهمت ورأت ، ولم يغضب ابوهـا ، ولم
يمنعها عن هذا الكلام .. ربما لانه يحبها ، وربما لانه كان
يرى مثلما ترى ، ويسمع مثلما تسمع ..

وخيل اليها ان اباها سيغير الامور ، ويصلح الدولة
ويحارب المفسدين والظالمين .. ولكن الكبار ، ادركوا
الخطر الذى يتهددهم فاحاطوا بالملك ، وحاصروه ، واخذوا
يهولون له فى سوء العاقبه ان هو استمع لابنته الطفلة
غير المجربة .. واخذوا يبحثون عن مصـــدر الهامهـا
فأبعدوا عنها الصديقات ، وفرضـــوا عليها الوصيفات ،
وجعلوا يحصون همساتها ويرصدون خطواتها ..

وواصلت من جانبها الالحاح على أبيها أن يصمـــد
ويقاوم ، وهو بين ما تقول هى ، وما يقوله الكبار ذوو
النفوذ ، يتأرجح ويتذبذب ، كالريشة فى مهب الريح..
حتى أدركت ابنته ان الملك ، من النظام الذى يحكم بلدها
ليس الا وجهة وان روح النظام تحكمه هو ، كما تحكم
أصغر صغير فى رعاياه .. فهو عبد مقيد فى ثوب ملك
آمر ، وناه ..

ونفضت الاميرة يدها من المحاولة ، وفى قلبها حـزن
عظيم ، وشعور بالاثم لا سبيل الى اسكاته او تهدئته .
ويئس صديقها وحبيبها « عـادل بن كريم » فذهب الى
اقليمه « السماحة » وأخذ يجمع أمثاله من الساخطين
والثائرين .. فلمـا اطمـأن الى شيء من القوة أعلن
العصيان الذى استحال مع الايام ، الى ثورة .. ثورة
استخفت بها الدولة اول الامر ، ولكن هذه الثورة مضت تتسع

وتنتشر ، وتكسب كل يوم انتصارا جديدا ..
وأفاقت الدولة وأفاق الحكام فى العاصمة ورأوا مدى الخطر الذى يتهددهم ، فجزع الوزراء والكبار ، وتردد بعضهم فى الجهر بعداوته للثوار ، اتقاء لما قد يأتى به المستقبل .. واستعد بعضهم لاستقبال المعسكر الجديد والوقوف الى جانبه
وأسرعت الابنة الى أبيها ، وقد ظنت ان النذر التى تجمعت فى الافق كافية لتعيد اباها الى صوابه .. ولكنه كان أضعف من أن يقاوم ، وأقل ايمانا من أن يجازف
وبعدت « فداء » عن أبيها ، ولم تعد تراه كل يوم .. وكان أبوها يبحث عنها ، ولكنها أصبحت مع الايام صورة ضميره المخنوق فراح يفر من لقائها ، ومع ذلك بقيت اعز الناس اليه ، واحبهم الى قلبه

***

وخجل الملك أن يلقى ابنته ، بعد أن أنفذ حكم الموت فى حبيبها الذى كان يعرف انه سر وجودها ، وانه فقدها الى الابد ..
ومرت الايام والملك لايرى ابنته ، ولا يرى أحدا غيرها .. فقد اختفى فى مخدعه وأمر ألا يقابله انسان
ثم أخذ يسأل عن أخبار « فداء » فعلم أنها صامتة لاتتحدث ، بعيدة عن الناس ، زاهدة فى الطعام .. وخيل اليه أنها تدنو من الموت ، بخطى سريعة .. فجمع أطراف شجاعته وذهب الى حجرتها ، وطرق بابها ، وكان يظن أنها لن تفتح له ، فاذا بالباب يفتح .. وكان يظن انه سيرى نفسه أمام شبح ذابل ، بدل ابنته النضرة .. فراعه أن رآها على نضارتها وان وجهها يفيض هدوءا ودعة .. وان صوتها خلا من كل نبرة من نبرات الحزن والاسى ..

ولو لم يكن يعرفها ، لفرح بهذا الهدوء ، ولزال عنه ارتباكه ، ولـكنه أحس منكلما رأى ، ان ابنته أصبحت بعيدة عنه كل البعد .. وانه لن يصل الى قلبها ، الا اذا كان فى وسعه أن يعيد الى الحياة حبيبها الذى قتله .. كان ذلك مستحيلاً ! أطرق الملك برأسه وصمت وكأنه غاب عن الدنيا ، حتى أفاق على صوت ابنته :

ـ كيف حالك يا أبى ؟

« كيف حالى » ؟ .. تردد السؤال على سمع الملك ، وكأنه لطمة ســاخرة تصفعه .. فرفع وجهه الى ابنته فى توسل وضراعة ، ثم لم تلبث دموعه حتى انهمرت فوق خديه ..

فقالت « فداء » فى صوت وكأنه يأتى من بعيد :

ـ فيم البكاء يا أبت ؟ .. لقد انتهى كل شىء ! ..

فنظر اليها أبوها طويلا ، ثم استطاع أن يقول أخيرا :

ـ هل خرجت من حياتك الى الابد ..

فقالت ابنته فى صوت خلا من المجاملة :

ـ لم تعد لى حياة .. وانى أحمد الله لانى لم أتورط فى سخافة الحزن .. هأنذا كما ترى لا أبكى .. ان الحزن لا يليق بى ، وأظنه لا يليق بك ..

ومد يده نحوها فتركتها حيث وضعها على ذراعها ، وقالت وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة :

ـ لقد فعلنا ذلك بأيدينا ، فلا يجوز لنا أن نبكى .. لقد اختار كل منا لنفسه هـذا المصـير .. فلنتحمل مصيرنا بشجاعة .. سأعيش لنفس الغاية التى مات من أجلها ..

وقام الملك ، وقد ابيضت عينـــاه من الحزن وراح يتخبط ، بحثا عن الطريق .. فقد أدرك أن ابنته نذرت نفسها لعزوبة أبدية ..

ولما وصـــل الى مخدعه ، راح يحطم كل ما أمامه ، ويصرخ صرخات الم مدوية ، ثم ارغى فمه وازبد ، حتى سقط مغشيا عليه .. ولما أفاق ، أذاع فى طول المملكة وعرضها ، انه أصدر أمرا بأنه محرم على فتيات مملكته أن يتزوجن ، ما دامت ابنته مضربة عن الزواج ..

***

وهلعت الفتيات والامهات ، وهلع الشبان والمحبون، من قرار الملك ، وأيقنوا انه فقد عقله ، عندما فقـــد ابنته .. ولـكنهم لم يدروا ماذا يفعلون .. فقد كانوا يعلمون أن الملك من ضيق العقل ، بحيث لا يمكن أن يعدل عن عناده ، اما الثورة ضدة فأمر مســتحيل ، بعد ان قمع قواده ثورة عادل فى اقليم السماحة ، فقد جردوا البلاد من السلاح ، ونفوا كل من يشتبه فى ولائه ، بعد أن شنقوا من شنقوا ، وبعد أن ملأوا السجون بضحايا لا حصر لها ولا عدد ، زجتهم الى غياهبهـا الوشـايات والاكاذيب والاحقاد ..

ولـكن بقيت الاميرة « فداء » تضيء فى وسط هـذه الظلمات الـكثيفة ، ومن اليوم التالى تجمعت أمام ساحة القصر ، آلاف من الفتيات والامهات يهتفن ، ويستغثن ويطلبن من الاميرة ، أن تطلق سراح سعادتهن الحبيسة

ووقعت الاميرة فى أكبر حرج عرفته فى حياتها ، فلقد كان قلبها مع الشعب ، وقد زادت تعلقا به ، بعد أن مات « عادل » فى سبيله .. ولـكنها لن تستطيع أن تعـد هذه الجموع ، المتوسلة المؤمنة بالعدول عن العزوبة.. ولم يكن فى وسعها أن تقنع أباها ، فقـد جن جنونه ، وأصبح لا ينتهى من حماقة باطشة ، الا ليقع فى حمـاقة أكبر منها .. وعلى الرغم من هذه الورطة المحيرة ، فان الاميرة ، كانت سعيدة ، لانها احست فى اتجاه الجموع

اليها ، بالامل فيها .. فاعتزمت أن تخرج الى شرفتها ، لتخاطب الوفود ، بوحي اللحظة ، بلا تفكير سابق ، ولا تحضير ولا تدبير ..

وتعالت الصيحات ، صيحات الامل ، ولمع فى العيون بريق الرجاء .. ثم رفعت الاميرة يدها ، فشمل المكان سكون كأن كل من كان فيه قد تبخر .. ثم تكلمت ، فقالت :

ـ انتن اخواتى ، واعرف الناس بقلب المرأة المحبة التى فقدت حبيبها .. أفى وسع المرأة التى طعنت فى حبها ان تبدد حبيبا مكان حبيب ..

فصرخن من الاعماق :

ـ أبدا .. !

فقالت :

ـ اذن ، لابد من الصبر .. لست أحب أن أكذب عليكن .. انتظرن فقد يأتى الفرج على غير الصورة التى تنتظرنها .. ان مشكلتى مشكلتكن .. فنحن معا ..

وامتلأ البهو بصيحات رقيقة ، صيحات الامل والسعادة ..

واتحدت « فدآء » مع نساء شعبها ، فأصبحن جميعا شيئا واحدا .. ولم تعد بعد اليوم وحدها ، فلم يكن فى وسعها أن تحتفظ بعزلتها ، فقد قصدتها جموع النساء من كل طبقة ، ومن كل ركن فى الدولة .. فلم يخل جناحها من زائرات ووفود ، وطالبات عون ، وصاحبات رأى .. وفى هذا الجو الحار ، تنفست «فداء» فاندمل جرح قلبها ، وانطلقت فى الحياة ومع الحياة ..

وفى ذات يوم زار قصر الاميرة ، طائفة من بنات النبلاء ، ومعهن شاب وسيم صغير ، يلبس ثوب الفرسان .. فسألت الاميرة :

ـ ومن يكون الشاب ؟ وما سر حضوره مع الفتيات؟
فضحكت الفتيات وقلن لها ، انه فتاة مثلهن ، ولكن لها قصة .. وسألته عن قصتها ، فروين لها أن للفتاة ، أخا توأما ، ولدا نسخة من كتاب واحد .. وقد رزق بهما أبواهما ـ بعد سنين طويلة من انتظار الاولاد ـ وقد فرح بهما الوالدان وقررا أن يلبسا معا ثياب الذكور.. فنشأت على مثل ما ينشأ عليه الشبان ، تعلمت الفروسية ، والصيد ، ولبست ثياب الرجال ، فأصبحت لها عاداتهم ، وأسلوب معيشتهم .. وطابت هذه القصة « لفداء » فقربت الفتاة منها ، ومع الايام نبتت بينهما صداقة ، فلم تعودا تفترقان الا قليلا ..

وقد زادت هذه الصداقة من سعادة « فداء » حتى أصبح حزنها القديم ، ذكرى تدفعها الى مزيد من حب الفارس ، ولا تدعوها الى الاستسلام للحزن ..

أما صديقة الاميرة ، فقد أحبت « فداء » وتعلقت بها ، الى حد الجنون ، ولما رأتها سعيدة ، ودت أن تكمل هذه السعادة .. قفزت الى رأسها فكرة ، كما تقفز العصفورة الصغيرة النشيطة من غصن الى غصن ، قالت الفتاة لنفسها :

ـ ماذا لو تخليت عن مكانى لاخى.. اننا نحن الاثنين شيء واحد ، ومع فارق واحد انه يستطيع أن يكملها ، وأن يخرجها من هذه العزوبة التى طالت ، وثقلت على الفتيات والفتيان بينما اعجز عن ذلك ..

وفى الحال جرت الفتاة الى أخيها وأفضت اليه برغبتها

وهال الشاب أن يقدم على هذا الاحتيال ، ونهى أخته عن التفكير فى هذه الحيلة ، ولكنها لم تدعه لنفسه ، فقد ألحت عليه فى الصباح والمساء ، واستعانت بحبه لها وعرضت الاقتراح ، بأكثر من أسلوب ، حتى بدأت الفكرة

تغريه .. انها مجازفة طريفة مغرية ، وهى بعد مجازفة خيرة ، لا شر منها ، ثم هى خدمة تقدم لفتيات الشعب كله وفتيانه ..

ولما انتهى الشاب من مرحلة التأمل فى الفكرة ، وبدأت مرحلة التفكير فى تنفيذها ، أحس بأن شجاعته أخذت تخونه.. وأخذ يتصور المآزق التى سيقع فيها ، ومقدار ما يحتاج اليه من ضبط نفس ، وسرعة خاطر ، وحضور بديهة ليخرج منها ، وتساءل :

ــ هل عنده شيء من هذا كله ؟

ولم تدعه أخته لكل الهواجس ، وأمرته أن يكون غدا فى القصر ، مع الاميرة ، وأن يرافقها ، كما كانت تفعل.. وبدأت تلقى عليه فى الحال دروسا فى أخلاق الاميرة ، وخصائص مزاجها ، وأخذ الفارس يسمع هذه الدروس وهو ذاهل عن الدنيا ، لا يكاد يسمع مما يقال له الا اقل القليل ..

وذهب الفارس فى الصباح الى مقر الاميرة .. وعند الظهيرة كانت أخته فى حجرتها تنتظره تكاد لا يستقر لها قرار ، تقضم أظافرها ، وتجلس ، ثم تقوم ، ثم تنظر من النافذة ، ثم تخرج الى الشرفة ، وتدور حول نفسها . وعاد الفارس ، وأسرعت أخته اليه ، تقفز درجات السلم اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا .. وألقت بنفسها حول عنقه ، وهى تصرخ :

ــ ماذا حدث ؟

وحملها الفارس وأخذها بين ذراعيه وارتقى بها درجات السلم ، وهو يمطرها بقبلاته ، فلما وصل الى حجرتها مد أصبعه نحو وجهها وقال ، فى صوت المهدد المتوعد :

ــ ماذا أفعل بك .. هل أخنقك أم أو ..

وصرخت أخته :

ـ لا تعذبنى .. قل ماذا حدث .. ثم افعل بى مابدا لك .. اقتلنى أو اذبحنى .. اقذف بى من هذه النافذة .. ولكن اخبرنى .. كيف رأيتها ؟ كيف سارت الامور ؟ كيف .. كيف ..

وانفجر الفارس ضاحكا :

ـ كفى .. كفى .. لقد أصبحت أخاف الآن .. ان تتوقف هذه المحاولة .. انها أجمل وأبهى وأعذب امرأة فى الوجود .. ان صوتها أحلى من الغناء .. ان ما تفكر فيه ، وما تقوله وما تعمله ، شيء فوق طاقة الالفاظ وصفه ..

وقفزت الفتاة مرة أخرى الى عنق أخيها ، فتعلقت به ، واخذت تقبله ، وهى تصرخ صرخات الفرح والسرور ثم سألته : « وموعدكما غدا ؟ » فأنزلها الى الارض وأجلسها على مقعد ، ثم راح يذرع الحجرة جيئة وذهابا وطرقا ثم قال :

ـ اسمعى يا أختى .. اسمعينى بلا مقاطعة ولا احتجاج ، ولا صراخ صبيانى .. هذه هى أول وآخر مرة لى ..

وصاحت الفتاة فى فزع حقيقى :

ـ ماذا تقول .. آخر مرة ! ..

فقال لها فى هدوء :

ـ لست كارها لهذه المحاولة .. ولكنى خجل من نفسى .. اننى أحببت الاميرة .. أحببتها ، ويزداد حبى لها .. ولذلك ليس فى وسعى أن أستمر فى الكذب عليها .. ان مجرد اقترابها منى ، أن لمسها ليدى ، يهزنى من الرأس الى القدم

وفى اليوم الثانى ، أخذت الفتاة تراقب أخاها الفارس

فرأت ـ وهى تكاد تطير من السعادة ـ انه يلبس أحسن ثيابه ، وانه يطيل الوقوف أمام المرآة .. فلمـــا هم بالخروج ، انفجرت ضاحكة فلما سألها ـ غاضبا ـ لماذا تضحك .. أجابته بقفزة من قفزاتها المعهودة الى عنقه ، وهى تقول :

ـ لانى أعلم انك ذاهب الى الاميرة ..

ومرت الايام ، والاميرة والفارس يتقابلان كما كانت تتقابل مع أخته ، وهو يزداد حبا لها ، وخوفا من أن يفقد هذا الحب لو كشفت لنفسها الحقيقة ، وفى بعض الاحيان ، كان يمنى نفسه ، بأن تكون قد عرفت حقيقته ، وانها تخفى ما عرفت

ثم بدا على الاميرة ـ بعد ذلك ـ شىء من الحيرة ، كأنما كانت تسائل نفسها عن أمر .. وفى أصيل أحـد الايام كانت الاميرة والفارس ، يسيران منفردين فى احدى طرقات حديقة القصر الفسيحة ، وكانت طريقا تحفه الزهور من جانبيه ، وتظلله أشجار منسقة .. وكأنهـا تود أن تخفيه عن العيون ، فوقفت الاميرة فجأة وقالت :

ـ « اسمعى ! » وبهت الفارس ، وخشى أن يسمع حكما يحطم سعادته ، ويحيله أنقاضا ، فقال وقد اصفر وجهه :

ـ « نعم ! »

فقالت الاميرة وهى تسير مطرقة فى خطى بطيئة مترددة كأنها تتحسس طريقها :

ـ انى أسائل نفسى كثيرا .. هل طرأ عليك تغيير!.. انك أنت ولست أنت .. هل حدث منى ما أبعدك عنى .. اننى فى بعض الاحيان أتحاشى الانفراد بك ، لانى لا أحس أنك انت كما كنت .. أيكون صحيحا ما أقرؤه فى شعر الشعراء وقصص القصاصين ، من ان كل عاطفـة

ان لم تجد ما يغذيها ، خمدت ..
ووقفت الاميرة ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع واستحالت الى تمثال من الاسى :
ــ أنت تعرفين اننى وحيدة .. وحيدة وسط كل هذه الضوضاء ..
وبدل أن تكمل حديثها ، جرت الى داخل القصر .. والفارس فى مكانه ، وكأن قدميه قد سمرتا فى الارض ، ولم ير أن يلحق بها .. فقد حانت الساعة التى يجب أن يواجه معها الحقيقة .. فأخذ يجر رجليه جرا الى خارج القصر

***

ولما خرج الى الساحة المواجهة للقصر .. هاله انه رأى جموعا ضخمة ، تتدفق اليها .. جموعا هائلة يترامى صوتها الى أذنيه ، فسمع غضبا ينذر بشر مستطير ، وامتلأ الميدان شيئا فشيئا بالجماهير الزاحفة ففكر فى الحال فى الاميرة ، وأشفق أن يصيبها من هذه الجموع سوء ، فاندفع الى جناحها ، مقتحما الابواب دافعا أمامه كل من رآه .. حتى وجد الاميرة فىحجرتها ، لا يبدو عليها شىء من الاضطراب ، فاتجه نحوها وهو يلهث ، وقال :
ــ ماذا تنتظرين هنا ؟.. أتنتظرينأن يقتحموا القصر عليك .. وأن تمتد أيديهم بالسوء اليك ..
ومد يده يود أن ينتزعها من مكانها وهو يقول :
ــ تعالى معى .. من الابواب الخلفية يمكن أن ننجو
وابتسمت الاميرة ابتسامة هادئة ، وهى تقول :
ــ رويدك ايها الفارس ! لقد كشفت نفسك من فرط اضطرابك .. لم اكن انتظر أن يأتينى الرد على سؤالى هكذا سريعا ..

وعاد الفارس الى صوابه ، ولكنه رأى فى الوقت نفسه ، عبر شرفة حجرة الاميرة ، الجموع ، وقد كادت تحدق بالقصر ، وتبين من موضعه هذا ، أعلاما عالية ترفرف ، كما تبين من الهتافات الهادرة ، الهتاف بسقوط الملك ، ورئيس وزرائه ، وأعداء الوطن .. فامتقع وجهه لحظة ، ثم عاد الى الاميرة فأحاطها بذراعه ، وأخذ يدفعها دفعا ، ولكنها استطاعت أن تتخلص منه ، وأن تقف بعيدا عنه ، وقد أحاطت بها وصيفاتها ، وصديقاتها .. كما أسرع الى جناحها عدد من الرجال فى مقدمتهم رجال الحرس ، الذين كانوا يحملون فى أيديهم سيوفا مشهرة ..

اكتسى وجه الاميرة بجد صارم ، ورفعت رأسها فى ترفع لم يرها عليه الفارس من قبل ، ثم وجهت الحديث فى صوت آمر وقالت :

ـ اياك أن تمد يدك نحوى .. اننى لا أخاف هذه الجموع .. ليس عندى ما يخيفنى منها .. قد تخافونها أنتم .. أما أنا فلا .. أنا منها !

وساد صوتها المكان ، فأذعن كل من فيه ، وكأن كل هذه الجموع ، بكل ما يحويه زحفها من خطر ، قد زالت من الوجود ، ولم يعد باقيا ، فى هذه اللحظة ، الا «فداء» بكل شجاعتها وثباتها . وانتقلت هذه الشجاعة بطريق العدوى الى جميع الحاضرين بما فيهم الفارس.. فذهب عنهم ما كان قد تولاهم من جزع ، ولما أمرتهم أن يفتحوا باب الشرفة ، أسرعوا الى تلبية أمرها ، ثم تقدمتهم الى الشرفة ، ولوحت بمنديل صغير فى يدها ، للجموع التى اختنق بها الميدان ، حتى فاض بمن فيه ، فتعلق الكثيرون بأغصان الاشجار وأسوار القصر وفوق أسطح المنازل المواجهة والمجاورة .. أما ضجيجه فقد كان أعلى من

أمواج البحر ، فلما رأت الجموع الاميرة ثم رأت تلويحها بمنديلها ، الذى أصبح عند الشعب بمثابة علم الثورة انطلقت من الحناجر ، صيحات أعنف دويا ، من طلقات المدافع ، اهتزت لها أركان القصر ، ولكنها لم تلبث حتى خفتت ، وساد المكان من جديد صمت عميق رهيب رن فيه صوت « فداء » وهى تقول :

ـ ليحى الشعب !

وردد الشعب وراءها الهتاف .. ولم يكن الموقف ليتسع لاكثر من ذلك ، فقد تدفقت الجموع الى أبواب القصر فاكتسحتها ، والى حراس الملك فأزالتهم.. ولكن مدفعا من داخل القصر انطلق فتراجع الزاحفون لبعض الوقت ، ولكنهم لم يلبثوا حتى رأوا اخوانا لهم سقطوا قتلى وجرحى ، فهاج هائجهم ، وزأروا زئيرا مخيفا ، واندفعوا كالامواج المتلاطمة ..

أما « فداء » فقد أسرعت ، وخلفها صديقاتها .. ومن خلف الجميع الفارس الذى خطف من أحد الحراس سيفا ، واتجهوا جميعا الى مقر قائد الحرس ، وفى عزمها أن تأمره أن يكف عن اطلاق مدافع ، وقبل أن تخطو خطوتين ، رأت نفسها وسط جماعة من الثائرين ، لم يتبينوا شخصيتها وظنوا أنها احدى سيدات القصر ، فانهلن عليه ضربا ، وركلا ، والفارس يقاتل بسيفه عبثا

***

وبعد ساعات طويلة ، أفاقت « فداء » فرأت نفسها فى غير حجرتها ، ورأت الفارس فى حديثه ، غير ملتفت الى يده التى شدت الى عنقه برباط ، والى جانبه أخته ، وقد خلعت عنها ثياب الرجال .. وسألت الاميرة :

ـ ماذا حدث ؟ .. وأين أبى ؟ ..

ولم تكد تسمع الرد ، حتى هبت واقفة فقد رد عليها الفارس بقوله :
ـ لقد نادى بك الشعب ملكة !
وصاحت الاميرة :
ـ وأبى ؟
فأطرق الفارس ، ثم قال :
ـ لقد أنفذ الشعب حكمه فيه ..
وصرخت :
ـ ماذا تقول ؟
واسترسل الفارس فى حديثه ، غير ملتفت الى صراخها :
ـ وقد أهدى اليك الشعب تعبيرا عن عزائه لك .. هذا الثوب
وعقدت « فداء » ما بين حاجبيها ، وهى تنظر الى الثوب ، فقد كان الثوب ، ثوب « عادل بن كريم » الذى صعد به الى المشنقة .. ومدت يدها نحوه ، ثم ضمته الى صدرها ، وانحدرت الدموع من عينيها فقال لها الفارس :
ـ ان الشعب يريد أن يراك فى هذا الثوب ..
ففصت بدموعها ، ثم قالت :
ـ خير للشعب أن تحكمه ثائرة فى ثوب ملكة من أن تحكمه ملكة فى ثوب ثائر
واقتربت أخت الفارس منها قائلة :
ـ الا تعلنى للشعب بشرى ! ؟
فأومأت « فداء » برأسها قائلة :
ـ اعلنوا لبنات الشعب انهن قادرات منذ الآن على أن يتزوجن متى شئن ، وممن شئن ..

فقال لها الفارس :

ـ والملـكة نفسها ؟ ..

فأشرقت فى عينيها ابتسامة ، وقد عادت تضم الثوب الى صدرها وهى تقول :

ـ لقد تزوجت منذ سنين .. تزوجت .. واليوم فقط أعلن زواجى !

ويقول بعض الذين ينبشون فى أوراق التاريخ الذابلة ان لهذه الاسـطورة أصـلا ، أما أنا فلا أعرف نصيب ما يقولون من الصدق ..



في الطفولة



لا أستطيع أن أؤكد لك ان هذه الصور التى سأرويها هى صور من طفولتى ، أو صور لطفولتى ، ولا أستطيع فى الوقت نفسه أن انفى ان هذه السطور ، تعكس جانبا من حياتى فى أوائل مطالعها ..

ذلك لان طفولة كل منا ، هى أشبه الاشياء بالاحلام .. وأنت حين تستيقظ تمسح بيدك فوق جبهتك ، ثم فوق وجهك كله ، ثم تشرد قليلا وتحدق فى لا شىء ، ثم تهز رأسك وكأنك تقول لنفسك :

ــ لست أدرى ؟ ..

وأنت تفعل هذا كله ، لان حلما من الاحلام ، يحاول أن يفر من ذاكرتك ، فهو يبدو لك قريبا غاية القرب ، حتى كأنك ستمسكه بيدك .. ثم يختفى فى الحال ، كأنه لم يلح لك ، ولم يقترب منك ، ولم يدر لك على بال .. وقبل أن يختفى ، يظهر على لوحة العقل مبعثرا ، أشبه شىء بقطعة من الخزف سقطت الى الارض ، فتفتتت أجزاء وأشلاء ..

فأنت ترى منها هذه الاشياء المتناثرة التى لا تدل حتى على الاصل الذى كانته منذ حين ، فتعجز عن تبين ما اذا كانت اناء ، او طبقا ، او تمثالا لرجل ، او تمثالا لامرأة ..

ومع ذلك فان بعض الاحلام تبقى فى ذاكرتنا واضحة متصلة بعضها ببعض اتصالا معقولا ، وفى هذه الحالة تربكنا وتوقعنا فى حيرة شديدة .. فانها لفرط وضوحها تختلط بحياتنا الحقيقية ، وتتداخل فيما وقع لنا من أحداث وأمور ، حتى يصبح من العسير علينا أن نفرق

بين ما هو حقيقة ، وبين ما هو حلم ..
وهذا كله ، يجرى على ذكريات طفولتنا ..
فمن صور الطفولة ، ما يبدو لنا محوطا بسحاب كثيف ، وما يطل علينا من خلال ضباب حالك ، ومنها ما يبدو لنا كتمثال فينوس ، جميلا غاية الجمال ، ولكنه ناقص .. قد يعوزه الرأس ، أو الذراع أو الذراعان ، أو الساق أو الساقان .. وقد نستعيد بعض الذكريات ونحسب انها صور حياتنا التي عشناها ، ونحن لاندرى انها صور حياة نتمنى فى أعماق قلوبنا أن نعيشها ، ولكننا لم نظفر أبدا بتحقق هذه الامنية .. فتحايل عقلنا الواعى ، مع عقلنا الساهى ، وتآمرا على التاريخ ، فخلطا ما وقع فعلا ، بما تمنينا أن يقع ، وقدما لنا تاريخا مشوها لطفولتنا ، ولكنه أشهى مذاقا ، واجمل طعما من التاريخ الصحيح ..
وفى ذكريات طفولتنا شىء يلفت النظر ويثير الدهشة .. فأنت تذكر أشياء فى طفولتك ، موغلة فى القدم ، أشياء وقعت لك وأنت فى السنين الاولى من حياتك ، مع أن مابعدها ، وهو أحق بالتذكر ، غائب تماما عن ذاكرتك ، دون سبب مفهوم ، ولا مبرر معقول ، الا ان يكون عقلنا رحيما بنا ، ينسينا أمورا لو بقينا نذكرها لاصبحت الحياة عبئا ثقيلا .. ويذكرنا بأمور تافهة ، ليحجب بها عنا أمورا ينقصنا أن تبقى عالقة بالذاكرة .
فأنا اذ أحاول أن أقدم صورا من طفولتى ، أرانى أقدم صورا لطفولة كثيرين غيرى ، تتداخل على الرغم منى ، بعضها فى بعض، ويتم هذا التداخل تارة بعلمى وموافقتى، ويتم تارة أخرى وأنا لا اشعر ولا أدرى .. كما يحدث التداخل بين أحلام اليقظة وأحلام النوم ، فانها تتعاون سويا لتخلق للاحياء عالما يحبون أن يعيشوا فيه ، أو

يستطيعون على الاقل أن يحتملوه ، بدلا من عالم الحقيقة الذى يطارد الامل ، ويسد فى الوجه منافذ الهرب ..

ولست أستطيع أن أدعى اننى أجد فى كتابة هـــذه السطور ، وفى تسجيل هذه الصور ، عناء .. فما من مرة حاولت أن أؤرخ لطفولتى حتى قفزت على السطح ، ثلاث صور لست أدرى لماذا تريد وحدها دون غيرها ، أن تقدم نفسها لقلمى .. وهأنذا أمد يدى لاضعها على سطح هـــذه الصور ، بلا تكلف .. نعم بلا تكلف .. فالحديث عن الذكريات ، وذكريات الطفولة خصـــوصا ، يجب أن يأتى عفويا ، لا نتأنق فيه ، ولا نرتبه ، ولا نحاول أن نسلط عليه حكم العقل .. والا ضاعت من هـــذه الذكريات نكهتها ورائحتها ، أو بساطتهـــا ، وشبهها بالاحلام ، وخروجها من المختزن المدخر فى العقل الماكر المدبر ، الذى يسمونه ظلما وعدوانا بالعقـــل الباطن ، والذى أسميه أنا العقل الساهى ، عملا بالمأثور من أقوال عامتنا :

ــ ان تحت الساهى الدواهى .. !

***

جدتى فى النافذة الجانبية لحجرة من منزل شـــيد حديثا .. فاستأجره خالى ، ليبدأ فيه حياته الزوجية .. فهو بيت جديد ، يستقبل حياة جديدة ، ومع ذلك كان أهم من فيه ، انسان قديم جدا ، هو جدتى ..

وكانت جدتى قد نيفت على الستين ، ومع ذلك كانت بالنسبة لى ولاخواتى مخلوقا قريبا منا ، شبيها بنـــا ، نلعب معه ، ويلعب معنا ، ولا نخجل منه ، ولا نخافه ، ولا نجد صعوبة فى التحدث اليه ، ولا فى الاستماع الى كلامه . كان كلُّ من فى المنزل كبيرا بالنسبـــة لنـــا ..

المقاعد عالية ، والمعالق كبيرة ، والاحـاديث التى تدور صعبة ، ومداعبة الـكبار لنا شيء من قبيل جبر الخاطر، والاهتمام بنا ، عملية ارضاء ضمير، أو للقيام بواجب..

أما نحن عند جدتى ، فشيء أصيل ، فجدتى موهوبة منحها الله معرفة لغة الحيوان ، ولغـة الاطفال ، ولغـة الجماد أيضا ، فهى تكلم القط (أصلان) كلاما طويلا ، ينصت له القط ويستمتع به ، وينصـت له الحمـام ، ويفرح فيطـير هنا وهنـاك ويرفرف بأجنحته ، ويعلو ويهبـــط .. تنصت له كذلك كل ادوات المنزل التى تستعملها جدتى من سجادة صلاة ، وسبحة ، وحزام للوسط ، تصنعه من ربطات الرقبة الحريرية ..

فنحن اذا تكلمنا مع جدتى، نترك أنفسنا على سجيتها .. نقول الـكلام ، ونحن نعدو ، ونحن نقضم لقمة من رغيف ، أو نحن نتلقى صفعة على الوجه من الوالدة ، أو ركلة من الاخت الـكبرى .. فجدتى منا ، جزء من نفوسنا ، والانسـان لا يكف عن الحديث مع نفسه ، فى الشدة والرخاء ، وفى الحركة والسكون ، وفى العزلة ومع الجماعة ، بل لا يكف عن الحديث مع نفسه ، وهو يحدث الناس ..

وعلى الرغم من أن جدتى كانت فى حيـــاتى شخصا هاما ، الا اننى عجزت عن ان اعثر لها فى ذكرياتى عن ذكرى أبعد من ذكرى ذلك اليوم الذى رأيتها فيه مطلة من نافذة جانبية فى حجرة بالدور الاول من المنزل الذى كان خالى يستأجره ، والذى كان مكونا من ثلاثة أدوار كاملة ..

ولا تزال صورتها فى ذلك اليوم حيـة نابضـة كأنما أراها ، وأنا أكتب هذه السطور .. ها هى ذى أمامى

بحاجبيها الغزيرين وعينيهـا السوداوين ووجهها الذى كنت أحبه أيام طفولتي وصباى ، والذى لا أستطيع أن أصفه لك اليوم لانى ألفت فى طفولتى أن أحبه دون أن أبحث عن سر حبى له ، ودون أن أعرف ما نصيبه من الجمال أو الدمامة ، بل دون أن أتأمل قسماته وتقاطيعه

انها تنظر من النافذة فلا يبدو على وجهها انفعال ، ثم لا تلبث حتى تجزع جزعا شـــديدا ، فتشير بيديها اشارات متلاحقة ، تنطوى على العتاب والتأنيب والرجاء والتوسل .. فلما لم تنفعها اشاراتها ولا توسـلاتها ، رفعت عينيها الواسـعتين السوداوين ، الى السـماء ، فارتفعت أهدابها الطويلة الفاحمـــة ، وكأنما هى أيد مرفوعة كذلك الى السماء ، متوسلة مستعطفه ، وقـد كنت أنا المسئول عما انتابها فى ذلك اليوم من جزع ، وعما غرقت فيه من توسل وابتهال . فقد عقدت مع نفر من زملائى وابناء حارتى ممن كانوا فى مثل سنى ، مع عدد ممن كانوا يكبروننا حلبة للملاكمة . وقدطاب لنا ان تكون هذه الحلبة تحت نوافذ المنزل الذى كان يسكنه خالى ، ولم يكن فى هذه الحلبة شىء مما يوجد فى حلبات الملاكمة الجدية .. فلم يكن لدينا مثلا ما نعد به منصة خشبية عالية ، ولا أن نشترى حبالا تحيط الحلبة ، ولـكن كان لدينا زوج واحد من قفازات جلدية سميكة لا أدرى حتى الآن كيف أحضرها لنا الزميل الذى ألهمنا بهديته هذه فكرة انشاء حلبة ملاكمة ، ثم فكرة تحويلنا الى ملاكمين

فقد كنا قبل دخول هذه القفازات محيط حيـاتنا نلعب الـكرة ، ونلعب « البلى » ، ونلعب ألعابا أخرى كثيرة ، وكنا فوق ذلك نتصارع ونتضارب ويؤذى بعضنا بعضا ايذاء شديدا ، ولـكنا لم نعرف هـذه الملاكمة ، بقفازاتها الغليظة ..

ولـكن هذه القفازات كانت كافية لان توحي لنا بأن نتعلم هذه الملاكمة ، وبان نتدرب عليها في الشـوارع والازقة ، ومن حولنا أطفال أصغر منا سنا ، وأرق منا حالا ينظرون الينا ، بأفواه فاغرة ، وعيون مشدوهة ، وكأننا نحن مخلوقات تنتسب الى عالم مسحور ..

وكانت جدتي تسمع عن هذه الملاكمة مني ، فلا توافق على اشتراكي فيهـا ، ولا تعارض لإنها لم تستطع أن تتصور ماذا تكون ، حتى كان ذلك الاصيل ، الذي فتحت فيه النافذة وأطلت ، فرأت هذا الذي قذف الى قلبها ، خوفا شديدا .. فقد رأتني أحمل شيئا في احدى يدي لم تعرف له شكلا ، وبالتالي لم تعرف له أسماء ، شيئا مكورا ، أشبه بالـكرة لـكنه ليس كرة ، ثم رأتني اقفز في الهواء قفزات قصيرة لسبب غير مفهوم ، وفي الحـال ظهر في المـكان صبي أكبر مني سنا ، وأطول مني عودا ، وأقوى مني جسما .. وكان يحمل في احدى يديه كرة كهذه الـكرة التي كنت أحملها في يدي ، ثم وقف مني موقفا قريبا .. فقد مد يديه أمام وجهه ، وفي احداهما هذه الـكرة الغريبة ، ثم لم ألبث أنا حتى فعلت مثله ، ورحت اقفز ثم بدأ هذا الصبي يقفز مثلي .. لماذا هذا القفز ؟ لم تستطع جدتي أن تفهم ، ولـكنها نسيت كل شيء حينما رأت هذا الصبي القوي الطويل يقترب مني في خطى ثابتة ، ثم يكيل لي الضربات بهذه الكرة الغريبة فوق وجهي وأنا أهتز لهذه الضربات اهتزازا عنيفا .. أكاد أقع ولـكن لا أقع فعلا .. ويكاد هذا المقاتل يقتلعني اقتلاعا ، ولـكن لا يفعل .. وأنا أبعد عنه ، ثم أقترب منه ، ممنيا النفس أن أوجه اليه ضربة ، لقاء هـذه الضربات العنيفة المتوالية التي تنهال على وجهي وصدري وتنهمر انهمارا ..

وقد كان ممكنا أن يطول هذا الموقف ويثقل على جدتى وأعصابها لولا أنه انتهى لسبب أضحك الاطفال الذين تحلقوا حولنا ، ولكن جدتى لم تلحظه ، ولو لحظته لما أضحكها ، لانها لم تكن تفهم من هذا الذى كان يجرى أمام عينيها شيئا ..

انتهى هذا المشهد العنيف ، لان الصبى الذى كان يقاتلنى ، لم يحكم رباط القفاز على يده فقد كان يتعجل القتال معى ، فلما توالى ضربه لى ، انحل الرباط وطار القفاز فى الهواء ، وانفجر الاطفال فى الضحك .. وأسرع واحد منهم ، فركل القفاز بقدمه ، وتنافس بقية الاطفال فى ركله كالكرة ، وجروا خلفه ، وانفض المتفرجون على الملاكمة ، وقفازى فى يدى لا أدرى ماذا أفعل به ، بل ماذا أفعل بنفسى .. فانالملاكمة انتهت الى غيرنتيجة . لم أغلب زميلى ، ولم يغلبنى هو ، وان كنت بدات أحس بآلام فى صدرى ، وتحت فكى ، وفى جوانب أخرى من جسمى .. ولكن هذه النهاية المبتسرة السابقة لاوانها كانت آشد على نفسى من وقع هذه الضربات .. أين أذهب ؟ وهل سيبقى القفاز فى يدى الى الابد ؟ أم أخلعه .. فاذا كان خلعه محتوما ، فهل أخلعه أمام الاطفال ، أم أذهب الى بيت خالى وأحل رباطه حيث لا يقع على نظر انسان ولا يعرف مكانى احد !

هذه الحيرة بكل آلامها ، لا تزال حية فى نفسى حتى اليوم ، وان كنت لا أدرى الآن سببها ، ولا شدة لذعها لنفس طفل صغير جدا . وفى تلك اللحظة رفعت عينى عفوا الى النافذة فرأيت جدتى .. رأيتها تشير الى بيديها اشارات معناها « لماذا تفعل هذا ؟ أليس هذا كافيا ؟ حسبك ، واصعد ؟ .. »

وأحسست بالدم يغلى فى رأسى ، وأحسست بوجنتى تشتعلان اشتعالا ، فان جدتى رأتنى وأنا أضرب،بعبارة أرق رأتنى وأنا فى حلبة الملاكمة ، وليس فى هذا من بأس ولكنها لم ترنى أنا وحسب ، بل تدخلت ـ وان كانت بعيدة عنا ـ تدخلت أمام بقية الاطفال فى هذه الملاكمة ، باشارات يديها ، ونظرات عينيها وابتهالاتها الى الله ، ونظرها الى السماء .. فيا للعار !

نعم انه العار كله أن تبدى سيدة من أهل بيتى جزعها على ، هكذا علمنا .. والعار كله ان تقحم سيدة نفسها ، ولو بالاشارات والنظرات الى السماء ، فى عمل من أعمال الرجال ..

وأحسست بكرامة جريحة تنزف دما ، فتضاعف شعورى بالالم من الضربات التى كالها لى صديقى ومنازلى ، بل احسست بآلام فى مواضع جديدة لم يطلها القفاز ، ونظرات الى يدى والقفاز يقيدها ، فشعرت أن العار الذى لحق بى ، قد تجمد فى هذا القفاز الذى أنظر اليه وأنا لا أدرى كيف أحله ، مع أن حله ليس بالشىء الصعب ، خصوصا اذا قورن بربطه واحكام قيده على معصمى . ونظرت الى الحارة التى كنا نتبارى على رقعة مربعة منها ، حددناها بخطوط رسمناها بالطباشير الابيض ، فاذا هى خلت من كل الاطفال والصبيان جميعا . وقد كانت مثل هذه الوحدة جديرة بأن تخفف عن نفسى شعورها بالالم ، ولكنها على النقيض، زادتنى احساسا بأنى متروك، وانى وحدى لاأجد من يؤنسنى .. وترددت فى حل رباط القفاز ، كأنما استعذب الالم الذى يسببه لى ، فقد كان بودى أن أعاقب نفسى على الخطأ الذى وقع من جدتى ، ولمعت فى رأسى فى هذه اللحظة فكرة فكانت بمثابة الشرارة التى تضىء فى الظلام .. « لماذا لا أصعد

الى السطح ، وفى جانب منه ، الى جوار حظيرة الدجاج ، وأبراج الحمام ، سأنزوى فى ركن ، والظلام بدأ يرخى سدوله ، وسيبحث الكل عنى ، وفى مقدمتهم جميعا جدتى فلن يجدوا لى مكانا .. وستتصور جدتى انى أتألم ، بل قد تتخيل انى مت .. واسترحت كثيرا عندما تصورت الكل يبحثون هنا وهناك ، دون أن يعثروا لى على أثر . ورأيت على الوجوه علامات الفزع ، وآيات الخوف ، ورأيت بصورة خاصة جدتى جالسة على سجادتها ، وفى يدها مسبحتها ، والى جوارها قطتها ، ولكنها لا تصلى ، لانها لا تستطيع أن تصلى ، بل انها تجلس على السجادة اعياء وعجزا عن الحركة .. حتى ابتهالها الى الله ، وتوسلها اليه ليعيدنى حيا ، ستعجز عنه !

ولست أستطيع أن أصف لك سرورى الممزوج بالحزن ، المختلط بالشعور بالعار ، وأنا أتصور أن جدتى ستعجز عن التوسل الى الله ، فان توسلاتها هذه هى التى اغرقتنى فى هذا البحر الطامى من الشعور بالخزى ، والتى أججت فى نفسى الرغبة فى ان اختفى . وعندما اكتملت ارادتى ، وصح عزمى ، وزايلنى التردد ، ضاع نصف احساسى بالألم ، بل تبخر هذا الاحساس كله ، بمجرد ان خطوت باب الدار ، وصعدت درجات السلم الواسعة الجميلة ..

ما أسرع نقلات النفس ، خصوصا النفس الصغيرة ..

فقد بدأت أصعد السلالم ، وأنا أتحسس «درابزينها» الجديد ، وأملأ أنفى من رائحة الطلاء الجديد الذى كان يلمع فوق الجزء الخشبى من « الدرابزين » الحديدى . ومن حيث لا أدرى أخذت أعد درجات السلم .. واحد .. اثنين .. ثلاثة !

ثم تحول هذا العد الى ما يشبه النشيد ، فلما وصلت

الى السطح كنت انسانا آخر ، يختلف عن الانسان الصغير الذى كان فى الحارة ، وفى يده القفاز ، كأنه قيد حديدى .. فان منظر القلعة الذى كان ممكنا أن نراه من هذا السطح ومن خلفها تلال المقطم ، ومنظر الشمس وهى توشك أن تغرب ، غيرت حال نفسى تماما ،فبدل ان انزوى فى ركن حتى يتأخر الليل ، فيبحث أهلى عنى ، نظرت الى حظيرة الدجاج ، ثم أخذت أتابع الحمام فى طيرانه ، وأعاكسه ، وأقذفه بحصا صغير ، واستغرقت فى هذا العبث استغراقا كاملا ..

وبعد وقت لست أدرى كم كان طوله ، سمعت وقع أقدام خلفى .. وقع أقدام الفتـــــاة وأحببته ، فتلفت حولى ، فاذا بى أنا وجها لوجه مع جدتى ..

لم أكد أراها ، حتى عاودنى فى الحال الاحساس الذى غمرنى حينما انتهت الملاكمة ، وحينما رأيتها فى النافذة تطل على ، وتبتهل الى الله وتتوسل .. وخيل الى أنها تريد ان تضمنى الى صـــدرها وان تطمئن الى انه لم يلحقنى سوء . ولاول مرة ، احسست بان هذا المخلوق العزيز بعيد غاية البعد منى ، ووددت أن أفر منه فرارا .. واقتربت من جدتى ، وعلى وجهها ما لا أستطيع أن أصفه ، ولـكنها أدركت فى الحال اننى أبتعد عنها ، وكأنها لم تكن تتوقع أن شيئا من هذا يمكن أن يقع ، وان ما بيننا أقوى من أن يتأثر بخطأ ارتكبه أنا أو خطأ ترتكبه هى .. فاستولى عليها وجوم شديد ، ووقفت فى مكانها وفى عينيها الم عميق ، وكان كل وجودها يتساءل ويردد الـكلمة العامية : « كده ؟ » .. نعم تحولت من منبت شعرها الى اخمص قدمها الى تساؤل فقط ، خال من العتاب ..

ونظرت الى عينيها السوداوين ، وخيل الى انهما اختفيتا فى فتحتين عميقتين غائرتين ، وانهما استحالتا الى ما يشبه الزجاج الجامد ..

ووقفت أمامها ، والقفاز لايزال فى يدى ، وكأنه أثر الجريمة التى ارتكبتها يأبى أن ينحل عنى ، ولا أن يدعنى. وفى هذه اللحظة الصامتة ، كان السكون يحتوى السكون كله .. فقد كانت ساعة الغروب ، فلاح فى الافق بعض الغربان وهى عائدة الى أعشاشها فى بطء ، تبسط أجنحتها ، ولا ترفرف بها ، فتبدو فى السماء نقطا سوداء موحشة .. وفى نفس الوقت كان الدجاج يقترب بعضه من بعض مرددا أصواتا خافتة ضعيفة ، تعرف منها اذن الانسان ، انها أصوات تعلن نهاية يوم ، وتستقبل الظلام الموحش الذى يحمل مع ذلك أسباب الراحة ودواعيها

لا أستطيع أن أدعى الآن ، أن هذا الجو كله ، قد ضاعف احساسى بالوحشة والوجوم ، وبما تصورته من حزن جدتى وألمها الشديد .. ولكن الذى أذكره جيدا ان جدتى دارت على عقبيها دون كلمة واحدة ، كأنما وجدت أن أى كلام يقال ، بعد الذى حدث منى ، يعتبر لغوا يفسد الموقف ، ولا يتفق مع جلاله ..

ولكن ماذا حدث منى؟ لقد راجعت نفسى ، فوجدتنى لم أقل شيئا ..

نعم ، أنا لم أنطق حرفا واحدا ، فما الذى أغضب جدتى أو أحزنها ، فقد تحركت خطوة الى الوراء ، بل بعض خطوة .. هذا كل ما فعلته ، ولكن هذه الحركة الخفيفة ، كان لها فى نفس جدتى كل هذا الاثر ..

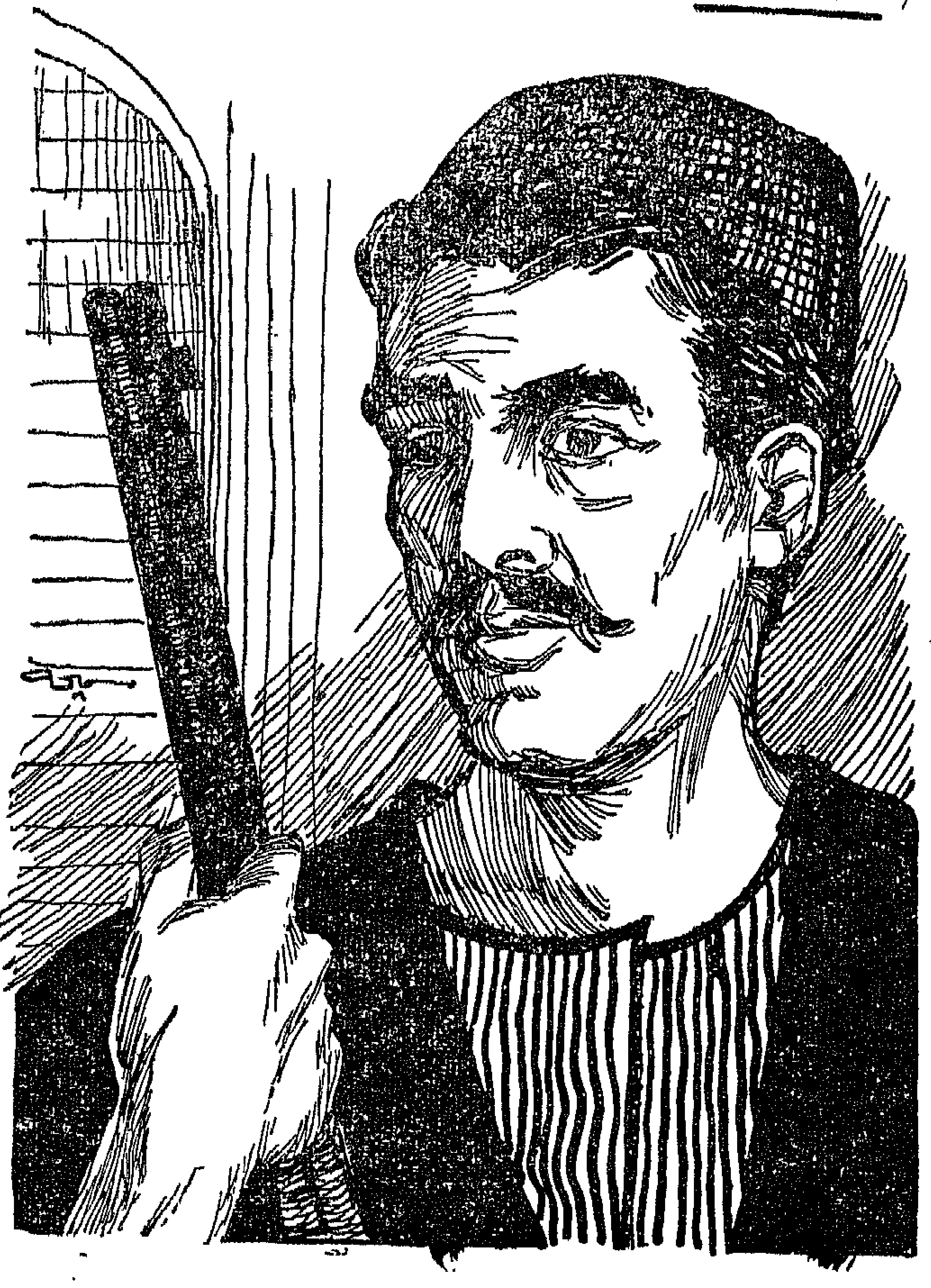
وشعرت فجأة بندم .. شعرت به ، يغمرنى كأنما هو فيض من الدم الاحمر القانى ، ينبثق فجأة فى تدافع

شديد ، كتدافع الماء من نافورة .. ولكنى لم استطع أن أتحرك ، جمدت فى مكانى ، دقائق ، لا أذكر الآن ، شعورى خلالها ، ولكنى اندفعت بعدها أقفز وأثب على باب الدور الذى كانت تشغله جدتى ، وانطلقت أبحث عنها فى كل مكان ، ولمحتها فى حجرتها جالسة ، على سجادتها ، وفى يدها مسبحتها ، وعلى مقربة منها قطتها .. الجميع أحاطوا بها وكأنما أحسوا أنها فقدت صديقا من أصدقائها ، فقرروا أن يؤنسوا وحشتها وأن يخففوا كربتها ..

وبعد وقت لم أحس بمروره ، رأيت نفسى نائما فى فراشى ، والى جانبى « اصلان » قطة جدتى ، مستغرقا فى نوم عميق ، ومن الناحية الاخرى ، قفاز الملاكمة ..



الجثة



كان « عزى شفتر » مشهورا بين أهل بلدته ـ وهى قرية من قرى الوجه البحرى ـ باسم « الخباش » ..

والذين يحبون أن يتظاهروا بالعلم من جهة ، ويميلون الى انتقاص أقدار الناس من جهة أخرى ، يؤكدون أن « الخباش » ، هو اسم الجد الاعلى لعزى شفتر ، وان اصل الاسم « الخباص » وهى كلمة معروفة المعنى .. ولكن حدث أن أصاب أحد أحفاد « الخباش » غنى مكنه من أن يكون عمدة ، وأن يصاهر عمدا آخرين ، وأن يذهب الى عاصمة المديرية فى عربة فاخرة يجرها جوادان من أصل عربى عريق ، فتحولت كلمة «خباص» الى « خباش » وخرج أهل العلم والمؤرخون ، الذين يلذ لهم أن يكونوا فى ركاب أصحاب الغنى وذوى النفوذ ، وأعلنوا أن كلمة « خباش » كلمة تركية معناها « ذو المهابة والاحترام » . ومع مرور الايام اختفى اللقب ، بأصله وبالتحريف الذى دخل عليه .. ولم يعد أحد يذكره أو ينطق به ، الا اذا احتاج الى أن يكشف عن علمه الغزير بالانساب وأصول العائلات أو اذا وقع بينه وبين أحد من عائلة «الخباص» نزاع . وقد كان اسم «شفتر» لغرابته كفيلا بأن يخفى وراءه هذا اللقب الكريه . وكان أهل القرية لوداعتهم، وطيبة قلوبهم ، ولانشغالهم الابدى بفقرهم ، وكساد محاصيلهم ، وكثرة ديونهم ، أميل الى التفكير فيما هو أجدى وأنفع لهم ..

الا ان « عزى » آخر أحفاد « شفتر » الـكبير ، أو « الخباش » الاعلى جدد تاريخ العـائلة كلها ، لمزاياه العديدة التى تمتعت بها شخصيته الغريبة.. ف«شفتر» كان شابا أبيض الوجه ، مشربا بحمرة تضفى على طلعته جمالا تزيده عيناه الملونتان ، وشعر أصفر ناعم غزير ، وهى سـمات تؤكد كلها بأن دما أجنبيا خالط دمه النقى . ولم تكن فى هذا الامر غرابة ، فان الاغنيـاء من أهل الريف ، درجوا على أن يتزوجوا الاجنبيـات اذا أعطاهم الله المال ، ووسع عليهم فى المـكانة ..

ولم يكد « عزى » يشب عن الطوق ، حتى ذاعت له شهرة بعيـدة .. كان يضرب زملاءه ويخطف ما فى ايديهم ، ويقهرهم على ان يتبعوه فيما يدفعهم اليه طبعه الفوار المتقد . وكان لا يكف عن العبث والايذاء ، فهـو فى الليل يخيف النساء بما يلبسـه من ملاءات بيضـاء يخرج بها فى الظلام ، مغيرا فى صوته ، مسميا نفسـه بأسماء العفاريت والجن ، وهو فى النهار يسرق أحذية المصلين ، حيث يتركونها على أبواب الجوامع ، وأشيـاء أخرى لا يحيط بها حصر ، ولما تقدم فى السن واصبح شابا ، زادت شروره فقد اصبح جماله خطرا داهمـا للعذارى والزوجات معا ، وخوفا مقيما يساور الرجال والشبان على السواء . ولم يكن « شفتر » يعرف الخوف ، فهو لايخشى أحدا ، ولا يحسب حسابا لـكبير، أو يرتدع من قانون ، أو ينزعج لتهديد .. وكان يحسن ركوب الخيل ، واطلاق البندقية ، ويسـابق الشـبان فى « البرجاس » ويغلبهم . وكان يلعب القمار فى المدينة ، ويشرب الخمر ، ويقيم فى بيته بالقرية سهرات يتعالى لها صوته ، وصوت جلسـائه ممن يلبسون الملابس الافرنجية .. وهو بينهم فى ثوبه البلدى وعلى رأسـه

طربوش ، وفى اصبعه خاتم من ماس ، وعلى معصمه ساعة من ذهب ، وفى يده عصا تعلوها كرة من كهرمان ، ومن ثيابه تفوح روائح جميلة قوية ..

وتوالت مغامرات « عزى شفتر » مع نساء القرية ، ذوات السمعة الرديئة .. ثم تجاوز ذلك الى صلات يخفيها الليل مع غيرهن ، فتجمع السخط عليه شيئا فشيئا ، وهو لا يبالى . أقسم الشيوخ مرارا انهم لن يمدوا له يدا أو يجالسوه فى مكان ، أو يصاحبوه فى طريق ، ولكن « شفتر » يهل عليهم ، متأنقا نشيطا ، ثم ضاحكا ينتزع من ذوى الايدى المبروكة ، أيديهم انتزاعا من أكمامها الطويلة ، فيقبلها ظاهرا وباطنا فى حرارة تكاد تكون صادقة .. ثم يأخذ مكانه فى المجالس الوقورة ، فيخرج من جعبته التى لا تنفد فكاهات وقصصا ، وأخبارا ، ووصفات ، وعلاجات للامراض ، وفتاوى فى مشكلات القانون والزراعة .. فينسى الجالسون أنفسهم ، وينسى معها الذين اقسموا أن يقاطعوه ، قسمهم ، وتخفف الغيرة منه والحقد عليه حتى اذا هم بالقيام ألحوا فى أن يبقى ، فاذا قام تنافسوا فى توديعه وتشييعه بالاجلال والاكرام ، فاذا بعد عنهم أفاقوا من السكرة ، وأخذوا يلعنونه ، ويحلفون بالعظيم انه الشيطان الرجيم ..

ولما استفحل خطر « شفتر » وتجاوز عدوانه الحد ، تواصى أكثر من شاب مع بعض زملائه على أن يقتلوه ، وتكررت المحاولات التى نجا منها جميعا « شفتر » ، وكان يعرف ــ بوسائله ــ المتآمرين فلم يبلغ ضدهم ، ولم تمتد يده اليهم بالاذى ، بل أدناهم منه ، فأسرهم تسامحه من جهة ، وخافوا أن يبلغ ضدهم من جهة أخرى .. فدانوا له بالطاعة فأشركهم فى بعض مغامراته فلبى بعضهم الدعوة كارها ، ولباها آخرون فرحين ،

حتى لم يعد فى الناحية شقى أو هارب من وجه العدالة أو راغب فى الانتقام من خصم له أو منافس ، الا ولاذ ب « شفتر » واحتمى به .. ثم لاذ به بعض المظلومين فعلا ، فأخذ لهم حقهم ، والناس لايدرون .. أيفعل ذلك عن حب للخير ، أو عن رغبة فىالتباهى بسلطانه ، واخافة الناس من بطشه ؟ وجاءت الانتخابات ، فاحتاج المتنافسون الى رجل ذى نفوذ متحدث ومحبوب ، ومخوف فى الوقت نفسه .. فتنافس المرشحون على كسب « شفتر » والتلطف معه والاغداق عليه . وجاء المديرون بعد الانتخابات ممن يدينون بمناصبهم للاحزاب فأصبح « شفتر » صاحب كلمة فى المديرية ، وارتفع الحجاب بينه وبين المدير نفسه .. ولم يعد اسمه يذكر الا مقرونا بلقب « بك » ، تقال فيكون لرنينها وقع فى الآذان ، يشيع فى الاعصاب ، خدرا لطيفا .. و«شفتر» على تزايد نفوذه لا يغير فى طبيعته ، فهو الضاحك المسلى ، الذى ينفق عن سعة ، والذى لا يسمع عن فقيرة مات عائلها الا واعطاها سرا ، ولا يهمه فى هذا أن تكون مليحة او قبيحة ، وان كانت المليحات يظفرن منه الى جانب ماله وعطاياه ، بعطفه ووده ..

ثم قصده أصحاب الحاجات المشروعة وغير المشروعة ، من ترقية ، ونقل ، ومنح علاوة ، وحفظ شكوى ، ودخول مدرسة ، ونجاح فى الامتحان ، وفى الكشف الطبى ، وفى رفت عمدة ، أو اعادة عمدة مرفوت ، أو مساعدة « شيخ » بلد مقدم للجنة الشياخات ، فلم يتردد أبدا فى أن يقضى هذه الحاجات فى المديرية ان استطاع ، والا ففى القاهرة نفسها . وأصبح له بسبب هذا النشاط الجديد ، مقعد دائم فى شرفة فندق الكونتننتال ، يطل منه على ميدان الاوبرا ، ويرى صفوف السواح من أوربا

وأمريكا فلا يثير عجبه الا هـذا الطراز من السـائحات الامريكيات اللاتى بلغن أرذل العمـر ، وبقـين مع ذلك مصممات على أن يقفزن كالشابات ، ويتجملن كالفاتنات . فيبتسم ويقول لنفسه :

ـ لماذا لا تستولى مصلحة الآثار على هذه المومياءات المتحركة المتأنقة بدل مومياءات الفراعنة الساكتة الراقدة على ظهورها ؟ ..

وبقى فى « شفتر » شىء أصيل زاد نفوذه وزاد غناه ، اتسعت شهرته فى الناحية ، وذاع صيته فى المديرية .. أصبح معروفا للكثيرين فى القاهرة ثم دبت مع الايام شعرات بيضاء فى شعره الاصفر واضطر للسهر الطويل، أن يلبس منظارا طبيا على عينيه الجميلتين ، وخفت قليلا صوته الرنان ، وقل شيئا تتابع ضحكاته المجلجلة .. ونقل غزواته ومغـامراته من ميـدان القرية والمركز الى خارج حدودهما ، ولـكن بقى بيته فى البلدة ، لا يطيب له الا أن ينام فيه ، ولا يجد طعاما أشهى من الطعـام الذى تعمله بيديها « أم جلجل » ..

صحيح انه استأجر شقة فى عاصمة المديرية ، وحجز حجرة بصفة دائمة فى لوكاندة البرلمان بالعتبة الخضراء أولا ، ثم فى لوكاندة أغنى وأكبر مقاما فيما بعد ، ولـكن داره فى البلد كانت المرفأ الذى لا يغيب عنهالا ليعوداليه، ويجتمع فى ديوانه مع زملاء العهد الاول الذين يمثلون كل نشاط فى القرية .. فمن رفاق «البرجاس» والتحطيب، ومن الرماة الذين لا تبتعد البنـدقية عنهم لا ليـلا ولا نهارا ، الى زملاء الليل بكل خيره وشره ، من حلقـات للذكر الى عمل رهيب تجمد له الدماء فى العروق. ولكن أهل القرية الفوا فى السنين الاخيرة ، أن يغيب «شفتر» عنهم يوما أو يومين ، ثم بدأوا يحتملون غيابه لمدة أطول

خصوصا فى الازمات الوزارية ، وقد تطول هذه المدة الى أسبوع أو عشرة أيام .. ولكنه كان يتكلم خلالها فى التليفون مرة ، بل مرات ، فقد زود داره بهذه الآلة العجيبة ..

غير أن « شفتر » انقطع فجأة عن داره هذه .. وكاد يكمل الشهر لم يتكلم اثناءه الا مرة واحدة . وقد ظن المترددون على عاصمة المديرية انه فضل آخر الامر الاقامة فيها بشقته الغنية توفيرا للجهد على نفسه ، ثم علموا انه لم يضع فيها قدمه خلال ذلك الشهر كله.. فظنوا انه مريض فى القاهرة ، أو مسافر الى الاسكندرية كما يفعل كثيرا كلما أراد أن يتصل بأحد من بطانة الوزراء ، أو حاشية الزعماء فى الصيف .. ولكن تجار القطن الذين لا ينقطعون عن السفر الى الاسكندرية أكدوا انهم لم يروه هناك ، وبالذات فى القهوة التجارية المطلة على الكورنيش حيث محله المختار فى الاسكندرية .. ووجم أهل القرية لغياب « شفتر » بك .. كان حقيقة شيطان القرية ، بل شيطان الناحية ، وكان اليد المدبرة والرأس المفكر لكثير من الجرائم التى ارتكبت ، ولكنه كان فى الوقت نفسه أنيس هذا الجانب من المديرية .وبدأ الذين اعتادوا أن يسبوه ويطعنوه فى غيابه يخففون من حدة لومهم اياه ، وطعنهم فيه ، ومالوا الى سماع مدحه وخرجت من البيوت أحاديث كثيرة لم تخل فى بعض الاحيان من المبالغة ، وأشارت الايدى الى اكثر من تلميذ أتم تعليمه بفضل « شفتر » ، والى آكثر من فتاة تزوجت وأسبل الله عليها ستره لان « شفتر » مد لها يد المعونة ، وأكثر من حاج زار بيت الله وقصد الرسول ؛ لان « شفتر » جهزه وأمده بالمال ..

وطال وجوم القرية ، أو طال انقطاع أخبار« شفتر» ؛

وطالت غيبته هو نفسه ، الا أن الوجوم استحال الى حزن ، حينما وصلت الانباء بما لا تطيق الاسماع. لقد بدأت الانباء بهمس يدور حول زواج « شـفتر » ولم يكن فى هذا من بأس ، الا أن هذه الاشاعة أسلمت أهل القرية الى اشاعة أخرى مؤداها ، أن « شفتر » تزوج فتاة تصغره كثيرا ، فانتفض الناس قليلا ، ولكن لم يكن الخطب جللا ، الا أن الكارثة كملت حينما جاءت الانباء بأنها أجنبية ، وبأنها حولته الى شخص آخر .. فقد هجر ثيابه البلدية ، وانقطع عن اخوانه حتى فى القاهرة ، وأصبح لايرى الا مع أجانب يلبسون القبعات ويرطنون بغير العربية ، وان الخطر على ايمان « شفتر » ودينه ، محقق . وتبادل الناس التعازى فيما انتهى اليه « عزى شفتر » ، ولو ان بعض الذين لم يحترموا حزن القرية قالوها بصراحة :

ــ انه شيطان منذ ولد .. ولا رجاء فيه حتى يموت

وخرج « شفتر » من حياة القرية والمديرية وحياة المرشحين ، والنواب والمديرين ، والتجارة ، واعتاد أرباب السوابق العتاة أن يعيشوا بغير زعامته ، وارتاح الشيوخ وأهل التقوى من كثرة ذمه فى غيابه ، ومن فرط الترحيب به فى حضوره .. على أنه لم يكن يذكر اذا ذكر ، الا بلقبه الاسهل « الخباص » !

وشغل الفلاحون بدنياهم التى لا تنتهى مشاغلها ..

ثم عاد « شفتر » يطفو على السطح ثانية ، فلقد سمع أهل القرية وسط فرحة غامرة انه انفصل عن زوجته ، وانه عاد الى ثيابه البلدية، والى حجرته الاولى فى لوكاندة البرلمان ، وأنه شوهد يدخل مسجد فاضل باشا ليسمع الشيخ رفعت ، ويهتف من أعماق قلبه كلما مست آية وترا فى قلبه :

ـــ الله .. الله ياسيدنا الشيخ .. الله يقويك وينور عليك .. وكانوا يقولون هذا والدموع تنهمر على خدود بعضهم ، حينما كان يقول آخرون :

ـــ الم نقل لكم انه شيطان ، فكيف تضحك « خوجاية » عليه وتغير له دينه ؟ !

وفى ذات يوم ، خرجت القرية بأسرها .. نساؤها قبل رجالها ، واطفالها قبل الجميع ، يتدافعون بالمناكب ويتزاحمون تزاحمهم يوم المولد ، وفوق أكتاف الامهات الاطفال الرضع ، يمصون أصابعهم ، بدل الثدى الذى انتزع منهم انتزاعا ، وفى آخر الموكب يسير الجدود والجدات ، وقد انحنت ظهورهم وقصرت خطاهم ، ومع ذلك بقيت الحياة فيهم رغبة لا تقهر الى الاستطلاع والفضول

ولما وصل أهل القرية الى حدودها الخارجية ، حيث الحقول الفسيحة ، انقسموا من تلقاء أنفسهم الى صفين .. واتجهت الانظار الى سيارة سوداء ، وقفت عند أعلى المنحدر المؤدى الى القرية ، ثم فتح بابها ، وخرج انسان اصفر الوجه ، انحنى ظهره قليلا ، ومد يده باحثا عن ذراع يستند اليها ، ومد شاب كان فى السيارة نفسها ذراعه اليه ثم طوقه بالذراع الثانية ، وخرج من السيارة أيضا رجل ثالث ، كان أشيب ، طويل القامة يبدو عليه حزن عميق فأحاط بالمريض من الناحية الثانية، وسار الثلاثة بخطى قصيرة بطيئة ثقيلة ، تناسب خطى الضعيف الشاحب الذى توسطهم . وحبس أهل القرية انفاسهم الى الحد الذى أحس معه الاطفال الرضع فوق رءوس أمهاتهم ، ان من اللائق أن يكفوا عن مص اصابعهم . وتابعت الاعين الرجال الثلاثة ، وهم يسيرون متجهين نحو الانحدار الذى لابد للقادم الى القرية من ان

يهبطه . وعند اعلى هذا الانحدار ، وقف الرجل الشاحب وهو يلقف أنفاسه ، وكأنه يتهيب النزول .. فخرج فى هذه اللحظة من بين الصفوف ، شاب طويل عريض قوى كانوا يطلقون عليه لقب « الرشاش » لاتقانه استعمال مدفع « برن » استطاع أن يحصل عليه ، فاحتضن المريض من الوراء ، وهبط به الانحدار كأنما يحمل طفلا لا رجلا ، والرجلان الآخران يتبعانه ويد كل منهما على ذراع من ذراعى المريض .. كأنما يعبران بهذه الحركة عن انهما لايودان أن ينفصلا أو يبتعدا عنه . وفى هذه اللحظة عينها هتفت امرأة من بين الصفوف :

ـ شد حيلك يا « شفتر بيه » ..

وارتفع صوت امرأة فى الصف المقابل ممتزجا ببكاء تحول الى عويل :

ـ ألف عمر على عمرك ياحبيبى ..

والتفت « شفتر » الى المكان الذى انطلق منه الصوت والبكاء ، ووجهه جامد لا تعبر تقاطيعه عن رضا ولا عن سخط ، ثم أدار رأسه ببطء شديد الى الامام دون أن يتكلم ..

ويبدو أن اجتراء امرأتين على الكلام والصياح ، شجع الآخرين على انتهاك حرمة هذا الصمت الذى خيم على المكان ، فخرج من بين الصفوف شاب ثان ، واندفع نحو « شفتر » الذى كان قد وصل اذ ذاك الى نهاية الانحدار ، وأمسك بيده ، وأهوى عليها يود أن يقبلها ، فنظر اليه « شفتر » بنفس الوجه الصامت ، وسحب يده فى اعياء ، بينما تقدم « الرشاش » الى الشاب ودفعه فى صدره بقوة وهو يقول :

ـ حاسب .. حاسب ..

والتفت الى الجموع التى خرجت عن النظام الذىفرضته على نفسها بنفسها وهو يقول :

ـ خلوا فى عينكم نضر .. الراجل عيان .. واللى حيجرب حاجطع رجبته ..

وتعالت أصوات ، وتدافع الناس ، وجرى أطفال ليسبقوا الركب ليستطيعوا المشاهدة بلا عناء ، وتزاحم الرجال والنساء ، وجرى بعضهم ، كما يجرى الاطفال .. وثار التراب حتى عقد فوق الرءوس سحابة قريبة كانت تظلل الموكب ، وكأنها مظهر من مظاهر الاحتفال الكئيب

وبعد قليل تعالى بكاء اختلط بما يشبه النواح ، فصرخ « الرشاش » :

ـ انكتمى انت وهيه .. فال الله ولا فالكم يابعدا

ووصل أخيرا « شفتر » الى داره التى كانت دائما مرفأه الامين الحبيب ، التى لم ينقطع عنها الا فى الشهور الاخيرة فأصيب بما أصيبه به من مرض .. وعاد اليها ، وهو يكاد يكون شبحا ، لا يشبه الاصل القوى الذىكان يفيض بالحياةوالتوثب والطموح .وبدأت القصص تخرج من هنا ومن هناك ، تروى تاريخ الفترة التى انقطع فيها « شفتر » عن بلده وداره .. فمن قائل أن المرأة التى تزوج بها كانت أمريكية عجوزا ، ثرية بل صاحبة ملايين، وقد وقعت فى هوى « شفتر » وحاولت أن تعود به الى وطنها ، ومن قائل بل راقصة أجنبية وانها كانت طامعة فى ماله وشبابه معا ، وثالث يؤكد انها ابنة عائلة كبيرة من عائلات الريف ، وانأهلها اقسموا أن يقتلوه ويقتلوها معه ، لانها تزوجته من غير موافقتهم واذنهم ، وانه كان أول الامر شديد الحب لها ، لكن حبه مع الايام فتر فدست له السم من حيث لايدرى ..

وسكتت هذه الاشاعات المتضاربة ، حينما ذاع النبأ

بأن « شفتر بك » يحتضر .. ومات « شفتر » وأقيم السرادق ..

وفى نواح مختلفة من السرادق الكبير الرحيب ، كانت مؤتمرات صغيرة تنعقد من أقرباء « شفتر » الاقربين تتلاصق فيها الرءوس ، وتتكلم الالسن همسا ، وعلى الوجوه وقار وحزن مدعى به · وتحلق حول هذه المؤتمرات عدد كبير من الطفيليين الذين يشمون رائحة الكسب فى هذه المناسبات ، من بعيد ، ويأتون الى مواقعها كالنسور الجارحة . أما المؤتمرات التى كانت تجتمع لتنفض ، وتنفض لتجتمع ، وتتسع لتضيق ، وتضيق لتتسع ، فكان محور مناقشاتها ومداولاتها تفاصيل الجنازة والمأتم .. متى يكون التشييع ؟ وأين يكون الدفن ؟ وماذا يكتب فى نبأ النعى ؟ والمقرئون الذين سيتلون القرآن ؟ ·· ثم الاشخاص الذين يجب ان يتصلوا بهم ـ على وجه خاص ـ لابلاغهم النبأ ولكن من تحت هذه المناقشات كان هناك آهتمام آخر ·· بالتحفظ على اوراق المتوفى ، وحصر تركته ، ووجوب ايفاد أشخاص موثوق بهم الى شقته فى عاصمة المديرية وحجرته فى اللوكاندة والسؤال عن اتصالاته بالقاهرة والاسكندرية للوقوف على ديونه وأسماء مدينيه · وكان كل البحث فى كل عنصر من هذه العناصر ، قادرا على أن يثير فى نفس أفراد الاسرة من الفرح والجزع مشاعر متفاوتة ومتعاقبة ، ف « شفتر » لم يعرف له وارث من والدين أو أولاد .. ولكن حياته كانت بالنسبة لذوى قرباه كتابا مغلقا فلم يكن فى وسع أحدهم أن يقول انه يعرف دخائل معيشته ، وحقيقة ثروته ، الا ما اشتراه من ارض فى القرية وفى زمام المركز · لذلك لبث الاقارب

فى توتر شديد ، يتوقعون فى كل ثانية ما يخيف ويفزع. وقد زاد عذابهم ما عقد كل منهم العزم عليه من التظاهر بأنه حزين على « شفتر » ، وانه مشغول بالجنازة والمأتم وما يقدم للمعزين من الطعام وغير الطعام ..

ولم يطل انتظارهم ..

فقد وقفت سيارة فاخرة على أعلى المنحدر الذى نزل منه « شفتر » مريضا وكان مظهر السيارة دالا على ان القادمين فيها ، ليسوا من أهل الناحية ، ولا من أهل المديرية ، ولا من اصدقاء الفقيد المعروفين لذوى قرباه اذ كانوا يسألون عن القرية سؤال الغريب ، وعن دار « شفتر » فى تحفظ ظاهر ، وتردد يكاد يكون خوفا .. وكانت معهم سيدة ، بقيت داخل العربة ، ومعها شاب لازمها ولم تخرج مع من خرج من ركابها . وتجمع حول السيارة فى لحظة قصيرة جمع ضخم من الاطفال والنساء والرجال ، وتزاحموا تزاحما شديدا وتنافسوا على أن يروا من بداخل السيارة ، ولا سيما السيدة التى كانت تضع على رأسها قبعة ، وتسدل على وجهها نقابا من الحرير الخفيف ..

ولما علم ركاب السيارة الطريق الى دار « شفتر » أدخل أحدهم رأسه فى السيارة ـ بعد أن كان قد خرج منها ـ وتبادل مع السيدة والشاب كلمات سريعة وبدا عليه انه اعتزم أمرا ، فقد اكتسى وجهه بشىء من الجد ، لو أتيح لك أن تتأمله لادركت انه جد مقترن بالخوف والتوجس ، وهبط المنحدر وفى يده عصا ثمينة ، ومن خلفه رجلان احدهما يلبس الملابس البلدية الثمينة ، وكان هذا الاخير عملاقا ، تحمل كتفاه عنقا غليظا ضخما ، يذكرك مرآه بعمود كبير من اعمدة المبانى القديمة الشاهقة . وتحول المتزاحمون من السيارة الى الرجال

الثلاثة الذين اتجهوا الى دار الفقيد ، الا ان بعض من تابعهم من الاطفال والرجال ، عادوا أدراجهم جريا الى السيارة ، وقد أحسوا انهم أصبحوا قادرين على أن يروا من فيها وأن يملأوا عيونهم من وجه السيدة وملابسها .. فاستطاعوا فعلا أن يروا أنها تلبس ثوبا حريريا أسود ، يكشف عن بعض صدرها ، وأكثر ذراعيها ، وأنها كانت تدخن فى شراهة ، وتضع رجلا على رجل ، وتتكلم بلهجة سريعة غاضبة ، وتفوح من ثيابها رائحة عطر لم يشموا مثله ، ولا حتى حين كان يمر بهم « شفتر » او يقتربون منه . ولما اطمأن هؤلاء الى أنهم رأوا جيدا كل من وما فى السيارة ، وان شيئا فيها لم يفتهم حتى الشاب النحيف الجالس الى جوار سيدة أطلقوا سيقانهم للريح .. فامتلأت بيوت القرية ودروبها بأن « خوجاية » فى السيارة ، وأكدوا أنها لابد أن تكون زوجة « شفتر » التى سمعوا عنها أثناء غيابه عنهم

وانفجرت هذه الانباء فى السرادق انفجار القنبلة ، فشحب لون أولاد عم « شفتر » ، وكان كل منهم قد قسم فى ذهنه التركة التى يعلم بعض تفاصيلها ، وخص نفسه بجزء جيد منها ، وحضر حججه ليقنع الآخرين بأنه أحق بهذا الجزء دون غيره .. شحب لونهم ، وجفت فى الحال حلوقهم ، وجمد كل منهم فى مكانه ، فقد وقع الخطر المتوقع ، وحلت الكارثة الكبرى .. ولكنهم ما لبثوا أن تجمعوا وأخذ كل منهم يقول كلاما كان أقرب الى هذيان المحموم ، من قول العاقل المتماسك ، ولكن كان ما انتهوا اليه ــ حتى بلا تفاهم أواتفاق ــ ان التركة لن تفلت من أيديهم ، وان « شفتر » لم يتزوج ، ولم يعقب ، وان كل ادعاء بعكس هذا ، هو نصب واحتيال الامر فيه متروك للحكومة والقضاء .. ووصل الرجال

الثلاثة الى مدخل السرادق ، فلم يخف لتحيتهم أحـد
من اولاد العم ، او غيرهم من اقارب « شفنتر » . ودار
الوافدون بأعينهم فى السرادق ، وقد بدت عليهم الحيرة
الشديدة والاضطراب .. ولـكن لم يطل هـذا الموقف
كثيرا ، اذ ان أكبر أولاد العم ، وكانأشدهم ثقة بنفسه ،
تقدم اليهم فى جفاء ، ودعاهم للجلوس فى غير مودة ،
وسكت .. وبعد فترة صمت .. قال زعيم القادمين :
ــ البقية فى حياتكم ..
فأجاب ابن العم فى اغتصاب :
ــ شكر الله سعيكم ..
وتململ الرجل فى مكانه ثم قال :
ــ خال الدنيا ..
فلم يرد عليه ابن العم ، وكأنه لم يسمع . واضطر
الضيف الى أن يقول :
ــ الوفاة حصلت فى الصباح ؟ ..
فهز ابن العم رأسه علامة النفى ، وصدرت عنه ألفاظ
لا تسمع وهو يتأمل وجه الضيف الذى بدا عليه انه قرر
أن يواجه المهمة التى جاء من أجلها فقال :
ــ لقـــــد قلنا لعزو بك لا تترك بيتك وزوجتك فى
القاهرة .. ! العلاج فيها أحسن ..
وسمع ابن العم كلمة زوجتك ، وكأنما لدغ ، ولكن
سره أن الرجل يقول عن عزى ، عزو
فقال : عزو ؟ ..
وأسرع الضيف قائلا :
ــ سوسو أختى كانت تناديه دائما عزو .. ولو
استطاع ابن العم أن يقوم لتوه ليقبض على عنق هـذا
الرجل ويدقها دقا لما تأخر ، ولـكن أقصى ما استطاع
أن يفعله ، هو انه صوب اليه نظـرات خارقة ، لو انها

تعلقت بحطب لاشعلته .. ومد له الضيف يده بعلبة سجائره فتجاهلها وأخرج سجائره هو ، وأشعل منهـا لفافة ، وبصق فى الارض فى عصبية .. وأدرك محدثه مدى الانفعال الذى يهز كيانه ، فسكت .. وأخذ ينفث دخان السيجارة التى رفض أن يأخذها ابن العم ، وتقدم أحد الفراشين فى هذه اللحظة ، بصينية عليها فنجان قهوة ، وكوب ماء ، فمد الضيف يده اليها وأخذ كوب الماء ، وشربها حتى آخرها ، ثم اعتمد بذراعه على العصا وأخذ ينظر الى لا شيء لحظة ثم قال :

ـ لاحول ولا قوة الا بالله .. انا لله وانا اليه راجعون

ولما طال الصمت ، ادنى شقيق ابن العم الاخير ، مقعدا ، بعد أن مد يده للقادم الغريب ، وهو يقول :

ـ شكر الله سعيكم ..

ثم تساءل عن الحكاية ، فلم يرد أخوه أن يرد عليه ، وأحاله بيده الى الضيف قائلا :

ـ اسمع ياسيدى ..

ولم يرد الرجل ان يقول شيئا فى الحال ، مكتفيا بالقول ، بأنه لا فائدة من الحزن ، واننا جميعا سائرون فى هذا الطريق ،ون آلواجب يقضى بأن نحمد الله ، اذ مات « شفتر » بك ، وقد ترك لزوجته وذريته ، ما يكفيهم وزيادة

ولدغ ابنا العم للمرة الثانية ، لدغة كانت اوجع ، فقد كان يساورهما الامل فى ان يقتصر المصاب على وجود زوجة لا تظفر الا بالربع على اكثر الفروض .. فاذا بالقدر يكشف لهما عن وجود عقب لمورثهما ، يحرمهما من التركة جميعا ، فصرخا معا

ـ ذرية ..

فهز الرجل راسه فى ثقة واطمئنان قائلا :

ـ حمل مستكن ..

وذهب نصف ما كان قد حل بالوارثين من جزع وقالا في صوت واحد :

ـ آه .. حمل مستكن ..

ولما وصل الحديث الى هذه النقطة قال الضيف :

ـ الا يمكن أن نتحدث وحدنا على انفراد .. نحن لا نطلب الا حق الزوجة وابنها .. أو ابنتها حسب ارادة الله .. كل يأخذ حقه ، بشرع الله وسنة رسوله ..

ولم يرد ابن العم أن يجيبه الى طلبه ، وفضل أن يتكلموا حيث كانوا ، با عتبار انه ليس هناك من غريب فمد الرجل يده الى جيبه فى بطء قاتل ، ثم أخرجها ، وكأنما يسل سيفا ، وفيها ورقة مطوية ، نشرها وقدمها لابني العم ، فلم يزد أكبرهما أن يمد اليها يده وتساءل :

ـ ما هذا ؟ ..

فلم يجب الرجل وأخرج من جيبه ورقة أخرى مطوية كذلك ، وبسطها بنفس البطء والتثاقل كأنما يتلذذ بتعذيب هذين الطامعين ، فقال أصغر الاخوين :

ـ وما هذه أيضا ؟ ..

فأجابه الرجل وعلى شفتيه ابتسامة لا تلحظ :

ـ خطاب بخط « عزو بك » .. عزى شفتر الله يرحمه .. خطاب لكم ..

وردد أكبر الاخوين كلمتى « الله يرحمه » بسخرية واضحة ، وقال :

ـ جواب لى أنا .. ؟

ثم ضحك ضحكة قصيرة كانها هى نفخة من انفه واستأنف الرجل حديثه قائلا :

ـ خطاب يوصيك بزوجته وما قد يرزق به منها .

وضحك أصغر الاخوين هازئا :

ـ خطـاب .. قد كان معنا هنا ، وكان يجب أن يوصينا بلسانه ، لنسمعه بآذاننا ..

وهم الرجل باعادة الورقتين الى جيبه ، وكأنه لا يهمه أن يطلعا عليهما ، ولكن الاخ الاصغر خطفهما وأجال نظره عليهما دون ان يقرأ حرفا فقد غامت الدنيا فى وجهه فلم يتبين مما قرأ شيئا ..

وشعر الرجل بأنه لا فائدة من الحديث معهما ، فأنهى الـكلام ووقف ، وهو يقول انه جاء بنفس صافية ، ونية خالصة للتفاهم ، وان أخته لا تريد أن تقع فى نزاع مع أهل زوجها الذى كانت تحبه اكراما له ، لانها تعرف ما يكنه لهم من اعزاز

واجاب اولاد العم ، ومن اجتمع حولهم من الاقارب والفضوليين ، أن « شفتر » لم يتزوج ، وان فى البلد حكومة ومحاكم ..

ولما وقف الرجل ، واقترب منه الرجلان اللذان جاءا معه قال :

ـ والدفن ؟ ..

فأجابه أكثر من واحد :

ـ ان هذا ليس شأنهم ، وان « شفتر » سيدفن مع أهله وبين أحبابه وأعزائه . ولما حاول أن يقول لهم ان وصية « شفتر » أن يدفن عندهم ، وانه أقام لنفسه قبل مرضه مدفنا كبيرا أنفق عليه كثيرا ، هموا بالاعتداء عليه .. فهز رأسه ، وكأنما يتوعد الجميع ، وسار فى حزم ، ومن خلفه صاحباه ، وكأن العملاق منهما ، قد ازداد فى هذه اللحظة طولا ، وازداد عنقه ضخامة ..

***

فقد أولاد العم ، الاهتمام بالمأتم ، وبجنازة الغد ، بعد أن اتضح لهم ان التركة التى كانوا يعتبرونها حقا

خالصا لهم بدأت تبعد عن أيديهم ، وقد تبادلوا الرأى فيما سمعوه .. ومالوا الى ترجيح ان الامر كله نصب واحتيال ، وقرروا ألا يبدو عليهم الاهتمام بدعاوى هذه المرأة ومن جاء معها ، وأن يطعنوا فى كل وثيقة تقدمها ، وأن ينكروا « الحمل المستكن » الذى تزعم وجوده هذه السيدة ، ونشطوا فى تنفيذ خطتهم فأوفدوا من تعقب الرجال الثلاثة ، ومن نقل رقم السيارة ، ثم تابعها حتى خرجت من حدود المركز ..

وما كادوا يفرغون من هذه الاجراءات ، حتى حل عليهم تعب عظيم أحس معه كل منهم انه فى حاجة الى الراحة والنوم . وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بكثير .. وكان عمل كثير ينتظرهم فى الغد مع شروق الشمس ، وكانوا آخر الامر فى حاجة الى الخلوة ليفكر كل منهم فى المصيبة التى نزلت بهم ..

وما كادوا يأوون الى مخادعهم ، حتى سمع كل منهم على بابه طرقا شديدا ، تبعته أصوات وصياح ، وهرج ومرج ، كما جاء من بعيد صراخ وعويل ، ففزعوا وقفزوا من فراشهم ، وهب بقية أفراد الاسرة ، وخرج بعضهم فى ثيابه التى ينام بها ، وهى لا تزيد عن قميص وسروال .. وخرج آخرون حفاة وعراة الرءوس ، وهم يسألون عن الخبر ، ولم يكادوا يتبينونه حتى اندفعوا الى بيت « شفتر » وكأنما جن جنونهم ، واتجهوا الى الغرفة التى رقدت فيها الجثة ، وحولها بعض القراء المكفوفين الذين تناولوا قراءة «الربعة» ، وقد روع هؤلاء المساكين حينما تدفق سيل من النـــاس ، لم يلتفتوا اليهم ، فكادوا يدوسونهم بالاقدام ، فانكفأوا على وجوههم ، وأخذوا يزحفون التماسا للنجاة .. وسمعوا وهم على هذا الوضع المهين ، ان الجثة التى أحاطوا بها ، وراحوا يتلون

القرآن حولها ، قد اختفت ، سرقت وهم لايدرون ..
وبحث أهل « شفتر » عن « أم جلجل » فى هذه اللحظة فلم يجدوها ، فاشتعلت فى الدار مناحة ، كأن « شفتر » قدمات مرة أخرى ، بل كأنه مات حقيقة هذه المرة .. وأخذ الرجال يلطمون خدودهم دون النساء ، وانطلق شاب الى بيت العمدة ليبلغ عن اختفاء الجثة ، واستيقظت الاسرة بأسرها ، ورفعت الكلوبات من موضعها فى السرادق ، لتضىء للناس طريقهم فى دروب البلدة الضيقة ، وطير الخبر للمركز ، وللنيابة ، وللمديرية .. ولم ينقض الا وقت قليل حتى شوهد رجال بوليس يمتطون ظهور الجياد ، ورجال بوليس حضروا فى «بوكسفورد» ، ورجال نيابة جاءوا فى سيارة أجرة ، والجميع تبدو عليهم آثار النوم ، والجميع يلفون أعناقهم «بكوفيات» أعدوها لمثل هذه المناسبة ، وبعضهم ارتدى معاطف ثقيلة وأعواد الثقاب فى أيد تضىء وتنطفىء ، فى صمت ..

وفتح المحضر فى بيت العمدة .. ثم انصرف الجميع ، وقد تركوا وراءهم بعض أفراد قوة المباحث فى المديرية ، وفى المركز ليتشمموا الخبر ، ويتبينوا أين ذهبت الجثة ، بعد أن أعطى رقم السيارة لنقط المرور .. وكلفت نيابة القاهرة ، باستدعاء السيدة التى ورد اسمها فى قسيمة الزواج ، وسؤالها وسؤال من كانوا معها ، مع البحث عن « أم جلجل » ، ومن اختفى معها من أهل بيت « شفتر » .. وتفرق أفراد قوة المباحث فى أنحاء القرية ولم ينتظر الا القليل حتى عثر كل منهم على مكان دافىء فى القرية ، اتخذ له فيه مخدعا ، حيث نام فيه ملء الجفون ، وترك أهل « شفتر » وحدهم ليواجهوا الفضيحة التى نزلت بهم ، بغير تمهيد ولا تحضير ،

وليحلوا المشكلة التى ستواجههم بعد ساعات .. مشكلة تشييع جثمان «شفتر» فى جنازة مهيبة سيشترك فيها قطعا المئات ، والجثمان نفسه غير موجود .. والوقت لا يسمح بتأجيل تشييع الجنازة ، واخطار المشيعين بأن الجثة سرقت يخرج عن حيز التفكير ، وتشييع نعش بلا جثة ، شىء أقرب الى النصب والتزييف ..

مرت الساعات سريعة .. وأصبح موعد تشييع الجنازة كالسيف المسلط فوق رقاب أفراد العائلة ، ولكن أهل القرية الذين لا يمتون الى « شفتر » بصلة قرابة كانوا أكثر من أهله شعورا بالفضيحة ، فقد كانوا يحسون ان ما حدث ليس الا عارا حل بظله الاسود فوق رءوسهم .. فراح كثيرون منهم ، يفتشون عن الجثة وهم معتقدون أن اخراجها من القرية لم يكن ممكنا ، لان منافذ القرية مسدودة بأهل القرية ، الذين كانوا ساهرين ، ولان الناس بقوا محيطين بالسيارة حتى تركت البلدة .. بل انهم لم يكفوا عن التحقيق فى وجه من كان فيها ، والتحويم حولها ، والركوب فوقها ..

فالجثة اذن فى القرية فى بيت من بيوتها ، أو فى مكان ما فيها .. وتفرق الشبان والصبيان وعدد من الفضوليين الذين كانوا قد اجتمعوا فى السرادق ، كما تتفرق كلاب الصيد ، وقد استحال كل منهم الى عيون وأنوف ، تبحث وتشم ، فى كل ركن ، وتحت كل حجر ، مشتبهة فى كل ماش ، وجالس ، وملتحف ، أو متحدث فى همس ، واسفرت هذه المهمة عن نتيجة سريعة .. فقد جاء من أقصى القرية صبى يلهث ، ويقول وهو يلتقط انفاسه فى عناء ، انه رأى جماعة من الرجال يحملون نعشا ، ويجرون ناحية المقابر . وخرجت البلدة بأسرها ، واستيقظ رجال المباحث ، وهم يفركون عيونهم

بأيديهم لا يدرون ماذا حدث .. خرجت البلدة فى الاتجاه الذى أشار اليه الصبى ، وقد تقدمهم ، وكأنه قائد مغوار ، وتلفت حملة النعش ، ثم جدوا فى السير ، ثم فى الركض ، لما أوشكت طليعة القرية أن تلحق بهم .. وهللت الطليعة الزاحفة ، واشتملت الجميع فرحة كفرحة النصر وتدافعوا .. وكل منهم يمنى نفسه بأن سيكون أول من يكشف الغطاء عن وجه الفقيد ، وأن يراه ، وعلى شفتيه ابتسامته الخالدة التى لا تفارقه ، ولو جلس على مقعد من نار .. ورفع الغطاء عن النعش ، وصرخ الذين سبقوا غيرهم الى رؤية ما فيه .. هل رأوا وجها كريها ، أو جثة مشوهة ، أو لم يحتملوا النظر الى ميت تفيض منه أنوار ما بعد الموت ؟ ! ومد أحد الرجال يده الى داخل النعش ، ورفع فى الهواء جسما أسود اللون ، أو بنيا داكنا ، وتعلقت العيون باليد وبما رفعته اليد ، ولكن ماذا يكون ؟.. انه لا يمكن أن يكون جثة طفل ، ولا يمكن أن يكون عضوا من جثة . ومن الخلف جاءت صيحة ندت عن صدور رجال فى المؤخرة أدركوا ماذا كان فى النعش ، وسر عدو من كانوا يحملونه .. فلم يكن فى النعش الا عشرة طرب من الحشيش الفاخر .. !

وكان أصحاب النعش معذورين ، فقد امتلأت القرية برجال البوليس .. وعسكر فيها عدد من أفراد قوة المباحث ، ومنهم من تخصص فى مطاردة متعاطى الحشيش ومهربيه.. واذا كانوا قد ناموا ، فانهم لابد أن يستيقظوا فى الساعات الاولى من الصباح ، وقد أصبح من المنتظر أن يهاجم كل بيت وأن يفتش كل شخص ..

وعادت القرية وفى يد بعض أفرادها أجزاء من هذه الطرب ، واختفت أجزاء كبيرة من هذه الغنيمة ، ولما

اهتزت أسلاك التليفون بين بيت العمدة والمركز ، ظن المأمور أن الجثة ظهرت ، ولكنه فوجىء باشارة تليفونية عن نعش به حشيش بدلا من ميت . ولم يكن ثمة مفر من انتقال البوليس والنيابة مرة أخرى الى القرية ، وهو أمر لم يحدث فى تاريخ هذه القرية ، ولا أية قرية أخرى .. اذ لم يشهد التاريخ الجنائى أن تنتقل النيابة مرتين فى ليلة والحدة الى قرية واحدة بالذات . وعبرت احدى عجائز البلد عن ضيقها مما حدث فقالت :

ـ منك لله يا « شفتر » بيه .. تاعبنا فى الدنيا والآخرة ..

فلكزتها حفيدتها وكانت شابة جميلة وقالت :

ـ هو ذنبه ايه كمان ..

فسكتت العجوز ، ولما بعدت عنها حفيدتها عادت تقول :

ـ تعبنا فى الموت والحياة ..

***

وعاد صبيان القرية الى مواضعهم الاولى ، حيث كانوا فى انتظار أية بادرة تلوح ، وتكشف عن المكان الذى خبئت فيه الجثة .. وجاء أحدهم يقول انه يشم رائحة عفنة تنبعث بشدة من بيت من بيوت البلد ، وذهب معه بعض زملائه . وبلغ من هذه الرائحة أن اندفع الشبان الى باب البيت فلم يطرقوه ، بل خلعوه خلعا ، اذ تأكدوا أنها رائحة ميت بلا جدال .. وفوجىء صاحب الدار وزوجته بدخول هؤلاء الشبان ، ولكن بدا عليهم هلع ، أكد للفزاة المقتحمين ، أن شكهم له مايبرره ، فان الزوجة صرخت :

ـ ما ليش دعوة والله .. لا انا شفت ولا نضرت حاجة ..

وصرخ زوجها :

ـ يا مجرمة دا انت اللى تستاهلى الحرق ..

ونظر الشبان الى مكان فى البيت فوجدوا سطحه مرشوشا بماء ، وأشبه شيئا بأرض محروثة . والتفت أحدهم الى فأس ، فأخذها وراح يضرب فى هذا الموضع من الدار ، وبعد بضع ضربات ، ظهرت أعضاء جسم بشرى ، فاطمأن الشاب الى انه كشف الموضع الذى خبئت فيه جثة « شفتر » ، ولكن كم كانت خيبة أمله كبيرة ، حينما أخذ الزوج وزوجته يتضرعان اليه لكى لا يفضحهما ، وفهم من توسلهما أن القتيل ليس سوى ضرة المرأة ، وانها تعاونت مع زوجها فى ذبحها ، ثم دفناها فى أرض الدار ، وعاشا أياما معا ، وكأنما يبدآن شهر عسل ممتع ! ؟

وشاع فى البلد الخبر ، فصرخ رجل :

ـ الله يقطع « شفتر » وسنينه .. الراجل سيخرب البلد ، بعد ما مات ..

***

وانهالت الاشارات التليفونية الى المركز ، والى المديرية ، والى النيابة ، وعادت القرية تستقبل رجال الامن من جديد ، وذاع النبأ المذهل فى أنحاء المديرية ، فتولى بذلك اذاعة نبأ تأجيل تشييع جنازة « شفتر » ، وترك السرادق خاليا ، وفتر اهتمام الجميع بالبحث عن جثته ، ولم يبق من هذا الاهتمام ، الا حرص عائلة « شفتر » على ملاحقة منافسيهم فى الميراث ..

ومرت أيام والقرية مشغولة بالقضيتين الجديدتين ، وبالتحقيق فيهما ، فلما سمع بعض الشبان ، بأن امرأة تهيىء فى الليل كفنا لميت ، لم يتحرك لدارها ، الا شابان

من أنصار « شفتر » أثناء حياته ، ولما دخلا الدار ، وجدا عجوزا عمياء ، أمام ميت ملفوف فى كفن .. وكشفا عن وجهه ، فراعهما انهما رأيا رجلا أشبه ما يكون ب«شفتر» وهما أن يحملاه فتعلقت المرأة بهما ، وراحت تتوسل اليهما أن يدعاه ، والا يبلغا ضدها .. فزادهما توسلها شكا فيها ، وظنا أن جثة « شفتر » قد وصلت الى خاتمة المطاف . وبينما هى تتوسل اليهما ، وهما يأبيان الا ان يحملا الجثمان ، اذ يدخل حلاق الصحة منزعجا ، وينضم الى المرأة فى توسلاتها .. ويعجب الشابان من أن يكون لحلاق الصحة صلة بالامر ، ولكن ما يكادان يستوضحان حتى يعلما بأن البحث عن جثة « شفتر » عبث لا طائل تحته ، وان فى اختفائها سرا يعلو على أفهام أهل القرية .. فالميت الذى ظناه « شفتر » ليس سوى ابن المرأة العجوز الكفيفة ، وكان مصابا بالحمى ، وكان لابد من ابلاغ الصحة عنه ، ليعالج خارج البلد ، فى مستشفى الحكومة ، ولكن الام ابت أن يبعد عنها ابنها .. ووافقها على ذلك حلاق الصحة ، وكان لابد أن يتم الدفن سرا ، والا تعرضت وتعرض حلاق الصحة معها لما يستلزمه القانون من عقاب ..

واستخذى الشابان واعادا الجثة للأم ..

وطوت الايام هذه القصة ..

الا أن قضية الميراث بقيت قائمة بين أولاد عم «شفتر» وزوجته و « حملها المستكن » الذى خرج الى الحياة طفلا ذكرا ، لو ثبتت بنوته لـ « شفتر » ، لحرمت عائلة ابيه جميعا من التركة كلها .. وكبر الولد وكبرت القضية معه ، وتوالى عليها قضاة شرعيون واهليون ، وبلغ بعض هؤلاء المعاش ، وخرج آخرون من القضاء الى المحاماة ،

ثم الى الوزارة .. والقضية تؤجل ، وتتسع ، ولا يحكم فيها ..

ونسى الناس أمر الجثة التى اختفت ولم يعثر لها على مقر ، بعد أن عجز أولاد عم « شفتر » عن اثبات أن زوجته وأهلها خطفوها ، وبعد أن اتضح انه لا مصلحة لهم فى الجثة ذاتها ..

***

وبعد سنين ، رأى أهلّ الناحية أنفسهم أمام ضريح مبنى من الحجر الابيض وطلى بالجير الابيض ، وكتب عليه مقام سيدى « الخباش » ، وسأل الناس عن سر بناء هذا الضريح ، فعلموا ان أحد أتباع « شفتر » ممن تابوا وأنابوا ، رأى فى المنام « شفتر » نفسه ، يوقظه من النوم ويقول له :

ــ تحت الصفصافة ..

وتوالت زيارة « شفتر » لتابعه ليلتين اخريين متتابعتين ، فأدرك انه يطلب أن يقام له ضريح تحت الصفصافة خصوصا انه قال فى الليلة الاخيرة :

ــ ستجدنى هناك ..

وذاعت للشيخ « الخباش » شهرة بعيدة ، وقصده المذنبون الذين تابوا ، بعد أن دوخوا الحكومة ، ثم قصدته النساء اللاتى طال انتظارهن للولد .. وعاد أحد أهالى الناحية من زيارة له من الصعيد روى لجلسائه فوق المصطبة ، انه رأى فى احدى القرى هناك وتحت الصفصافة ضريحا لسيدى « الخباش » ..

وانقطع الناس عن التساؤل عن معنى هذا الاسم ..

الرحلة



كانت الشوارع كأبهى ما تكون .. تفيض من واجهات الحوانيت والاندية الليلية ، ودور السينما ، أضواء من كل لون ، تدور حول نفسها ، وترسم دوائر ، ومربعات وألفاظا وصورا .. وكان الجو باردا بالنسبة لقادم من القاهرة ،ولكنه كان عند أهل المدينة الكبيرة ، جميلا ومنعشا ، فراح أفراد كثيرون يتأملون واجهات المحال فى استمتاع وفراغ بال ، وهم يتأملون فى الوقت نفسه خواطرهم التى تدور فى رؤوسهم .. وكان مثل هذا الجو خليقا بأن يملأ نفس الدكتور « مجيد التلاوى » بالراحة والدعة ، ولكن وجهه كشف عما امتلأت به نفسه من ضيق ووحشة ، وشعور بالضعف والغربة .. وقد راح يتنقل من واجهة محل الى واجهة أخرى ، ومن مدخل سينما الى مدخل ناد ليلى ، ومن مكتبة تعرض الكتب والصحف ، الى محل بقالة يعرض حبال « السجق » المعلقة على بابه ، وكأنها أجساد مشنوقين ، ضمرت مع الايام ، ومع الاهمال .. وهو لا يجد فى كل ما يرى ما يسليه ، أو يخفف عنه شعوره القابض ، بأنه متروك ومهمل ، ولا شأن له عند أحد ..

ولم يكن مبعث هذا الشعور انه قادم من القاهرة ، ليزور ابنه « أمجد » الذى يتعلم فى احدى جامعات وسط أوربا ، فاوربا سواء أكانت بعواصمها الغربية أو بعواصم الوسط ، كفيينا ، وبرلين ، وميونيخ ، مألوفة عنده .. فقد تعلم فى أوربا ، وتردد عليها بعد ذلك فى مؤتمرات ومهمات ورحلات شخصية ..

ولم يكن كذلك مرد شعوره بالوحشة انه وحيد ، فقد فقد زوجته منذ أكثر من سبع سنوات •• فألف حياة العزوبة ، ولم تعد المرأة عنده ـ سوى دواء يتعاطاه المرضى من الظاهر •• فلم يكن اذن ثمة داع للانقباض •• ولتفاقم شعوره بالوحدة ـ وبالوحدة على وجه خاص ـ الا انه الان يتجاوز الخامسة والاربعين يتسرب الى نفسه ـ من حيث لا يدرى ـ شعور متسلل خفى ، بأنه ينتهى ، وبأن مابقى أقل بكثير مما فات •• بيد أنه انسان طبع على التفاؤل ، فلم يدع لهذا الشعور فرصة يغلبه فيها على نفسه •• ولكنه فى ذلك المساء كان يتسكع فى عاصمة أوربية وحده ، والليل بارد ، وهو يتأمل من الخارج حياة الناس والجميع يعرفونه ، وهم لا يحفلون بوجوده ، والقبعة على رأسه تضفى على وجهه تحتها كآبة ، تزيده شعورا بكراهية نفسه ••

ويزيد الامر سوءا انه كلما نظر الى واجهة زجاجية ، لم ير فيها الا صورة رجل اشتعل رأسه شيبا ، ولبس مناظر غليظة على عينيه •• كل ذلك هيأ فرصة ذهبية لشعور التشاؤم ، فانقض عليه •• ولو انه وجد ابنه « امجد » فى البنسيون الذى يقيم فيه ، لهان الخطب ، الا ان « امجد » كان قد سافر مع زملائه الى الشمال فى رحلة تدريبية فى بعض المصانع الكبرى •• والسيدة صاحبة البنسيون أرملة عجوز فقدت كل أولادها فى الحرب ، ولم يبق لها من الدنيا الا آلام روماتيزم حادة ، ووجه لايذكر حتى بآثار جمال قديم •• وحديثها لا يتجاوز فظائع الحرب وويلاتها وآلام الروماتيزم وأهوالها ••

فلم يكن ثمة بد من البحث عن مكان فى فندق ، فاهتدى الى فندق فى وسط المدينة •• فاستأجر فيه

حجرة تطل على الشارع الرئيسى ، من الطابق السادس، فكأنه يشرف على المدينة من برج عال حيث لا يصعد اليه من ضجيج الحياة الا أقل القليل ، فكان بمثابة خيط رفيع يصله بها ..

وقد كان الامل أن تعينه هذه الحجره الفسيحة ، والانيقة ، على ان يتخفف من شعور الكآبة الذى لازمه ، ولكن يبدو ان الانسان حينما تصيبه علة ، يكون كل ما حوله ، سببا فى مضاعفتها .. فقد زادته الحجرة شعورا بالغربة والوحدة • كان يرى فيها كل يوم باقة من الورد الجميل ، تضعها ادارة الفندق تحية لضيوفها ، وكان فى استقباله وتوديعه عند قدومه الى الغرفة وانصرافه منها ، آنسات صغيرات ، يكاد يقفز الدم من وجناتهن لفرط صحتهن ، ورقة بشرتهن .. فاذا حيته احداهن فى الليل ، عند ذهابه للنوم بعد أن تسأله ان كان يطلب شيئا ، ثم أقفلت الباب وراءها ، أحس انه مسجون ، وانه سيختنق خلف هذا الباب ، وان اليد الرقيقة التى اغلقته لا تختلف فى الواقع عن يد أقسى سجان فى الدنيا ..

وقد خطر للدكتور مجيد ، وهو يسير فى الطريق، على غير هدى بأنه أخطأ اذ لم يسافر فى آلتو الى ابنه فى الشمال ليطمئن عليه ويحدثه •• وسأل نفسه : يحدثه فى اى شىء ؟ ورأى « مجيد أمامه علامة استفهام ضخمة يكاد يمسكها بيده ، وعجب أن يحدث له ذلك لاول مرة . انه لم ير فى حياته علامة استفهام تضىء وتنطفىء ، وتقف امامه كأنما تعابثه وتهزأ به ، وتخرج له لسانها••لابد اذن ان يكون مريضا بمرض ما•• الكبد ، أو المرارة ، أو المصران الغليظ ، أو ضغط الدم .. أو السكر .. مرض ما .. يجهله ، أصابه فجعله

كئيبا ، والقى فى روعه ان حياته انتهت ، وانه اخطأ خطأ فاحشا اذ اختار جانب الجد والعمل والفضيلة ، واطلق عليه من جراب الوهم علامات استفهام تتصدى له فى الطريق وتضىء وتنطفىء ..

وبقيت العلامة أمامه ، وكلما خطا خطوة زادت منه قربا ، حتى هم بأن يمد يده ليمسكها لولا خوفه من أن يراه أحد فيضحك عليه .. ولكنه أحس بأنه سيصطدم بها فعلا فخلع نظارته ، ومسحها بمنديله ، ورأى نفسه أمام علامة استفهام مضيئة ، موضوعة أمام دار سينما والناس حوله ، توقفت عن النظر اليها ، وأخذت تنظر اليه .. فتلفت حوله وقد غرق حتى الاذنين فى خجله ، ثم جرى مذعورا الى باب أول مقهى صادفه .. واندفع الى المقهى ، وقد آلمه انه رأى ان عنوانه هو :

ـ الثور الازرق ..

وخيل اليه أن ما قرأه ليس الا من فعل الوهم أيضا ؛ فقد كان يحدث نفسه ، وهو يجرى .. انه يعدو كالثور .. ورمى نفسه على أول مقعد ، بجوار أول منضدة صغيرة خالية ..

وصفق وأنفاسه تتلاحق كأنما جرى شوطا بعيدا ، وطلب فنجانا من القهوة باللبن ـ مع قطعة من فطائر الاهلة ـ مع انه لم يكن جائعا ولا قادرا على تناول أى طعام .. وجاءه فنجان القهوة الضخم ، يعلوه زبد أبيض تتصاعد منه أبخرة .. فشعر بالدفء ، وغمره احساس بالراحة البدنية ، فدفع كرسيه الى الحائط بشدة ، وكأنما يحتمى به ، ثم مد ساقيه ، وأخذ نفسا عميقا وبدأت نفسه تثوب الى الهدوء شيئا فشيئا .. فمد يده الى الفطيرة ، وأخذ يقضم منها قطعا صغيرة ، وهو يتأمل فى الجالسين ، والقائمين ، والخارجين

ولكن لم يمض وقت طويل حتى دخلت الى المقهى شابة طويلة شقراء .. تبدو عليها العصبية ، أدارت عينيها فى المكان ثم أخذت مقعداً وجلست فى الناحية الثانية من المنضدة الصغيرة التى جلس الدكتور «مجيد» اليها ، ولم يكن فى ذلك شيء يدعو الى الاستغراب أو الاحتجاج ، فقد جرت عادة الشعب الذى نزل « مجيد » ضيفا على عاصمة بلاده ، أن يجلس رواد المقاهى فيه ، الى مائدة واحدة ، ولو لم يكونوا على معرفة سابقة ، ثم ينصرف كل منهم الى شأنه ، كأن أحداً لا يشاركه هذه المائدة او يجلس اليها ..

وأخرجت الفتاة من حقيبتها سيجارة ، وأشعلتها وكأنها تطلق رصاصة .. ثم أخذت تنفث دخانها ، وكأنما تزيح شيئا جثم على صدرها .. فانتقل الى « مجيد » الشعور بالقلق ، أو عاوده ذلك الشعور ــ بعبارة أدق ــ بعد أن كان قد أوشك أن يطمئن ويستقر ويستريح .. ثم أخذ يختلس النظر الى جارته ، فلما وجد انها لا تلتفت اليه ازداد جرأة فى النظر اليها ، ومتابعة حركاتها ، بينما راحت هى طوال الوقت تنظر بغير انقطاع الى باب المقهى .. فقطع « مجيد » بأنها لابد تنتظر قادما .. ولم يطل انتظارها ، فقد تحقق صدق ما توقعه ، دفع الباب رجل ضخم ، يوحى منظره بأنه مصارع أو ملاكم .. وجلس الى جانبها وهو يلهث ، وأدرك « مجيد » مما قاله الرجل انه يعتذر عن تأخره ، ثم راحا يتحدثان فى صوت هامس فترة من الوقت ، صافحها بعدها ، وقد أخذ يدها الرقيقة بين يديه الضخمتين ، ورفعها الى شفتيه ، فى تأثر باد ، وامتنان عظيم .. ثم طبع عليها قبلة طويلة أردفها بثانية وثالثة ..

وخيل الى « مجيد » أن عينى الرجل قد امتلأتا

بالدموع ، وانه أصبح صغيرا جـدا ، ورقيقا جـدا ، وضعيفا جدا . ولما انصرف وضعت المرأة ، رجلا فوق رجل وأشعلت سيجارة ثانية ، فى هدوء تام ، كأن الرجل قد أخذ معه ــ وهو ينصرف ــ كل ما كان فى نفسها من انفعال ، وتأزم ، وهياج ..

ونظرت الشابة الى « مجيد » ، وكأنها تعرفه من قبل قائلة :

ــ من ايران ؟ ..

فخيل اليه ان حبلا قد تدلى اليه فى أعماق البئر التى سقط فيها .. بئر الوحدة والـكآبة ، فأجاب :

ــ انا .. ؟ لا ..

وقبل أن يجيب عادت تسأل :

ــ اذن اسبانى ؟ ..

وهز راسه ، فقالت فيما يشبه صرخة ضعيفة :

ــ ما أغبانى .. من مصر قطعا ، كيف لم أفطن الى ذلك ، ان وجهك أكثر بياضا من وجوه المصريين ولـكن تعبير الوجه ، والجو ..

فاندفع « مجيد » يسألها وتهلله باد :

ــ هل زرت مصر ؟ ..

فهزت رأسها قليلا وكأنما تفكر فى هل تجيبه بصراحة أم تخفى عنه الحقيقة ، ثم قالت فى بطء :

ــ لا .

ثم أكدت هذا النفى ــ بغير داع ــ قائلة :

ــ أبدا .. لم أرها ، ولعلى لم أفكر فى ذلك ..

فاندفع « مجيد » وقد ادنى مقعـــده منها بحركة لا شعورية وقال :

ــ ولـكن مصر ..

فقاطعته :

ـ أعرف أنها بلاد جميلة .. ولكنك لا تقابل انسانا حتى يقول لك ان بلاده أجمل بلاد الدنيا .. حتى الانجليز لا يترددون فى أن يقولوا نفس هذا الكلام ، على الرغم من الضباب الذى يكادون يختنقون به .. والمطر والبرد ..

وقاطعها « مجيد » قائلا وهو يلوح بيديه كطفل غمرته موجة ماء فكادت تغرقه :

ـ ولكن بلادكم ..

فابتسمت ابتسامة من يسمع فعلا كلام طفل وقالت :

ـ أشكرك مقدما .. بلادى جميلة طبعا .. ولكن لماذا كل هذا .. ان الناس حينما يبدأون فى التعارف يقولون شيئا من هذا القبيل ، التماسا لموضوع يتكلمون فيه . ولكنى وفرت عليك هذا العناء ، وهاجمتك فدعنا من الجغرافيا ..

فضحك « مجيد » من الاعماق .. ولو التفت لرنين ضحكته ، لادهشه ان انتقل فى قفزة واحدة من وهدة الكآبة الى قمة البهجة المشرقة .. ولكنه لم يكن قادرا ـ وقتذاك ـ على مراقبة نفسه ، فقد انطلق ـ ككل السعداء ـ على سجيته ، فلما سمعها تقول له : «ولكن ارجوك أن تقول لى بصراحة هل لديك ما يمنعك من مبارحة هذا المكان القبيح .. هل تنتظر مثلا أحدا ؟ الثور الازرق ! ما معنى ذلك ؟ لقد جن الناس بحق .. ثور أزرق

وانتفض « مجيد » بفرحة هزته من منبت شعره الى اخمص قدمه ، فقال والبشر يطفح على وجهه :

ـ انتظر أحدا .. لا .. لا .. انه اقتراح جميل ..

ووقفت الشابة فى بطء ، ثم أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ، نظرت فيها الى وجهها .. وضغطت بخفة

بشفتها العليا على شفتها السفلى ثم بالعكس ، بعد أن أخرجته القلم الاحمر ، ومرت به عليهما .. ثم أعادت المرآة الى الحقيبة وتهيأت للانصراف ، بينما جرى « مجيد » الى عامل المقهى ، ودفع له ثمن مشروبه فى لهفة وعجلة باديتين .. ثم عاد الى الشابة بعد أن ترك اكرامية ، لابأس بها للعامل .. ولما أصبحا خارج المقهى على أفريز الطريق ، ملأت الشابة رئتيها من الهواء ، ثم نظرت الى « مجيد » نظرة تساؤل قائلة :

ـ ما الذى جاء بك الى هذا المكان القبيح .. المصريون لايضعون فيه اقدامهم ..

وارتبك « مجيد » ، وتلعثم ثم اجاب ، دون أن يلتفت الى أنها تتحدث عن المصريين كأنها تعرفهم :

ـ قبيح .. انه كغيره من الامكنة ، ثم .. ثم انك جئت اليه ، ويبدو انك أكثرت من التردد عليه حتى أصبحت تضيقين به ..

فرفعت كتفيها فى استخفاف وهى تكاد تضحك وقالت :

ـ ماذا أفعل .. مكتبه فوق هذا المحل مباشرة ..

فرد « مجيد » فى الحال :

ـ مكتبه !

فقالت :

ـ نعم .. مكتبه .. مكتب الصديق الذى رأيته معى

ولم يزد « مجيد » على أن قال :

ـ آه ..

وبدأت الشابة تسير فى خطى بطيئة متقطعة ، و« مجيد » وراءها لايدرى الى أين تقوده ، غير انها بعد بضع خطوات بدأت تتكلم وكأنها تحدث نفسها :

ـ انه يعمل رساما فى جريدة تقع مكاتبها فوق الثور الازرق .. فهل فهمت ؟
ولم يستطع « مجيد » أن يمنع نفســه من صــيحة تعجب ! .. « رسام » ! ..
والتفتت اليه فى تثاقل وفى هدوء تام وقالت :
ـ نعم .. رسام ! ما وجه الغرابة فى هذا ؟ ..
وكان « مجيد » خليقا بأن يتحرج من التعليق على صديق هذه الشابة التى لم يعرفها من قبل .. ولكن سعادته ، والاسلوب الخالى من التكلف الذى تحدثت به الشابه اطلقا لسانه ، فقال :
ـ ظننته شيئا آخر .. ملاكما أو مصارعا أو حامل أثقال ..
فانفجرت الشابة فى ضحكة قوية ، احتقن لها وجهها بدم احمر قان ، زادتها حيوية ، وأخذت تهزها هزا .. فزال عنها تماما مظهر الـكآبة الثقيل الذى كان يظللها فى المقهى ..
وحاولت أن تتكلم ، ولـكن الضحك كان يقطع عليها الـكلام ، ويملأ عينيها بالدموع، فأخرجت منديلا صغيرا من حقيبتها ، وأخذت تمسح دموعها ، دموع الضحك ، ثم قالت بعد أن توقفت عن السير تماما :
ـ هو كذلك .. مصــارع .. أو ملاكم .. ولـكنه رسام .. وهو فى الحقيقة طيب ووديع ، وهذه مصيبتى
ثم استأنفت سيرها وهى تقول :
ـ هذه هى الـكارثة .. !
والحق ان « مجيد » لم يكن مستعدا أن يفهم أى كلام عن الـكوارث والمصائب فقد بلغ قمة السعادة ، ولكنها التفتت اليه وسألته بحماسة :
ـ هل سمعت ؟ .. هذه هى الـكارثة ..

فقال على الفور دون أن يفكر :
ــ بالتأكيد .. بالتأكيد .. هــذه هى المصيبــة .. الكارثة ..
وأدهش الشابة انه اخذ يردد لفظ المصيبة والكارثة ، ووجهه تفيض منه علامات السرور ، فسألته :
ــ انت لا تحب أن تسمع كلاما جادا .. حزينا .. ومع ذلك لقد كنت فى الثور الازرق ، تغمرك أمواج من دخان السجائر ، وسط ضجيج كضجيج الاسواق ..
وسر « مجيد » أنها تعاتبه ، كأنما يعرفان بعضــهما بعضا منذ دهر، فاندفع يعتذرلها وعيناه تلمعان بالسرور:
ــ بالعكس .. أريد أن أسمع كلاما .. كلامك ..
وعادت خطى الشابة تقصر ، وعادت الــكآبة تظلــل وجهها بسحابة حقيقية ، وراحت تستأنف الحديث بنفس نبرتها الاولى ، كأنها تحدث نفسها :
ــ نعم .. انه طيب بلا شك .. طيب جدا ، ويزيد الامر تعقيدا انه يود أن يسعدنى بأى ثمن .. ولو فهم الحقيقة لتحطم وانتهى .. ومن هنا يجب على أن أتحمل وأصبر حتى يظهر مخرج للأزمة ..
وعلى الرغم من أن سعادة « مجيد » كانت قد بلغت قمتها ، الا انحكاية الصوت الذىكان يسمعه، استطاعت أن تعكر عليه قليلا احساسه بالسعادة ، فازداد انتباها الى ما تقول ، بعد أن كان فرحــا بمجرد وقوع نبرات صوتها على أذنه ، كما يسمع الانسان لحنا موسيقيا دون أن يتبين فقراته
وعادت الشابة تقول :
ــ حينما رأيتــه كنت لا أتوقع أن تقوم بيننا علاقة .. اية علاقة .. فنحن من طرازين جد مختلفين .. انه فنان ، وأنا أشتغل فى شركة تأمينات .. انه يعيش فى

عالم الاحلام ، وأنا أعمل فى دنيا الارقام .. وأنا لا أحب السهر ولا أطيق الموسيقى الكلاسيكية ، ولا تعجبنى الحياة البوهيمية المبعثرة .. وهو لا يذهب الى بيته الا قبيل الصباح ، ولا يتصور الحياة بغير موسيقى .. وحفلات الاصدقاء ، هى زاده ومتعته ، والاضطراب فى المواعيد وفى الحياة ، هو القانون الاسمى له .. ومع ذلك تعارفنا ، والاعجب اننا تآلفنا .. ان الحياة تتحدى كل منطق لنا نحن الآدميين ..

ولم يستطع « مجيد » أن يطيق الصمت ، فقال :

ـ انتما صديقان ولا تزالان صديقين ..

فأجابته فى تثاقل :

ـ نعم .. ولكنه بدأ يدرك ـ على صورة ما ـ ان فى الامر خللا .. انه أخذ يلح أخيرا فى أن نتزوج .. ولم يكن يفعل ذلك فى الماضى .. انه يرجو أن يكون فىالزواج وسيلة لمعالجة الشروخ التى بدأت تظهر فى بناء صداقتنا .. وأنا أؤجل وأسوف وأنتحل الاعذار حتى فقدت كل الاعذار ، وأصبح لا مفر من أن أواجه الحقيقة معه .. اننا فى طريقنا الى قمة الازمة

وكانا قد وصلا فى سيرهما الى مكان قريب من مطعم فاخر يعرفه « مجيد » فسألها ان كانت لا تمانع فى أن يتناولا معا طعامهما هناك .. ولم تجبه ، بل اتجهت الى باب المطعم ، وسار خلفها ، حتى أخذا مكانهما على مائدة .. فأحس بالفارق العظيم ، بين قبح مكانالثور الازرق حينما قارنه بهذا المكان الانيق الفسيح .. ولكن ما لبث « مجيد » أن ذهل عن المكان وعن السيدة التى معه ، حينما أدرك بوضوح انه سيتناول الطعام مع سيدة لم يكن يعرفها منذ ساعة مضت ـ أو أقل من ذلك ـ وهى مع ذلك ليست من بنات الهوى .. بل ان

كل ما حولها ، وما صدر عنها يدل على أنها جادة وعاملة فى الحياة .. وهمس لنفسه :

ـ هذه هى أوربا .. وهؤلاء هم الناس .. الحروب المروعة ..

وأفاق « مجيد » على ورقة طويلة تمتد أمامه .. تمدها يد عامل المطعم ، فنظر اليها ، وقد أخجله أن يسرح بخواطره بعيدا عن المكان ، فنظر الى العامل فى ارتباك واعتذار ، وأخذ قائمة الطعام ..

وعندما كانا يتناولان الطعام ، استطاع أن يتأمل وجهها .. جمال يخالطه فخر وزهو ، ولكنه لاحظ ان هذا الجمال تلونه الكآبة بلون قاتم نوعا .. كأنه تبدو فى نظراتها التى تطلقها ، الى لا شيء ، ثم تستردها فى بطء ، كأنها تحار الى أية جهة تنظر ، كما استطاع أن يتبين شيئا آخر ، هو ثقتها الشديدة بنفسها ، وسخريتها بالناس ، وربما بالحياة كلها .. ولم يحس انه يأتى تصرفا محرجا حين سألها :

ـ ولماذا ترفضين الزواج به ؟

فلم تضطرب ولم تتردد فى أن تقول :

ـ لانه فى الواقع لايريد أن يتزوج .. وهذا هو عيب الرجال .. انهم لايعرفون أنفسهم .. انهم كالاطفال الذين يخرجون مع أمهاتهم .. لايقع نظرهم على لعبة أوحذاء ، أو قبعة ، أو فطيرة ، الا ورغبوا فيها واشتهوها .. ان ادولف .. لايبحث عن زوجة .. انه يبحث عن أمه ..

وبدت على « مجيد » حيرة حقيقية ، وخيل اليه ان الشابة تعاتبه أو ان الخمر بدأت تلعب براسها ، أو انه خدع فى منظرها وانها لا تزيد عن أن تكون واحدة من اللواتى يقتنصن الرجال ، ولكن فى ثوب أكثر احتشاما

وبأسلوب أكثر خفاء .. وأدركت الشـابة بغريزتها أن الاجابة صدمت « مجيد » وأبعدته ــ للحظة ــ عنها.. فرفعت كأسا الى شفتيها ، وأخذت ترشف منها ببطء ، وهى تنظر الى « مجيد » ثم استأنفت حديثها :

ــ انه يبحث عن أمه .. أى شيء غريب فى هذا .. أمه ماتت، وقد كان وحيدها ، وقددللته كثيرا ، وأسعدته وحملت عنه كل عبء .. كان يضع راسه على فخذها ويضـــع ــ فى الوقت نفسه ــ على رأسها كل أزماته ومشاغله .. وكانت تطيعه وتنفذ أوامره فى الظـاهر ، وتقوده وتعلمه ، وتنفذ رغباتها فى الواقع .. وهذا هو عيب الامهات القويات .. حينما يختفين من حيـــاة أولادهن ، يصيـــبهم الذعر ويصبحون فى حاجة الى « عكاكيز » .. وادولف ، يعتبرنى « عكازا » .. ولكنى لا أصلح لهذه المهمة .. انه يفضح نفسه فكلما رأى منى شيئا يشبه أمه ، صاح :

ــ انا اعبدك .. واذا استعملت الرائحة التى كانت تستعملها أمه شعرت بأنه أصيب بدوار.. أن أمه ــ بعد أن ماتت ــ لا تريد أن تدع ابنها لامرأة أخرى ..

وأفاق « مجيد » على هذا الـكلام الذى لم يعتد أن يسمعه فى بلاده ، وقال فى سذاجة :

ــ أتغارين منها ؟ ..

فقالت فى ابتسامة حزينة :

ــ ولم لا .. ؟ ومع ذلك فقد كان ذلك فى البداية ، والآن لقد سلمت لها بالانتصار وأحاول أن أترك ابنهـا ولـكنه لا يريد .. لانه لا يعرف ..

وبدأت فرقة المطعم الموسـيقية الوترية تعزف .. فابتسمت مرة أخرى ابتسامة حزينة قائلة :

ـ هذه هي الموسيقى التى يقول ادولف ان الله خلقها أولا .. ثم خلق الدنيا لتسمعها ، ومع ذلك هو رسام وليس موسيقيا .. وخيل الى الشابة أن « مجيد » لايهمه أن يسمع مثل هذه القصة ، أو انها اسأمته ، فغيرت الكلام . ولما أتما تناول الطعام ، كان يبدو عليها انها فى حالة طبيعية وان ماكان يلاحقها أو يملؤها من انفعال قد زال ، واقترح عليها أن يذهبا الى ملهى أو سينما ، ولكنها اعتذرت بأنها مضطرة للايواء الى فراشها مبكرة ، لان لديها عملا فى الصباح . وقاما يسيران فى الشوارع .. ثم توقفت بعد قليل ، واستأذنته فى الانصراف ، ثم شكرته على الدعوة ، واعتذرت له عن الاثقال عليه بحديث ممل ..

وعرف «مجيد» أنها ستتركه بعد ثوان ، وانه سيعود الى وحدته الموحشة، فشعر بما يشبه الاختناق وأمسك بيدها باندفاع ، وسأل فى لهفة :

ـ لن نتقابل ؟ !

وجاءه الرد فى هدوء وبلا تردد :

ـ سنتقابل .. ولكن هذا يتوقف أولا على عملى ، وثانيا على مدة اقامتك هنا فأنا أعمل فى الصباح والمساء ، وأعمل بين فترتى الصباح والمساء بعض الوقت، لاستزيد من دخلى ..

والتوت شفتاها كأنما تحتج على هذا الاسلوب من الحياة ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة سألته :

ـ فى أى فندق تنزل ؟ ..

فأسرع باعطائها اسم الفندق ، ورقم التليفون ، بل ورقم الحجرة .. فضحكت ضحكة قصيرة ووعدته بأن تتصل به تليفونيا ابتداء من الرابعة ، حتى الخامسة من مساء اليوم التالى ، فان مرت الخامسة دون أن تكلمه ،

فليعلم ان ظروفها لم تسمح بمكالمته ..
وكان « مجيد » راغبا فى أن يلحف فى الرجاء ، ولـكنه خجل فسكت . ولما صافحته فى مودة ظاهرة كان أشبه شىء بمن غاب عن صوابه .. استدارت وتركته..ووقف هو يتابعها كالمأخوذ ، ووقع حذائها يرن فى أذنه ، كأنه الموسيقى التى يحبها صديقها ادولف .. وأخذت خطوط قوامها الرشيق تختفى قليـلا حتى أصبحت سرابا ..
ودار « مجيد » على عقبيه فى الاتجاه المضاد .. وسـار كالحالم ، وهو لا يكاد يقوى على مساءلة نفسه :
ـ ماذا دهاه ؟ ولـكنه مع ذلك كان يحس بخدر عذب يسرى فى جسمه ، ونشوة خفيفة تملأ رأسـه وحرارة شديدة تنطلق من قلبه الى كل ناحية فى بدنه ..
ووصل الى حجرته فى الفندق ، بعد أن كلت قدماه من السير على غير هدى . وكان قد اشترى فى اليـوم السابق صندوقا من الاقراص المنومة أو المهدئة ، فكان يخرجه من درج « الكومودينو » الملاصق لفراشه ويلقى به من النافذة ، فقد كره أن يتعاطى منوما وهو فى هذه السعادة المختلطة بالحيرة والدهشة والخجل.. انه يريد الآن أن يحيا بكل جارحة فى نفسه .. ولما استلقى فى الفراش بثيابه أولا ، ثم بملابس النوم بعد ساعات، أخذ يجيل عينيه فى سقف الحجرة ، وكأنه لا يصدق كأنه بعث من جديد .. انسانا بقلب وعاطفة ! ورأى وجه ابنه فى هذه اللحظة ، فأدار وجهه للحائط ، وبقى هكذا ، حتى جاءه المنقذ السحرى .. النوم !

***

مرت ساعات اليوم التالى ، بطيئة متخاذلة ، قضاها فى أكثر من مكان ، وهو قلق نافد الصبر ، غير ملتفت

للناس ، ولا لما يجرى حوله .. وقبل الرابعة ، بأكثر من ساعة ، جلس ينظر الى التليفون فى حجرته بالفندق وكأنه ينتظر الحكم عليه .. وجاءت الرابعة ، فخيل اليه أن قلبه توقف تماما ، ثم تجاوزت عقارب الســاعة ، الرابعة ، ومضت تحصد الدقائق والثوانى وكأنما هى قطرات من دمه تتساقط قطرة قطرة ، مع كل جزء من كل ثانية من دقيقة ..

ودق الجرس أخيرا ، عند منتصف الخامسة ، فأهوى على السماعة ، ورفعها قبل أن يتم الجرس دقته الاولى ، وجاء صوت عاملة التليفون ، معلنا انه مطلوب .. ثم جاء صوت الشابة ، ثم لم يدر ماذا سمع ولا ماذا قال ، فقد عرف شيئا واحدا .. انها ستقابله اذا لم يكن لديه مانع ، فى مقهى الثور الازرق ، فى الساعة السابعة ..

ولم يتبين حتى انها اختارت نفس المقهى الذى لعنته واعتبرته أقبح مكان فى الدنيا .. ولما أفاق من فرحته ، ادرك أن عليه أن ينتظر ساعتين ونصف ســاعة ، وهو ما يساوى عنده اذ ذاك دهرا كاملا .. الى اين يذهب أو ماذا يفعل فى هذا الوقت الطويل ؟ .. خيل اليه أن أحسن ما يفعله ، هو أن يتناول حبتـين من الاقراص المنومة ليغيب عن الدنيا ، ولـكنه خشى ان هو نام الا يستيقظ فى الموعد المأمول .. وقبل السادسة ، كان فى مقهى « الثور الازرق » فوجده غاصا برواده ، الذين أحاطت بهم سحابات من دخان الســجائر والسـيجار والدخان المتصاعد من أكواب المشروبات الساخنة ، وقد اختلطت ضحكاتهم بأصوات حديثهم بوقع الاقدام بصوت الباب الذى ما يكاد يفتح الا يقفل ، بفعل فواصل آلية ، ترده حيث كان مع صوت يشبه صوت جناحى طـــائر قوى ..

وبحث عن مكان خال ، فلم يجد الا مقعدا فى أقصى المقهى قريبا من الممر المؤدى الى القسم الداخلى حيث تعد طلبات الزبائن ..وجلس يتأمل هذه الحركة الدائبة فنسى نفسه فترة لايدرى كم طالت ، ولكنه أفاق حينما رأى « ادولف » صديق صاحبته ، الفنان الطويل الضخم قد مر به ، وهو يبحث عن مكان .. وود «مجيد» أن يقوم من مكانه ، وأن يتابعه ولكنه خاف ، وخجل، فبقى حيث هو ، وقد استولى عليه قلق جارف ..

وقبل أن تخف هذه الصدمة لاحت عند الباب صاحبته جميلة متأنقة ، نشيطة ، دارت بعينيها فى المكان كله وبددت سحبه المتكاثفة ، ثم لوحت بيدها ، ثم ابتسمت ابتسامة ، أحس « مجيد » بأنها أضاءت المكان وأسرعت الى الناحية الاخرى من المقهى، وأيقن «مجيد» أنها لابد أن تكون قد اتجهت الى حيث يجلس «ادولف» .. وشعر بألم ، وكأنه طعن فى صدره ..

وعبثا حاول أن يقنع نفسه بأن أفراحه وآلامه هما عبث صبيانى لا مبرر له ، وأن هذه الشابة ليست فى حياته الا عابرة سبيل تجرى بسرعة الى غايتها هى ، دون أن تلتفت اليه .. وبعد قليل رأى الفنان على باب المقهى يفتحه ثم ينصرف وحده .. ونظر « مجيد » فى ساعته فعرف أن عليه أن ينتظر قرابة الساعة ، ولكنه لمح على عتبة الباب الشابة تهم بالخروج ، وفيما هى تستدير ، يقع نظرها عليه ، فتعدل عن الخروج ، وتقبل نحوه مسرعة ، وتمد له يدها مرحبة ، ويمسك بتلك اليد ، وهو لا يكاد يصدق ما يرى ..

وقبل أن تجلس سألته :

ـ لماذا حضرت مبكرا هكذا ؟ ..

وأجابها مرتبكا :

ـ ليس عندى ما أعمله ..
وعادت تسأله :
ـ هل رأيته ؟ ..
فهز رأسه وهو لايكاد يستطيع أن يرفع عينيه اليها كطفل ضبط متلبسا بجرم .. وجلست الفتاة بنشاط على مقعد كان قد خلا عند المنضدة المجاورة وقالت فى اشفاق ظاهر ، متسائلة :
ـ ماذا هنالك ؟ ..
ورفعت أصبعها حتى دانت فمها :
ـ لا .. لا ..
وسألها والخجل يعقد لسانه :
ـ ماذا تعنى بسؤالها هذا ؟ ..
فوضعت يدها فوق يده ، وربتت عليها بسرعة وهى تقول :
ـ اذن يجب أن نفترق ..
ثم وقفت فجأة قائلة :
ـ هيا بنا نخرج من هنا ..
وخرج وراءها .. ولم يكادا يستقبلان هواء الطريق المنعش حتى وضعت يدها فى ذراعه بتودد ، وبلا كلفة ، وسألته :
ـ أنا لم أسألك بعد .. هل انت متزوج ؟ ..
وبعد فترة من التردد أجابها :
ـ لا .. ماتت زوجتى ..
ووقفت الشابة وقد بدا عليها أسف صادق ، وقالت :
ـ هذا شيء مؤسف حقا .. لو انى خمنت ذلك لما قبلت دعوتك . ومع ذلك لابد أن تتغلب على كل شيء ، ولحسن الحظ ، لايزال الامر فى بدايته.. اسمع ياصديقى لا تستسلم للوهم ، انها الوحدة وتغيير الجو .. والحرية

فى الاتصال بالنساء اللاتى لا تجدونهن فى بلادكم .. المرأة هنا فى متناول الرجال ، والاقتراب منها يوهم الرجال عندكم ، بما لايوحى به أبدا لرجالنا . لقد بردت أعصاب رجالنا ، وأحكموا ضبط خيالهم ، فأصبح بين الحب ومجرد الحديث أو المزاملة فى رحلة ، أوالمجاورة فىمسكن، أو المشاركة فى عمل ، ابعاد عظيمة .. ثم توقفت قايلا ، وكأنها تهم بعمل خطير ثم قالت :

ـ وعلى كل حال لست حرة .. فأنا مرتبطة ، نعم أنا مرتبطة برجل آخر

وغاض الدم من وجه « مجيد » حينما سمع ذلك وكاد يترنح .. فشدت الشابة على ذراعه ، وأسرعت وهىتكاد تجره جرا ، وتقول فى الوقت نفسه :

ـ لقد أعددت لك برنامجا حافلا ، سنذهب الآن، الى « لونابارك » ..

وفى « لونابارك » ، اختارت له أول ما اختارت لعبة «الاطباق» التى يشترى اللاعب فيها بنقود قليلة ، صفا من الاطباق الرخيصة ثم يأخذ فى قذفها بأقصى قوته ، ليشبع فى نفسه غريزة التحطيم ، وليسمع بأذنيه صوت الاطباق وهى ترتطم بالجدار ، وتقع شظايا صغيرة ..

وقالت وهى تغريه بممارسة هذه اللعبة :

ـ ستستريح بعدها ..

وألقى صفا وراء صف من الاطباق حتى تصبب عرقه فأخذته الى مقهى داخل الملعب يطل على بحيرة صناعية، تسبح فيها اسراب الاوز والبط والبجع، ولم يكد يجلس حتى سألها :

ـ تقولين انك ..

فهزت رأسها علامة الايجاب ، وهى تزم شفتيها على صورة لم يفهم منها اذا كانت آسفة أو سعيدة ، أو انها

تبقى مجرد اغاظته ، ولـكنها لم تلبث حتى تكلمت :
ـ لقـــــد كنت منتوية أن أحدثك اليوم عن باقى قصتى .. فلقد احسست منذ اللحظة الاولى، أنك تأثرت اذ هاجمتك بالحديث وزاد تأثرك بجولة الامس ، وكان ذلك أكثر مما حسبت أو توقعت ، لقد أحسست بخطئى وخيل الى انه من واجبى أن أبتعد عنك ، وألا أتصل بك اليوم .. ولـكنى أشفقت من أن يزداد ضيقك بالوحدة وأن تتجاوز الصدمة القدر الذى يجب أن تبقى فى حدوده .. لقد ظننت أول الامر أنك قد تكون فى حاجة الى صحبة زميل أو زميلة ، لمجرد التحدث الى انسان ، وكان الافضل لى أن يكون انسانا مجهولا بالنسبة لى ، لا يلبث أن يختفى من حياتى . وكان كل ماحسبته خطأ فى خطأ . من يدرى قد يكون أسلوب حياتكم القائم على التحفظ ، والاتئاد ، أفضل من أسلوب حياتنا العاصفة السريعة .. على كل حال يجب أن نعرف ، ان هذه آخر مقابلة لنا ..سيذهب كل منا الى حال سبيله .. ولكيلا نتورط بأكثر ممـا تورطنا أحب أن تعرف أيضا أننى سأتزوج

وصاح « مجيد » : ستتزوجين ؟

فضحكت وقد تجاورت فى عينيها دلائل السعادة ، بآيات اشفاق عميق وقالت :

ـ لا ليس أدولف انما هو شاب أجنبى .. ليس الامر سهلا تماما ولكن يبدو لى أنه لا مفـر من ذلك .. فأنا أحبه ، انه فى الواقع ممتاز وباهر

وأحس « مجيد » عند كل كلمة ، بما يشبه اللدغة السامة .. وكان بوده أن يكون وحيدا لئن ما استطاع الانين ، ولـكنه لم يســتطع ســوى التجلد ، وهمس لنفسه : لابد أن يكون الامر كذلك .. شـــــاب ..

ما أغباني ، وما أعماني عن حقيقة سني
وقصت عليه ، وهما يتنقلان في « لونابارك » انها زاملت في احدى الرحلات شابا شرقيا ، ثم تقابلت معه وصادقته بعد ذلك فتعارفا وتصادقا وتحابا .. وبحثت في حقيبتها عن صورته ، ولكنها لم تجدها ، ولقد كان « مجيد » أشوق ما يكون الى رؤية صورة هذا الشاب .. وبعد أن تجولا حتى كلت أقدامهما ، افترقا على انه سيسافر غدا الى ابنه في الشمال . وفي الليل ، احتاج « مجيد » الى أكثر من قرص من أقراصه المنومة ليفر من الحقيقة التي واجهته بلا رفق ولا انذار ..
وعلى المحطة استقبله « امجد » فرآه على الافريز وهو يكاد يقفز من الفرح . ونسي «مجيد » آلامه وخيبة أمله وخجله في أحضان ابنه ، الذي خيل اليه انه رآه زاد طولا وعرضا ، وان شخصيته نضجت ، وان رجولته كملت .. وقضى معه يوما جميلا ، وليلة أجمل ، تحدثا فيها كصديقين . ولم تكن عادة « مجيد » أن يتخفف من قيود الابوة فقد كان دائما والدا ، وكان « امجد » دائما ابنا صغيرا .. ولكنه هذه المرة ، كان هو في حاجة الى صداقة ، الى عاطفة خالية من كل تكلف ، عاطفة حارة صادقة .. وأعطاه ابنه كل ما طلب وقدمه للاساتذة الذين رحبوا به ، زميلا لهم ، وقدمه لزملائه وزميلاته من الطلبة والطالبات ، فأغرقوه بمباهج حياتهم الشابة
وفي ذات مساء ، كانا يسيران الى حيث يبيتان معا ، وأحس « مجيد » أن « امجد » يود أن يقول شيئا ، ولكنه لا يجد الشجاعة الكافية ، فالتفت اليه أبوه ، وسأله :
ـ لماذا تتردد في الكلام ؟ .. انت تريد أن تفضي الي بشيء ..

فأنكر « أمجد » ولكن الحاج أبيه سهل مهمته ، وخفف عنه العبء ، فقال :

ــ الحق اننى اختـرت لى زوجـة ، وكنت أحب أن تراها ، وأن توافق على اختيارى ..

ولامر ما أحس « مجيد » أن وراء هـذا الحديث ما يدعو الى القلق ، وأحس «امجد» بدوره ، أن أباه وجم، وحالته تغيرت ، فأمسك عن الـكلام ، حتى وصلا الى حجرتهما . وهنـاك ، عاود الـكلام للوالد هـذه المرة واستجاب الابن لابيه ، ولكن فى استحياء وعلى حذر .. فلما سأله الوالد .. من تكون وما حظها فى التعليم ، الى آخر ما يسأل عنه الوالد فى مثل هذه الظروف .. مد « امجد » يده الى درج مكتبه ، وأخرج «ألبوما»ضم صورا عديدة له ،ولخطيبته هيلدا .. ونظر «مجيد» الى الصورة الاولى وانتابه فى الحال هياج ، كان كالاعصار .. وراح يصرخ :

ــ كيف تتزوج أجنبية ، وكيف ترتبط بواحـدة ، لا ندرى من أى أى طريق التقطتها ، ثم ألقى «الالبوم» ناحية المدفأة ، وجمد « امجد » فى مكانه ، ولم يجرؤ حتى على التقاط « الالبوم » فتركه مكانه ، والسنـة النار تكاد تلتهمه ..

ولم يتكلم الابن والاب بعد ذلك فى هذا الموضوع .. آثر « امجد » أن يؤجل الحديث الى فرصـة أخرى ، وراح « مجيد » فى وجوم مستمر ..

وحان يوم العودة ، وذهب الابن يودع أباه على افريز المحطة ، كما استقبله يوم جاء .. ولـكن كان الوجوم يظلهما ، حتى اذا ما أوشك القطار على الرحيل وتعالت صـــفاراته ، وجرى الركاب ، يمينا ويسارا ، ولوح المودعون بأيديهم ، اندفع « مجيد » الى عنق ابنــه ،

واحتضنه بشدة ، ثم انفجر فى بكاء يهزه هزا . وانفعل الابن بانفعال الاب ، وراح يبكى ، وهو لايدرى لهذا كله سببا مفهوما .. وبدأ القطار يتحرك ، فوثب الاب اليه ، وابنه يعاونه وهو يسير الى جانب القطار ، وقبل أن تزداد سرعته ، سمع « امجد » أباه يقول ـ وهو يمسح دموعه بيده ـ وفى وجهه وعينيه اختلط سرور بحزن :

ـ تزوجها .. تزوجها .. انها ممتازة وجميلة وباهرة ! ..

وفرح « امجد » بما سمع ، وجرى وراء القطار ، وهو يصيح :

ـ هل تعرفها يا أبى ؟ ..

ولكنه لم يسمع ردا ، فقد اختفى القطار ..



فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

العــــراق : السيد محمــــود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Dr. Michel H. Tomé,
Paeto Do Colegio No.
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

ســيراليون : Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Siera Leone

ســنغافورة : M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit,
Almaktab Attijari Asshargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU,
7, Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

نيجـــيريا : Mr. Mohamed Said Mansour,
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street,
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

ان السير مع الانسان فى سراديب حياته المظلمة ٠٠ سراديب التآمر والاعتداء ، والحقد على الغير والخوف منهم ، والتحليق معه فى اجواء تحرره وسبحات تطلعه الى ما هو اعلى ، وانبل ، وانقى ، وألطف ٠٠ ان هذا كله هو عالم الفنان ، سواء أكان كاتب قصة ، ام ناظم شعر ، او مؤلف مسرحية ٠٠

ويضم هذا الكتاب مجموعة من القصص الطريف الزاخر بالعواطف والمفاجآت ، تعالج كل قصة منها مشكلة من المشاكل التى يصادفها البشر فى حياتهم الاجتماعية والعاطفية ٠٠ ويغوص فيها مؤلفها الكاتب الفنان الى ابعد اغوار النفس البشرية و « سراديبها » ويعرضها فى اسلوب شائق بارع ٠٠

